Presented to

The Library

of the

University of Toronto

by

Dr. W. E. M. Aitken

١٩٠٦

خاصة الدكتور غصن الحاوي (الشوير. لبنان. سورية)

Dr. G. Hawie.

Shweir

Mt. Lebanon

Syria

Zaidan, Jurji
Ta'rikh al-tamaddun al-islāmī. [A history of Islamic civilization.]
pt. 1
Cairo, 1902

LArab
Z21t
463

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية والجندية
وسعة مملكتها وبيان ثروتها وحضارتها وابهتها واحوال خلفائها
ومجالسهم وقصورهم وكل ما يتعلق بهم وتاريخ
العلم والصناعة والادب والشعر والآداب
الاجتماعية والعادات والاخلاق في
ابان ذلك التمدن مع علاقته
بالتمدن الحديث

تأليف

جرجي زيدان

منشئ الهلال

الجزء الاول

في نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها واحصائها وتاريخ
مصالحها الادارية والسياسية والمالية والجند وغيرها

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٢

425045
3.7.44

المقدمة

لامشاحة في أن تاريخ الاسلام من أهم التواريخ العامة . لانه عبارة عن تاريخ العالم المتمدن في الاجيال الوسطى اوهو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث . وفيه انتهى التمدن القديم ومنه أشرق التمدن الحديث . وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ أعوام وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء الهلال ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على أمل التفرغ لتأليف تاريخ مطول فيه . وقد أعلنا عزمنا على ذلك غير مرة ولا نزال على هذا العزم بعون الله

ونظرًا لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم — لانه تاريخ لسانهم وامتهم وبلادهم بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم — مافتئنا نختلس الفرص لنشر مايسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه في حينه مما يتعلق بهذا التاريخ . وأخذنا نهيئ اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعًا في الهلال . لان مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء وخصوصاً في بلادنا والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولية — فلابد لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة . والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية

وقد صدر من تلك السلسلة الى الآن ست حلقات تتضمن وصف أهم وقائع التاريخ الاسلامي الى مقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان . وقد آنسنا من جمهور القراء شوقًا الى التوسع في هذا التاريخ واستطلاع كنه التمدن الاسلامي . ورأينا في أفاضل كتابنا تطلعًا الى البحث في هذا التمدن والنظر في علاقته بالتمدن الاوربي الحديث . وكتب الينا غير واحد من أهل الادب يسألوننا رأينا في ذلك . فرأينا ان نجعل تتمة السنة العاشرة من الهلال كتابًا في هذا

الموضوع نبين فيه تاريخ هذا التمدن ونستطرد الكلام الى علاقته بالتمدن الافرنجي

وتاريخ الامة الحقيقي انما هو تاريخ تمدنها وحضارتها وليس تاريخ حروبها وفتوحها وخصوصاً على ما تعوده مؤرخو العرب في تاريخ الاسلام . فانهم انما يسردون الوقائع على علاتها وقلما يشيرون الى الاسباب التي تربط تلك الوقائع بعضها ببعض بحيث يرتاح العقل الى تعليلها والنظر فيها وترسخ في ذهنه حقيقة تلك الامة . على اننا نظنهم معذورين في ذلك باعتبار ما كانت تدعوهم اليه الحال من تجنب الخوض في اسباب تلك الوقائع وأكثرها لا ينجو الباحث فيه من الانتصار الى أحد الجانبين وهم يتجنبون ذلك . ولعل لهم عذراً آخر

أما الآن فليس ما يمنعنا من الخوض في هذا العباب وقد حاول غير واحد من علماء المشرق من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه ذلك التمدن فلم يجدوا في كتب القوم ما يشفي غليلاً لتشتت تلك الحقائق وتبعثرها . ولذلك فلما نشرنا في العام الماضي عزمنا على تأليف هذا الكتاب كتب الينا جماعة من هؤلاء الافاضل يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن

والحق يقال اننا أعلنا هذا العزم ونحن لانتوقع العثور على مايزيد عن صفحات تتمة السنة العاشرة (١٦٠ صفحة) . فشمرنا عن ساعد الجد وبذلنا جهد المستطاع في مطالعة ما كتبه العرب في الادب والتاريخ والسياسة وسائر العلوم فيما توفقنا اليه من الكتب المطبوعة والمخطوطة

ومن أمثلة ماقرأناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم مؤلفات ابن الاثير وابن خلدون وابن خلكان والمقريزي والبلاذري وأبي الفداء والخميس والمسعودي والمقري والفخري والسيوطي وابن خرذاذبه وياقوت والاصطخري وغيرهم . ومن كتب الادب الاغاني والعقد الفريد لابن عبد ربه والكشكول والمستطرف وسراج الملوك وغيرها . ومن كتب التفسير والحديث والفقه تفسير الرازي والزمخشري وصحيح البخاري ومشكاة المصابيح والهداية وغيرها

ومن كتب السياسة والادارة كتاب الخراج لابي يوسف وكتاب الخراج وصنعة

الكتابة لقدامة بن جعفر والاحكام السلطانية للماوردي والعقد الفريد للملك السعيد ومقدمة ابن خلدون . وغير ذلك من الكتب في مواضيع أخرى لا يخطر للمطالع انها تفيده في هذا الموضوع وقد عثرنا فيها على فوائد جمة — مثل حياة الحيوان للدميري وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . فضلاً عن المعجمات والفهارس مثل كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي وكتاب كشف الظنون وكليات أبي البقاء وغيرها — وكل ذلك في اللغة العربية

ثم طالعنا كل ما يستطاع الوصول اليه مما الفه الافرنج في الاسلام وتاريخه وآدابه في اللغات الفرنساوية والانكليزية والالمانية مثل كتاب ليبون الفرنساوي في تمدن العرب[١] وكتاب ليبو في تاريخ المملكة الرومانية الشرقية[٢] ومقالات في المجلة الاسيوية الفرنساوية[٣] وكتاب فون كريمر بالالمانية في تاريخ تمدن المشرق[٤] وكتاب مولر الالماني في تاريخ الاسلام[٥] وكتاب ستانلي لين بول الانكليزي في الدول الاسلامية[٦] وكتاب جيبن الانكليزي في المملكة الرومانية[٧] وغيرهم

وقد زاد ماطالعناه من الكتب العربية والافرنجية على مئتي مجلد . عدا ما راجعناه من القواميس العامة والموسوعات على اختلاف اللغات والمواضيع . مع ما رسخ في ذهننا من مطالعة تاريخ المشرق بتوالي الاعوام — فتوفقنا بعد كل ما تقدم الى ما يملأ اضعاف الكتاب المطلوب من الابحاث الفلسفية في تاريخ ذلك التمدن العجيب من وجوهه السياسية والادارية والعلمية والادبية والاخلاقية . فلم نر بدًّا من قسمة الموضوع الى أجزاء نصدر الجزء الاول منها الآن ثم نصدر ما يليه من الاجزاء تتمة للسنين التالية من الهلال ان شاء الله

---

١ La Civilisation des Arabes, par Dr Gustave Le Bon.

٢ Hist. de Bas-Empire, par Lebeau 30 vol.

٣ Journal Asiatique, Series.

٤ Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, von A. von Kremer.

٥ Der Islam im Morgen- und Abendland, von Dr Müller

٦ The Mohammadan Dynasties, by S. Lane-poole

٧ Roman Empire, by Gibbon, 2 vol.

فالجزء الاول وهو هذا فانه أساس ما يليه من الاجزاء وقد صدرناه بمقدمات تمهيدية في العرب والتمدن وحال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة قبيله والحكومة في الجاهلية والكعبة وقريش الى ظهور الدعوة الاسلامية وكيفية ظهورها وانتشار الاسلام والفتوح الاسلامية الى قيام الدولة الاموية فالعباسية فالاندلسية فالفاطمية فغيرها . وقد نظرنا في كل ذلك نظر الناقد لم نذكر حادثة الا أسندناها الى عللها وأسبابها وبينا ما نتج عنها وذكرنا علاقتها بما بعدها . وخصوصاً في ما ساعد العرب على فتح المملكتين الفارسية والرومية مع قلة عددهم وضعف معداتهم وهو بحث فلسفي لم يستوفه أحد في لغة من اللغات على ما نعلم — الا ما قد تراه في كتب بعض الباحثين من الافرنج وأكثره مختصر لا يروي غليلاً . ولا يعابون في ذلك والموضوع بعيد عنهم ولا علاقة له بأحوالهم ولا بأديانهم ولا بآدابهم ولا بتاريخهم الا قليلاً — وانما اللوم علينا ونحن أبناء هذا اللسان وقد سبقنا الافرنج الى البحث في تاريخ بلادنا وامتناء آدابنا واخلاقنا

وعمدنا بعد تلك المقدمات الى النظر في المملكة الاسلامية في ابان عزها وفي احصائها . ثم في الدولة الاسلامية ومصالحها وكيف نشأت وتشعبت الى المصالح المتعددة كالخلافة وما يتبعها والوزارة وولاية الاعمال وبيت المال والجند وسائر الدواوين . ثم تاريخ كل من هذه المصالح وما تفرع منها او الحق بها . وقد عانينا المشقة الكبرى في استخراج حقائق تلك التواريخ من كتب القوم . فربما قرأنا المجلد الضخم فلا نستفيد منه الا فقرة أو فقرتين وقد لا تتم الحقيقة الواحدة الا بمطالعة المجلدين أو الثلاثة

ومن أمثلة ما اتفق لنا من هذا القبيل اننا بعد ما كتبنا تاريخ ولاية الاعمال وتاريخ القضاء في الدولة الاسلامية عمدنا الى البحث عن رواتب العمال ورواتب القضاة في زمن الخلفاء الراشدين . فوجدنا في فتوح البلدان للبلاذري ان عمر بن الخطاب « بعث عمار بن ياسر على صلاة أهل الكوفة وجيوشهم وعبد الله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم وعثمان بن حنيف على مساحة الارض الخ » ولكنه لم

يذكر مقدار عطاء أحد منهم . ثم وجدنا في كتاب سراج الملوك للطرطوشي في باب سيرة السلطان في الانفاق من بيت المال وسيرة العمال قوله « ولم يقدر عمر الارزاق الا في ولاية عمار فأجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه وعبدالله بن مسعود مائة درهم كل شهر الخ » ولم يذكر منصب عمار ولا منصب ابن مسعود . ولكننا جمعنا بين الروايتين فاستنتجنا منهما ان راتب من يتولى الجيوش والصلاة في عمل من الاعمال كانت على عهد عمر بن الخطاب ستمائة درهم وراتب القاضي مئة درهم في الشهر . وعلمنا من قرائن أخرى ان الذي يتولى الصلاة والجيوش في ايام عمر هو العامل ومن قرائن أخرى ان عماراً كان عاملاً لعمر على الكوفة فتحققنا من مجموع ما تقدم ان راتب العامل كان على عهد عمر ستماية درهم وراتب القاضي مئة درهم — وقس على ذلك

وسنبحث في الجزء الثاني عن ثروة المملكة الاسلامية وغنى أهلها وحضارتها وعلاقتها بالدول المعاصرة ووصف أحوال الخلفاء في مجالسهم والعابهم واهتمامهم بالعلم والعلماء والشعر والشعراء والدخول عليهم وجلوسهم للناس وقصورهم وبذخهم وركوبهم وضيافتهم وكرمهم والابنية الاسلامية والمدن الاسلامية الخ . . .

والجزء الثالث يبحث في العلوم والآداب والشعر والصناعة وحالها في الشام والعراق قبل الاسلام وكيف ارتقى اليها المسلمون وتاريخ ذلك الارتقاء ومقداره

والجزء الرابع يبحث في الآداب الاجتماعية في تلك العصور الزاهرة على ما يقتضيه المقام

وسنختتم المقال ببيان نسبة التمدن الافرنجي الحديث الى التمدن الاسلامي ويكون الكلام في ذلك جلياً واضحاً بعد تفصيل عوامل هذا التمدن في الاجزاء السابقة

فترى مما تقدم ان الموضوع شاق وعر فضلاً عن حداثته في عالم التأليف مع قصورنا في هذا الشأن . وفي ذلك تمهيد العذر على ما قد يشوب هذا الكتاب من النقص . ونتقدم الى أهل الفضل ان يوازرونا بملاحظاتهم وآرائهم للانتفاع بها في ما سيصدر من الاجزاء التالية ان شاء الله تعالى

مقدمات تمهيدية

البحث في تمدن الامة يتناول النظر في ما بلغت اليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من اسباب الحضارة ونتائجها • ويدخل في ذلك تاريخ العلم والادب والصناعة ولوازمها كالمدارس والمكاتب والجمعيات وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت اليه من الرخاء • وما هو مقدار تأثير ذلك في هيأتها الاجتماعية وهو يستلزم وصف عادات الامة وآدابها الاجتماعية واسناد ذلك الى اسبابه وبواعثه

غير ان النظر في هذا التمدن على هذه الصورة لا يكون واضحاً وافياً الا اذا تقدمه البحث في حال تلك الامة في بداوتها وكيف تدرجت الى الحضارة وما هي العوامل التي ساعدتها على ذلك • والبحث المشار اليه ضروري خصوصاً في تاريخ التمدن الاسلامي لان فيه عوامل خاصة به لا وجود لها في تمدن الامم الاخرى

وبناءً على ذلك لم نر بدًّا من تصدير هذا الكتاب بمقدمات تمهيدية نبسط فيها حال العرب قبل الاسلام ونسبتهم الى التمدن وما تقدم الدعوة الاسلامية من احوال تلك الامة • وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة وكيف كانت حال الروم والفرس يومئذ وما الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملكتين مع قلة عددهم وضعف معداتهم • وكيف نشأت الدولة الاسلامية وارتقت من حالها الدينية في ايام الراشدين الى حالها السياسية في ايام الامويين فالعباسيين فالفاطميين • فاذا فرغنا من ذلك نعمد الى الكلام في سعة المملكة وتاريخ مصالحها وغير ذلك — فنقول

(١)

العرب والتمدُّن

زعم بعض الكتاب من الافرنج ان العرب لافضل لهم في تمدُّنهم الاسلامي لانهم انما انشأوه على انقاض التمدنين الرُّوماني (او اليوناني) والفارسي فالتمدن الاسلامي عندهم عبارة عن مزيج من ذينك التمدنين مع بعض التعديل. وان العرب من فطرتهم بعيدون عن الحضارة بدليل انهم لم ينشئوا تمدُّناً من عند أنفسهم في عصر من العصور الجاهلية ولا الاسلامية . وعندنا ان العرب من أكثر الامم استعداداً للحضارة وسياسة الملك لا يقلون عن سواهم من الامم التي تمدنت قديماً أو حديثاً وتمهيداً لذلك نقول

يقسم سكان جزيرة العرب الى قسمين كبيرين (١) القحطانية سكان بلاد اليمن وما جاورها وهم ينتسبون الى قحطان أو يقطان بن عابر و ينتهي بارفخشاد الى سام (٢) الاسماعيلية أو العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من أواسط جزيرة العرب وينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل من امرأته هاجر ويسمون أيضاً عدنانية نسبة الى جد من أجدادهم اسمه عدنان و يسمون ايضاً مضرية ومعدية لمثل ذلك السبب

وقد تمدن القحطانية قبل الاسماعيلية لان بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء من بلاد اولئك فنشأت منهم دول قديمة عاصرت الفراعنة وملوك بابل واشور أشهرها دول حمير وسبا وكهلان . ومن مدنهم الشهيرة مأرب وصنعاء وسبأ وغيرها . وقد نشأ من الاسماعيلية أيضاً دول قبل الميلاد و بعده كالانباط في ضواحي فلسطين . فضلاً عمن تمدَّن من القبائل البائدة كعاد وثمود وطسم وجديس وهم أقدم أمم العرب في عهد الحضارة و يرجعون بانسابهم غالباً الى لاوذ بن سام أيضاً ومنهم العماليق المشهورون في التاريخ القديم (راجع الهلال العشرين من السنة الخامسة)

فالتمدن الاسلامي ليس أول عهد العرب بالحضارة فقد كان بنو حمير وكهلان وسبأ واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب لتوسط بلاد اليمن بين الممالك المتمدنة في ذلك الحين . فكانت تجارات الهند تحمل في البحر الهندي الى بلاد اليمن

وحضرموت فيحملها اليمنية الى الحبشة ومصر وفينيقية وفلسطين والى بلاد الادوميين والعمالقة والمديانيين والى بلاد المغرب . وكان العرب الاسماعيليون واسطة عقد التجارة في البر الى أقصى بلاد المعمور

وقد ساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة فضلاً عن توسط بلادهم انهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات اكثر الامم المتمدنة في ذلك الحين . لان اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظاً ومعنى فالعربي والكلداني والاشوري والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة لقرب عهد تلك اللغات من التشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية اليوم من اللغه الفصحى . فكان العربي من حمير او مضر اذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني أو البابلي أو الاشوري الى ترجمان وكذلك اذا يمم فينيقية أو الحبشة فانه يفهم لسان اهليها كما يفهم الشامي لسان أهل مصر اليوم . ويؤيد ذلك ماجاء في التوراة عن ابراهيم الخليل فانه نزح من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد فاجتاز سوريا وفينيقية و بلاد العرب وخالط أهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم الى مترجم . وكذلك بنو اسرائيل في تيههم حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد فانهم قضوا أربعين سنة في أعالي جزيرة العرب ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين أهلها

ثم ان العرب ليس في اصلهم مايمنع استعدادهم للحضارة لأنهم اخوان الاشوريين والكلدانيين والفينيقيين ولهم استعدادهم وأهليتهم ولكنهم لم يقيموا في بلاد مثل بلادهم وانما قضي على العرب الاقامة في جزيرة اكثر بقاعها جرداء لا أنهر فيها ولا جداول وانما كانوا يستقون من مياه المطر . بين ان اخوانهم الاشوريين اقاموا في العراق وهو من أخصب بقاع الارض حتى مصر فاثروا وظهرت مواهبهم واثمرت عقولهم . ولما أتيح للعرب الاقامة في ذلك الوادي الخصيب بعد الاسلام لم يكن تمدنهم فيه يقصر عن تمدن اولئك

على انهم لم يقصروا في ما يستطاع لمن يقيم في مثل بلاد العرب . فتمدن أهل اليمن تمدناً لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمال في حضرموت ومهرة واليمن . ناهيك

بتمدن عاد وثمود وسائر القبائل البائدة ولم يبق لنا من اخبارهم الا ما رواه مؤرخو العرب عن فخامة ابنيهم ما نعده من قبيل الخرافات لخروجه عن المألوف عندنا . مثل حديثهم عن مدينة ارم ذات العماد التي زعموا « ان شداد بن عاد بناها في الاحقاف في بقعة مساحتها عشرة فراسخ في عشرة فجعل جدرانها من الجزع اليماني وغشاه بصفائح الفضة المموه بالذهب وبنى داخل المدينة مئة الف قصر كل قصر على عمد من الزبرجد واليواقيت طول كل عمود مئة ذراع وأجرى في وسطها أنهارًا وعمل فيها جداول الى تلك القصور وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت » الى غير ذلك مما يفوق طور الاحتمال ولكنه يشف عن حقيقة مهما قيل في تحقيرها لا تقلّ عن ان تكون بعض أبنية العاديين مرصعة في بعض جدرانها أو أساطينها بالحجارة الكريمة وهذا غاية ما يمكن ان يصل اليه البذخ والترف ولا يكون ذلك الا في أبان التمدن

أما القحطانية فأشهرهم حمير وسبأ وكهلان كما تقدم وتاريخ هذه الدول أقرب عهدًا من عاد وثمود وقد اكتشف السياح بعض آثارهم واكثر ما اكتشفوه انقاض بعض الابنية في صنعاء وعدن وحضرموت فاستخرجوا منها ألواحًا مكتوبة بالقلم الحميري (المسند) اكثرها دعاء ديني أو نحوه ولم يتمكنوا من النقب عن الدفائن المهمة في داخلية البلاد لمشقة الوصول اليها . ناهيك بما نقله مؤرخو العرب عن ابهة تلك الدول وكانت قد انحلت قبل الاسلام ولكن اخبارها كانت الى ذلك العهد لا تزال مألوفة وفيها ما يدل على تمدن قديم لا يقلّ عن تمدن الاشوريين والمصريين والفينيقيين . فقد أنشأوا المدن وعمروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل واحتفروا المناجم ونظموا الجند وفتحوا البلاد ووسعوا التجارة . وقد ذكرهم هيرودوتس الرحالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد فقال ان في جنوبي بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدارصيني واللاذن وعدّها من أغنى ممالك العالم في زمانه

ومن أعمال العرب في اليمن مما لا يزال التاريخ يلهج بذكره ويعده من عجائب الابنية السد المشهور بسد مأرب بنوهُ نحو القرن الثاني قبل الميلاد كما بنى محمد علي باشا القناطر الخيرية في رأس الذلتا ولكنه بلا قناطر بل هو عبارة عن حائط موصل

بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . وقد ذكروا ان طول هذا السد فرسخ في فرسخ وجعلوا فيه شعباً وأقنية وساقوا اليه سبعين وادياً تصب مياهها فيه . فمثل هذا السد العظيم يحتاج الى مهارة في الهندسة وهمة عالية . وكان بناؤه متيناً فصبر على صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون وكانت الدولة قد ضعفت عن تجديده فلما أحسوا بقرب تهدمه هاجروا من جواره في اواسط القرن الثاني للميلاد وتفرقوا في البلاد ومنهم الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق والاوس في المدينة والازد في منا وخزاعة بجوار مكة وبعد قليل انفجر السد وطافت المياه فهاجر من بقي وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم فانقضت بانقضائه دولة سبأ على ما يظن

وذكر استرابون الرحالة الروماني في القرن الاول قبل الميلاد ان مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة سقوف ابنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة وفيها الآنية الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول . وذلك يهون علينا سماع ما ذكره العرب عن ارم ذات العماد

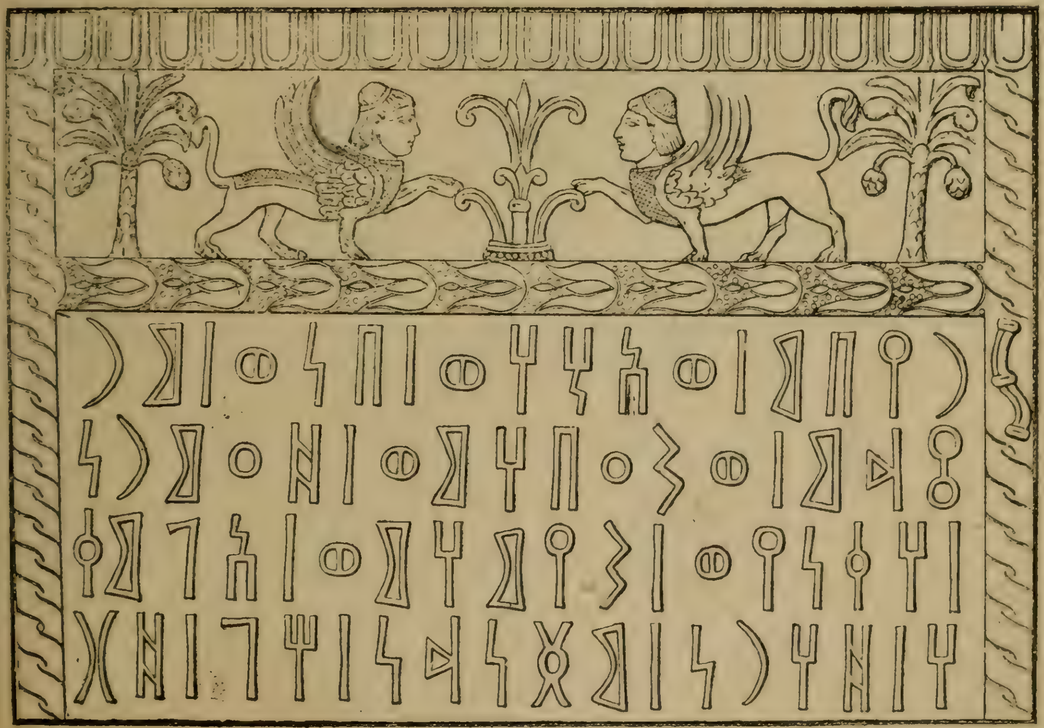

(ش ١) صورة الخط الحميري وفوقهُ صورة اسدين

وفي اعتقادنا انهم لو بحثوا في انقاض مأرب وصنعاء وغيرهما من عواصم ملوك حمير وسبأ لعثروا على أحافير ثمينة تكشف للعالم عن تاريخ جديد كما كشفت آثار وادي النيل عن تاريخ الفراعنة وكما كشفت آثار وادي الفرات عن اخبار ملوك اشور وبابل ولا يتأتى ذلك الا بعناية الدولة العلية في ارسال البعثات العلمية للحفر والتنقيب

ومن الامم العربية التي تمدنت قبل الاسلام الانباط نسبة الى نبايوط بن اسماعيل وهم أصحاب مدينة بطرا (Petra) بين فلسطين وشبه جزيرة سينا . وكانت مملكتهم ممتدة على تلك الجزيرة وما جاورها من جزيرة العرب الى الحجاز وكان الانباط واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب وقد عاصروا الرومان في ابان مجدهم وكثيرًا ما كانوا عونًا لبعض قوادهم في الحروب حتى تأتي لاحدهم الملك الحارث ان يتولى دمشق برهة قصيرة في القرن الاول للميلاد قبل عهد الغساسنة بأجيال . وما زالت دولة الانباط سائدة الى أوائل القرن الثاني فدخلت حوزة الروم وضاعت فيها . ولا تزال انقاضها في بلاد بطرا وعليها الكتابة النبطية يقرأونها كما يقرأون الكتابة الحميرية

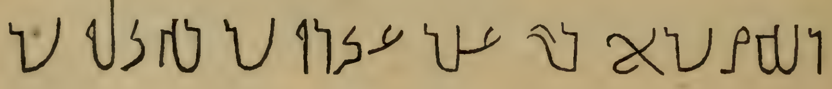

(ش ٢) صورة الخط النبطي

ومن الامم العربية التي تمدنت قديمًا العمالقة وهم مشهورون بشدة البطش ومنهم الملوك الرعاة الذين يظن انهم فتحوا مصر وتولوها عدة قرون . ناهيك بمستعمرات العرب القحطانية بعد سيل العرم ومن مدنهم بصرى في حوران للغساسنة والحيرة في العراق للمناذرة — أيقال بعد ما تقدم ان العرب بعيدون بفطرتهم عن الحضارة

ثم اننا لا ننكر ان التمدن الاسلامي قام على انقاض التمدنين الروماني والفارسي ولكن شأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر الدول العظمى لان اليونان اقتبسوا أكثر عوامل تمدنهم عن المصريين وزادوا فيها ووسعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة حتى صار تمدنًا معروفًا بهم . فأخذه عنهم الرومان وعدلوا فيه تعديلاً طفيفًا جدًا . وكذلك الفرس فان تمدنهم قام على انقاض تمدن الاشوريين

والبابليين والكلدانيين قبلهم واخذوا أيضاً عن اليونان

على ان اولئك الامم لم يستطيعوا الظهور في عالم الحضارة الا بعد اجيال متوالية واما العرب فلم يمض على نشوء دولتهم قرن حتى ظهر تمدنهم و بانت نتائج عقولهم . وفي القرن الثاني والثالث ملأوا العالم بعلومهم وآدابهم

وزد على ذلك ان الشعوب الجرمانية الذين نشأت منهم فيما بعد اعظم دول الارض قضوا اجيالاً متطاولة وهم يسطون على المملكة الرومانية قبيل الاسلام و بعده وفتحوا كثيراً من مدنها ودخل بعضهم رومية نفسها ولم يكن من ثمار فتوحهم غير النهب والقتل . ناهيك بما كان من فتوح الهونيين في القرن الخامس للميلاد فانهم اكتسحوا شمالي المملكة الرومانية وشرقيها وفتحوا هونكاريا ورومانيا وسائر تركيا اوربا وأنشأوا هناك دولة عرفت بدولة الخاقانات حكمت مئتي سنة — كما فعل العرب باكتساح سوريا ومصر والعراق — ولكن الهونيين لم ينشئوا تمدناً ولا استبقوا حضارة مع انهم اقرب الى مركز التمدن اليوناني من العرب . وسطا الشعب السلافي في القرن السادس للميلاد على المملكة الرومانية الشرقية حتى طرق ابواب القسطنطينية ثم عاد ولم يتمدن

وهناك شعوب أخرى تترية ومغولية مثل جيوش تيمورلنك وغيره اكتسحوا مملكة العرب وهي في عصر انحلالها فأخضعوها وأذلوا ملوكها ولكنهم لم ينشئوا تمدناً ولا ابقوا على التمدن الذي كان قبلهم — ألا يدل ذلك على ان في العرب استعداداً خاصاً للحضارة

---

(٢)

عصر الجاهلية في الحجاز

تمدن العرب في جنوبي جزيرة العرب وفي شماليها وظل أهل الحجاز في اواسطها على بداوتهم لجدب أرضهم وجفاف تربتها مع بعدها عن الاحتكاك بالدول العظمى لتوسطها في الصحراء ووعورة المسالك اليها حتى امتنعت على الفاتحين العظام مثل رعمسيس الثاني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد والاسكندر الكبير في القرن الرابع

قبله وايليوس غالوس على عهد أوغسطس قيصر في القرن الاول للميلاد · وامتنعت أيضاً على ملوك الفرس العظام في أبان دولتهم — فآل امتناعهم هذا الى اطمئنانهم وسكونهم والانسان لا ينزع الى الاصلاح الا مضطرًا بخطر او نحوه ولكنه مفطور على الاثرة والمنافسة فقامت المنازعات مابين العرب أنفسهم واصبحت مصادر الارتزاق فيها الغزو والنهب فشغلهم ذلك عن الالتفات الى المصادر الاخرى · على انهم كانوا على جاهليتهم اهل أنفة وذمام واقدام وكرم مما يدل على استعدادهم لمستقبل عظيم

قضى اهل الحجاز في جاهليتهم قروناً متطاولة لا يعلم مقدارها الا الله وهم على ما نشأوا فيه من حال البداوة على الفطرة الا ما اقتبسوه ممن هاجر اليهم من جالية اليهود من عهد موسى وما بعده وخصوصاً في القرون الاخيرة قبل الميلاد والاولى بعده فرارًا من اضطهاد حكامهم الرومانيين وبالاخص بعد خراب بيت المقدس · وربما هاجر اليهم أيضاً الانباط وهم اهل تمدن فجعلوا مكة والمدينة والطائف دار هجرتهم بعد استبداد الرومان فيهم · واما اليهود فيغلب انهم كانوا يقيمون في المدينة على الاكثر لما فيها من أهل ملتهم الاوس والخزرج

وكان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب والدين فاقتبس العرب منهم أمورًا كثيرة كانوا يجهلونها كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد ونحوها وعلموهم بعض أقاصيص التوراة وفصولاً من التلمود ونشروا بينهم كثيرًا من تقاليدهم وعوائدهم · فضلاً عمن هاجر الى الحجاز من أهل اليمن على أثر سيل العرم كما تقدم · فأصبح أهل الحجاز بعد ذلك الاختلاط فئتين اهل البادية الباقين على الفطرة وهم العرب الرحل وأهل المدن المقيمين في مكة والطائف والمدينة وهم الحضر

وكانت مكة أشهر مدن الحجاز لاتخاذها حجاً يؤمه الناس من أقاصي البلاد لزيارة الكعبة · وقد أصبحت بتوالي الاجيال مركزًا للتجارة لما يتوافد اليها من الحجاج في المواسم كل عام فطمحت اليها انظار أهل السلطة من القبائل القوية · وكانت في أوائل أزمانها في حوزة الحجاز بين بني اسماعيل وهم سدنة الكعبة أي حجابها

حتى اذا نزح اليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم نحو القرن الثاني للميلاد تسلطوا عليها وغلبوا على الحجازيين بما تعودوه من السيادة في عهد سلطانهم باليمن . والاسماعيليون (او العدنانيون) يومئذ ضعاف لا يقوون عليهم . ولكن ناموس التاريخ قضى عليهم كما قضى على سواهم فدارت الدائرة بعد عدة اجيال على بني خزاعة وضعف أمرهم وقوي أمر العدنانية فتفرع منهم كنانة وتشعب من كنانة قبيلة قريش

ففي نحو القرن الخامس للميلاد كان سيد قريش ورئيسها قصي بن كلاب بن مرة وكان حكيماً عاقلاً ذا سياسة ودهاء فتزوج ابنة ولي الكعبة (وهو من خزاعة) طمعاً بالسدانة فولد له أولاد اعتزَّ بهم واشتغل بالتجارة حتى صار صاحب مال . فلما اقترب أجل حميه اوصى بسدانة الكعبة لابنته زوجة قصي فاعتذرت بأنها لا تستطيع فتح الباب واغلاقه — وتلك كانت وظيفة سادن البيت عندهم — فأوصى بالولاية لابن له اسمه المحترش وكان ضعيفاً فابتاع قصي ذلك المنصب منه بزق من الخمر

فشق ذلك على خزاعة وحدث بسببه حروب بين قريش وخزاعة ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم فحكموا بينهم رجلاً من قريش فقضى لقصي . وما زالت سدانة الكعبة في قريش حتى جاء الاسلام

وكانت سدانة الكعبة تستلزم السيادة على مكة . فجمع قصي أهله من قريش في مكة وحولها فملكوه عليهم فقسم مكة ارباعاً بينهم فبنوا المساكن فعمرت مكة بهم واصبح هو سيدهم في كل شيء وخلفه بعده ابنه عبد مناف . وكان في جملة اولاد عبد مناف ولدان هاشم وعبد شمس فلما دنت وفاة عبد مناف أوصى بالسدانة لهاشم وكان لعبد شمس ابن اسمه أمية (جد بني أمية) فحسد عمه على الرئاسة فآل ذلك الى المنافرة فكره هاشم ان ينافر ابن أخيه فلم تتركه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشرين سنة . فرضي أمية وجعلا الكاهن الخزاعي حكماً بينهما وكان يقيم بعسفاء فاستفتياه فقضى لهاشم بالغلبة وأخذ هاشم الابل فنحرها واطعمها وغاب أمية عن مكة بالشام عشرين سنة حسب الشرط . وكانت تلك اول عداوة وقعت بين هاشم وأمية وتوارثتها اعقابهما الى ايام الاسلام . وتولى الكعبة بعد هاشم

ابنه عبد المطلب جد النبي صاحب الشريعة الاسلامية

وكانت منزلة قريش من سائر قبائل العرب مثل منزلة اللاويين من بني اسرائيل ولهم مثل امتيازاتهم وهي تشبه امتيازات الكهنة في النصرانية . فكانوا لا يؤدون اتاوة ولا يتكلفون دفاعاً . يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم احد . وكانوا يتزوجون من أية قبيلة شاؤا ولا شرط عليهم في ذلك . وكانوا لا يزوجون احداً الا اشترطوا عليه ان يكون متحمساً في دينهم والتحمس التشدد في الدين . وهم الذين فرضوا فروض الحج والزموا الناس باتباعها وكانت لهم امتيازات خاصة في كل شيء

(٣)

حكومة العرب في الجاهلية

ونريد بالعرب بنوع خاص عرب الحجاز وبالاخص قبيلة قريش لان فيها ظهر الاسلام وبها قام التمدن الاسلامي الذي نحن في صدده

والحكومة في الجاهلية متشابهة عند سائر أهل البادية فان المصالح التي تعد عند أهل العالم المتمدن بالعشرات تجتمع عندهم في شخص الامير . فالامير هو الملك والقاضي وصاحب بيت المال وقائد الجند وكل شيء وكانت الامارة تفضي فيهم الى أقواهم عقلاً واكثرهم دهاء وسياسة بلا تواطؤ أو تعمد واذا تساوى عدة منهم بالقوة والدهاء اختاروا اكبرهم سناً . وأوسعهم جاهاً واذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً اقترعوا بين أهل الرئاسة فمن خرجت عليه القرعه رأسوهُ كبيراً كان أو صغيراً

ذلك كان شأن العرب الرحل أهل الغزو والسطو وأما الحضر وهم أهل مكة فقد كانت السيادة فيهم لسادن الكعبة ولما أفضت السدانة الى قريش صارت السيادة لهم في كل شيء

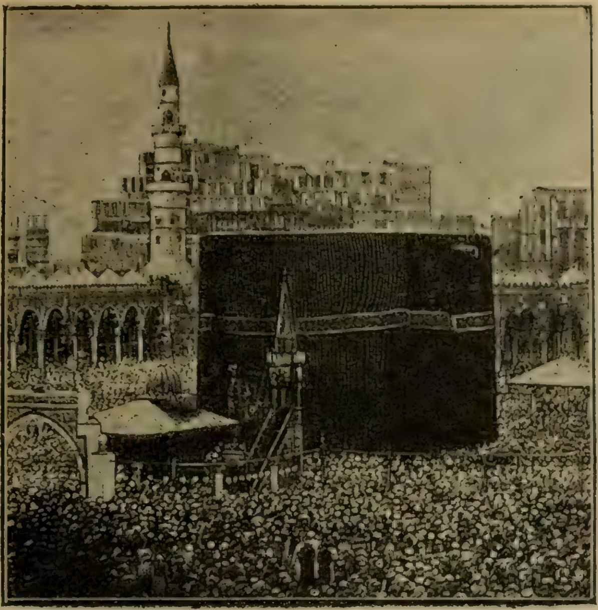

(ش ٣) صورة الكعبة اليوم

الكعبة والتجارة وقريش

كانت قريش كما قدمنا حضراً أهل تجارة وتجارتهم قائمة بالحجاج الذين يردون مكة في المواسم فكان من مقتضيات مصلحتهم تسهيل طرق القدوم وترغيب الناس في الحج . وكان في جملة ما بعث القبائل على زيارة الكعبة انه كان لكل قبيلة منهم صنم خاص بها تأتي في الموسم لزيارته والذبح له حتى زاد عدد الاصنام فيها على ثلثمائة صنم وفيها الكبير والصغير ومنها ماهو على هيئة الآدميين او هيئة بعض الحيوانات أو النباتات

وكان على مقربة من الطائف سوق يجتمع اليها الناس في الاشهر الحرام فينصبون خيامهم بين نخيله ويبيعون ويشترون ويتبادلون وهي سوق عكاظ المشهورة وكان للعرب أسواق أخرى في أماكن أخرى . ولكن هذه انما كان يجتمع فيها أهل البلد المجاور لها وأما عكاظ فقد كانت تتوافد اليها العرب من كل جهة . وزادت قريش لي بواعث الاجتماع اليها انهم جعلوها مرسحاً للادب والشعر تتسابق فيه القبائل الى اظهار نوابغهم من الشعراء والخطباء فيتناشدون ويتحاجون ويتفاخرون ومن كان له

أسير سعى في فدائه ومن كانت له حكومة ارتفع بما يقوم له بامر الحكومة . وكان لعكاظ في ايام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في ما قد يقع من الخلاف او نحوه . وكان الغالب في ذلك الحاكم ان يكون من بني تميم . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ وقفوا في عرفة ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون الى مواطنهم

وكان رجال قريش يرحلون للتجارة رحلتين في العام رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى بصرى في حوران بضواحي الشام . فكانت مكة واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام . وكانت طرق التجارة خطرة الا عليهم لاعتقاد العرب حرمتهم لانهم ولاة الكعبة . وكانوا كثيرًا ما يسافرون الى بلاد فارس أو الى الحبشة فيأتون من الشام بالانسجة والاطعمة ويحملون من فارس السكر والشمع وغيرهما

فترى مما تقدم ان الكعبة كانت مصدر ارتزاق أهل مكة ولولاها لم يستطيعوا المقام في ذلك الوادي وهو غير ذي زرع . ونظرًا لكثرة اسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدن في اطراف العراق والشام صاروا أوسع العرب علماً واكثرهم خبرة ودراية . ونظرًا لعلاقة الكعبة باسباب معائشهم بذلوا العناية في ادارة شؤونها وسهلوا على الناس القدوم اليها . فأنشأوا فيها أماكن للسقاية وأخرى للطعام وجعلوا ما يجاورها حرمًا لا يجوز فيه القتال وتولى بعضهم السقاية وبعضهم الطعام وبعضهم غير ذلك . وما زالت تلك المصالح تتعدد حتى أصبحت قبيل الاسلام بضع عشرة مصلحة هي عبارة عن مصالح الدولة في ذلك العهد اقتسمتها قريش في بطونها وأشهرها عشرة أبطن وهي هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم فكان لكل من هذه البطون مصلحة أو غير مصلحة واليك هي :

(١) السدانة . وهي الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها يفتح بابها للناس ويقفله ولها المقام الاول عندهم . وهي مما اقتبسه العرب من اليهود فقد كان عند هؤلاء كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب . وقد جعل صاحب العقد الفريد السدانة والحجابة مصلحتين

(٢) السقاية . وصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلة الماء في مكة فينشئ حياضًا

من الجلد توضع في فناء الكعبة ينقل اليها الماء من المياه العذبة من الآبار على الابل في المزاود والقرب . وما زال ذلك شأنهم حتى حفرت زمزم فصاروا يستقون منها وكانت السقاية في بني هاشم

(٣) الرفادة . وهي خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاماً يأكله الفقراء . وأول من أشار بالرفادة قصي المتقدم ذكره . وكانت الرفادة في بني نوفل ثم في بني هاشم

(٤) العقاب . وهو اسم راية قريش فكانوا اذا أرادوا الحرب أخرجوها فاذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها وهو من بني أمية

(٥) الندوة . وهي دار بناها قصي بجانب الكعبة للشورى فيجتمع بها كبار قريش للمشاورة ولا يدخلها الا من بلغ الاربعين من عمره . وكان لا يتزوج رجل ولا امرأة الا في تلك الدار ولا يعقد لواء لحرب الا فيها ولا تدرع جارية من قريش الا فيها فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده . وكانوا يفعلون ذلك في بناتهم اذا بلغن الحلم وكانت دار الندوة في أيدي بني عبد الدار

(٦) القيادة . وهي امارة الركب وصاحبها يسير امام الركب في أسفارهم للقتال او التجارة وكانت القيادة في بني أمية وصاحبها منهم في أول الاسلام ابو سفيان والد معاوية

(٧) المشورة . وصاحبها يستشار في الامور الهامة وكانت في بني أسد فلم تكن قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليهم

(٨) الاشناق . وهي الديات والمغرم وصاحبها اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه فيها وكانت الاشناق لتيم

(٩) القبة . هي قبة كانوا اذا خرجوا الى حرب ضربوها وجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش أشبه بما يسمى عندنا بمهمات الحربية

(١٠) الاعنة . وهي أعنة الخيل وصاحب هذا المنصب يتولى خيل قريش ويدبر شؤونها في اثناء الحرب

(١١) السفارة . هي انهم كانوا اذا وقعت بينهم و بين غيرهم من القبائل حرب وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيرًا وان نافرهم حيٌّ لمفاخرة جعلوا السفير منافرًا ورضوا به . وكان آخر سفراء قريش في الجاهلية عمر بن الخطاب قبل ان يسلم

(١٢) الايسار . وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة ونحوها اذا هموا بأمر عام في سفر أو قتال فكانوا يستقسمون بالازلام بما يشبه سحب القرعة عندنا وكان يتولى ذلك رجل من بني جمح

(١٣) الحكومة . وهي عندهم الفصل بين الناس اذا اختلفوا وتشبه القضاء في الاسلام او التحكيم

(١٤) الاموال المحجرة . وهي أموال كانوا يسمونها لآلهتهم وفيها النقد والحلي وربما أشبهت بيت المال وكانت ولايتها في بني سهم

(١٥) العمارة . ويراد بها ان لا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته

فترى مما تقدم ان بعض هذه المصالح لا أهمية لها على الاطلاق ولكن يظهر انهم أكثروها ليرضوا كل بطون قريش خوفًا من التحاسد واجلالاً لقدر الكعبة والمبالغة في تعظيمها لان تعظيمها يجر اليهم المنفعة بكثرة الوفود

وترى أيضًا انهم جمعوا بها بين السياسة والدين والادارة والحرب ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية او هو نوع من الحكومة لانرى له شبيهًا بين الامم المتمدنة وربما أشبهت الحكومة الشوروية من بعض الوجوه الا ان للشورى رئيسًا وهو الملك أو السلطان وليس في هذه شيء من ذلك الا ماقد يكون لصاحب دار الندوة أو السدانة من الرئاسة

(٥)

النهضة العربية قبل الاسلام

اذا تدبرت تاريخ العرب قبل الاسلام على غموضه وابهامه تبين لك أمور تدعو الى الاعتبار وأعمال الفكرة . منها ان العرب على اختلاف القبائل والبطون قلما نبغ فيهم شاعر أو خطيب أو حكيم او كاهن الا بعد دخولهم في القرن الاول قبل الهجرة . ولا يعترض بضياع أخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ فقد حفظوا أخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة فلو نبغ منهم في القرون الاخيرة قبل الاسلام شاعر أو خطيب لما ضاع ذكره ضياعاً تاماً

فنبوغ الشعراء والخطباء والحكماء في القرن الاخير قبل الاسلام دفعة واحدة هو ماعبرنا عنه بالنهضة العربية او الادبية . على انها لم تكن تقتصر على الادب والشعر ولكنها شملت الدين فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الافكار واختلطت الاعتقادات فلم يكن أهل الجاهلية يعرفون لمن يصلون ولا الى من يتوسلون فقد يذبح أحدهم للصنم ويدعو الله . وفيهم عبدة الحجارة وعبدة النار وعبدة الاصنام وفيهم الموحدون والمشركون وغير ذلك من أنواع العبادات المتضاربة . وظهر في أثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الاصنام واصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم . فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهمَّ بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الاذهان الى أمر الدين والافتكار في عواقب الاعمال

﴿ ماهو سبب تلك النهضة ﴾ بيناً في ما تقدم استعداد العرب العدنانية للنهوض واهليتهم للتمدن لما فطروا عليه من صفاء الذهن وسرعة الخاطر ولكنهم لم يكونوا يستخدمون تلك القوى لانشغالهم بالغزو وقعودهم عن طلب العلى يبعدهم عن العالم المتمدن . والانسان قلما تظهر قواهُ الا بالفراك او الضغط شأن القوي الطبيعية . فالفرد لا يسعى في طلب العلى غالباً الا اذا عضه الفقر فأحرجه طلب الرزق او نافسة منافس في أمر يبعث الى الاستئثار به

اما الامم فانما يدعوها الى طلب العلى الحروب الخارجية او الثورات الداخلية والاولى أ كثر تأثيرًا لما يرافقها غالبًا من الاختلاط بالامم الاخرى وفي ذلك من الاحتكاك مايدعو الى الاقتباس والمنافسة وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك

ومن هذا القبيل ما أصاب العرب في القرنين الاخيرين قبل الاسلام من سطو الحبشة على اليمن ثم على الحجاز في أواسط القرن الاول قبل الهجرة لفتح مكة والاستيلاء على الكعبة . وكانت سدانتها يومئذ الى عبد المطلب جد النبي فجاء الاحباش بافيالهم ورجالهم وعدتهم وأهل مكة لم يتعودوا شيئًا من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة في أنفس القبائل وغيرهم . فلما رأوا الاحباش قادمين شعروا بما يتهددهم من الخطر واحسوا بافتقارهم الى الاتحاد لدفع الاجانب عنهم فدفعوا الاحباش وقد تنبهت أذهانهم واخذت مواهبهم في الظهور . ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم انهم جعلوا يؤرخون منه وهو مايسمونه عام الفيل . ولم يقتصر تأثير ذلك الاحتكاك على تلك النهضة الادبية او الدينية ولكنها انتجت رجالاً نبغوا في السياسة والقيادة والادارة وكانوا من أهم العوامل تأثيرًا في سرعة نشر الاسلام كما أنتجت الثورة الفرنساوية بونابرت وقواده وسيأتي بيان ذلك

على ان عام الفيل لم يكن اول نهضتهم ولكنها بدأت بغزو الحبشة اليمن وتمت بقدومهم الى الحجاز . ومهما يكن من السبب فان بلاد العرب كانت قبل الاسلام في نهضة أدبية دينية تمهيدًا لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها ومثل هذه النهضة تتقدم الدعوات الدينية على الغالب استعدادًا لقبولها

(٦)

الدعوة الاسلامية

تلك كانت حالة العرب في الحجاز لما ظهر النبي صاحب الشريعة الاسلامية ودعا الناس الى التوحيد. فاظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره اربعون سنة. ولا يسع المقام تفصيل سيرته وانما نذكر منها مايتعلق بالموضوع لبيان الاسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها

ولد صاحب الدعوة الاسلامية وقد مات أبوه وبعد ست سنوات ماتت أمه فكفلهُ جده عبد المطلب وكانت لهُ السقاية والرفادة من مصالح الكعبة وله مقام رفيع في قريش ولكنه توفي بعد سنتين فكفله عمه أبو طالب وكان وجيهاً محترماً فشب محمد في بيته كاحد اولاده. وكان أبو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش فكان اذا خرج في تجارة اصطحبه في اسفاره فاشتهر منذ حداثته بالحصافة والذكاء وصدق السريرة حتى لقبوه بالامين. واشتهر في مكة بهذا اللقب فعرفت به خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت اليه الاتجار بمالها فاتجر وربح فازدادت اعجاباً به فعرضت عليه الزواج بها فتزوجها وتمتع بمالها فوسعت حاله واصبح من اهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه

ولما بلغ الاربعين من عمره مال الى الخلوة والاعتزال عن الناس فأوى الى الجبال والشعب كما يفعل النساك. وفي رمضان من تلك السنة كان في جبل حراء على ثلاثة أميال من مكة وخديجة معه. وفي ذلك الشهر رأى الرؤيا الاولى فاسرع الى امرأته وأخبرها ان جبرائيل ظهر له وأمره ان يقول « اقرأ باسم ربك الذي خلق — الآية » فقرأها وانه خرج الى وسط الجبل فسمع صوتاً من السماء يناديه « يا محمد أنت رسول الله وانا جبريل » فذعر وأسرع الى خديجة فاخبرها. وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل قد قرأ الكتب ونظر فيها وخالط أهل التوراة والانجيل وسمع أقوالهم وكان مشهوراً في مكة بسعة العلم في الدين والنبوات — فذهبت اليه وأخبرته بما كان فقال « والذي نفس ورقة بيده لان صدقتني ياخديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه نبي هذه الامة »

فرجعت خديجة اليه وأخبرته بقول ورقة فاطمأن باله ورجع الى مكة وهو لا يجسر على اظهار دعوته لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش لما فيها من تعييب آلهتهم وتحقير اصنامهم . وفي ذهاب تلك الاصنام ذهاب تجارتهم وأموالهم وكل آمالهم . ولم يكن من الجهة الاخرى يتوقع انهم اذا انبأهم برسالته يصدقونه فعمد على بث دعوته سرًّا بين أقرب الناس اليه فقضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفر قليلون في جملتهم ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزال غلاماً وأبو بكر الصديق وكان من وجهاء قريش وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم . فهمَّ بدعوة الناس جهاراً وبدأ بعشيرته الاقربين فكلف ابن عمه علياً ان يصنع لهم طعاماً يدعو أهله اليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب وأولادهم وهم نحو أربعين رجلاً . فدعاهم الى بيت أبيه أبي طالب . فلما فرغوا من الطعام همَّ محمد بالكلام وكان أهله قد سمعوا بدعوته سرًّا فاستخفوا بها فلما همَّ بالكلام علموا انه سيدعوهم الى ترك الاصنام وعبادة الله فابتدره عمه أبو لهب وكان أشدهم وطأة عليه فاسكته فسكت وتفرقوا ولم يقل شيئاً لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقد عول على التصريح بما في ضميره فلما فرغوا من الطعام قال — « ما أعلم ان انساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى ان أدعوكم اليه فأيكم يوازرني على هذا الامر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » فظلوا ساكتين وجلُّ سكوتهم استخفافاً فتقدم علي ابن عمه وقال « أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليهم » فأخذ النبي برقبته وقال « ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا » فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب « قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيعه » ثم انصرفوا

على ان استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ولا أبعده عن قومه . وبدلاً من وقوفه عند ذلك الحد تهيباً وحذراً جاهر بسبّ الاصنام ونسب أهله وآباءهم الى الكفر والضلال فلما علموا بمجاهرته بسب الاصنام أجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدوا أذيته ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك لانه في كفالة عمه أبي طالب . فجاؤا عمه وفيهم

ابو سفيان (والد معاوية الشهير) فقالوا له « يا أبا طالب ان ابن أخيك عاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فانهه عنا أو خلّ بيننا وبينه » فردهم أبو طالب ردًّا حسناً ووعدهم خيرًا

ثم رأوه لا يزال عاملاً على سب آلهتهم فعادوا الى أبي طالب وقد اشتد بهم الغيظ وقالوا له « ان لم تنه ابن أخيك والا نازلناك واياه حتى يهلك أحد الفريقين » فعظم ذلك على أبي طالب وادرك عاقبة الامر فلما عادوا من عنده قال لابن أخيه « يا ابن أخي ان قومك قالوا كذا وكذا . » فظن عمه يخذله فشق عليه ذلك وقال « ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الامر » ثم بكى وهمّ بالانصراف فناداه عمه وقال له « قل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبدًا »

وكانت دعوته في أثناء ذلك تذيع على مهل فأسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم في التاريخ الاسلامي منهم أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير ابن العوام وعبد الرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب وكان لاسلام هذين الاخيرين وقع حسن عند النبي لانهما كانا من أهل الوجاهة والقوة

أما سائر أعمامه واهله فلما يئسوا من وساطة عمه أبي طالب رأوا ان يحتالوا في استرضائه بالحسنى فبعثوا اليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة . فجاء فاستقبلوه بالترحاب وقالوا له « يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك . فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً . وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك »

فقال لهم « ما بي ما تقولون وما جئت بما جئتكم به اطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني ان اكون

لكم بشيرًا ونذيرًا . فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليَّ اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني و بينكم »

فلما لم يروا سبيلاً اليه جعلوا يعذبون الذين اسلموا وصدقوا دعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب . حتى اذا اشتد اذى قريش لهم وضاقوا ذرعاً عن تحمل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والاهانة اشار النبي على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم ان يخرجوا من مكة الى أرض الحبشة . فهاجروا اليها تباعاً فبلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ما عدا النساء والاولاد وهي الهجرة الاولى . ولا يخفى ما تقتضيه الاسفار من مكة الى الحبشة من المشقة لما في ذلك من ركوب البحر وخصوصاً في تلك الازمان مع ما حملوه معهم من النساء والاولاد . فيدل ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالاسلام

ويليق بنا الوقوف هنية في هذا المقام لابداء ما ارتسم في مخيلتنا من امر هذه الدعوة على اثر مطالعتنا الطويلة في تاريخها فنقول :

زعم بعض الكتاب من غير المسلمين ان صاحب الشريعة الاسلامية انما قام بهذه الدعوة طمعاً بالسيادة ورغبة في ملاذ الدنيا

واما نحن فلا نرى مسوغاً لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة انه انما قام بها عن صدق واخلاص . فلم يدع الناس الى الاسلام الاّ وهو يعتقد اعتقاداً متيناً بصحة رسالته وان الله ارسله لبث تلك الدعوة . ولولا هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب . وقد رأيت انه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام اهل مكة كافة وأهله يحبونه ويكرمونه وهو في عيش هنيء لما اكتسبه من اسباب اليسار بزواجه بخديجة واتجاره باموالها . فاصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه اهل مكة العداء وساموه انواع العذاب واهانوه حتى نقموا على بني هاشم لانهم اهله فتعاقدوا عليهم ان لا يناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة اودعوها في جوف الكعبة . فاضطر بنو هاشم ان ينفردوا الى الجبال فاقاموا في الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة الا خفية — الا من جاهر منهم بعداوته كابي لهب ونحوه

ولا يعترض على ما تقدم بانه لم يثبت الاّ لاحتمائه بعمه ابي طالب . لاننا رأيناه بعد وفاة عمه اكثر ثباتاً منه بحياته . مع ان الناس اصبحوا اكثر اضطهاداً له مما كانوا قبل وفاته وخصوصاً بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين . فتتابعت بموتهما المصائب عليه واستبدت به قريش . وخصوصاً عمهُ ابو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن ابي معيط لانهم كانوا جيرانه بمنزله فكانوا يلقون الاقذار في طعامه ويرمونه بها وقت صلاته، حتى اذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم فرَّ الى الطائف لعله يلقى فيها من ينصره ويؤمن بدعوته . فلم يلق الاّ الاعراض والاهانة . فعاد وقد يئس منهم ولكنه لم يرجع عن حرف من دعوته . ولم يكتف اهل الطائف باعراضهم عنه فأغروا بعض سفائهم وعبيدهم ان يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى الحائط وردوا السفهاء عنه فرجعوا . فاحسَّ عندئذ بعظم الامر عليه فشكا أمره الى الله وعاد الى مكة ولم يغير ذلك شيئاً من عزيمته . فلقيه قومه هناك وهم اشد وطأة عليه مما كانوا من قبل — فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبهم وبعيدهم مع علمه انه اذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحاباً واكراماً كما صرحوا له جهاراً . ولكنه لم يكترث بشيءٍ من ذلك — فلولا اعتقادة المتين بصدق الدعوة التي قام بها وانه منتدبٌ لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على كل ذلك

ولما يئس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل في ايام الحج لعله يلقى فيهم من يصغي اليه وأهله يعترضونه ويقفون في سبيله وخصوصاً عمه ابو لهب فانه كان اذا رآه في جماعة يخاطبهم في شأن الاسلام اعترضه وقال للناس « انما يدعوكم ان تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » ولكن ذلك لم يقعدهُ عن دعوة الناس وما زال يعرض نفسه عليهم في المواسم حتى بايعه نفر من اهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الاسلام في تلك المدينة في برهة قصيرة . ولعل السبب في سرعة انتشار الاسلام هناك كثرة من في المدينة من اليهود وهم اهل كتاب يعتقدون الوحي ويدركون معنى النبوة . وليس فيهم من يخاف على تجارته اذا بطلت عبادة الاصنام بل هم يفضلون ابطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم

وخصوصاً اذا هاجر اليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزاً للدين الجديد يحج اليها الناس بدلاً من حجهم الى مكة . واليهود كما لا يخفى اهل نظر في التجارة واصحاب فراسة في ابواب الكسب . ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد لتباعدهما في الانساب لان أهل مكة من العدنانية وأهل المدينة من القحطانية عرب اليمن — فنشطه اهل المدينة ودعوه اليهم على ان ينصروه . فهاجر الى المدينة سنة ٦٢٢ للميلاد . وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم « المهاجرون » تمييزاً لهم عن الفئة الاخرى من الصحابة وهم « الانصار » اهل المدينة . سموا بذلك لانهم نصروا النبي في مدينتهم . وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم الى الآن

ولقي المسلمون في المدينة ترحاباً عظيماً فاشتد أزرهم وتحولوا الى الانتقام من اهل مكة فجعلوا يناوئونهم في اثناء مرورهم بتجاراتهم بين الشام ومكة وفي اماكن اخرى وهي الغزوات المشهورة . اعظمها غزوة بدر الكبرى التي انتصروا فيها وكانت فاتحة نصراتهم في الغزوات الاخرى حتى اخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة واسلم القرشيون كافة . فوجه النبي التفاته الى العالم الخارجي وخاطب الملوك يدعوهم الى الاسلام كما هو مدون في التواريخ وسنعود الى ذلك

(٧)

الروم والفرس عند ظهور الاسلام

تأسست رومية سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وتأسست معها الدولة الرومانية وظلت رومية كرسي تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن وقد فتحت العالم المعمور كله . ففي سنة ٣٢١ للميلاد نقل كرسي الملك الى بيزانتيوم وانتقل اليها قسطنطين الكبير وسماها القسطنطينية وهو اسمها الى اليوم . وبعد وفاته سنة ٣٣٧ اقتسم المملكة اولاده الثلاثة ثم افضت الى واحد منهم توفي سنة ٣٦٠ فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة ٣٦٤ ثم توفي هذا بعد بضعة اشهر فانتخب الرومان امبراطوراً اسمه فالنتيان . وبعد قليل نصب فالنتيان أخاه فالنس امبراطوراً على رومية . وتم انفصال المملكة الرومانية على

اثر ذلك الى مملكتين احداهما شرقية عاصمتها القسطنطينية والاخرى غربية عاصمتها رومية . وكانت الأُولى اسعدهما حظا واطول عمرًا فاصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين

وكانت حدود المملكة الرومانية الشرقية في القرن الخامس الميلاد تنتهي في الغرب بالبحر الادرياتيكي وفي الشرق بضفاف دجلة وتمتد حدودها الشمالية الى اعالي بلاد التتر . وتنتهي في الجنوب الى بلاد الحبشة . وأرقى عصور هذه المملكة بعد قسطنطين الكبير عصر يوستينيانوس (من سنة ٥٢٧ — ٥٦٥) تولاها ٣٩ سنة قضى الخمس الأُولى منها بمحاربة الفرس الساسانية وانتهت الحرب بمعاهدة سموها « معاهدة الصلح الدائم » لكنها لم تدم

ومن حسن حظ هذا الامبراطور انه مني بقائد من أشهر قواد العالم (بليزاريوس) فتح له ايطاليا ورفع اعلامه فوق اسوار رومية وفتح شمالي افريقيا وغيرها . وكان عونًا له في سائر فتوحاته وساعده الاقوى في توسيع نطاق مملكته

والعداوة بين الفرس والروم (واليونان) قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد . وسببها التنازع على الاستبداد في العالم لانهما كانتا أعظم دول الارض في تلك العصور . فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطة دون الاخرى . واتصلت تلك العداوة الى زمن الاسكندر الكبير ثم الرومان الى ايام الاسلام

وأفضى عرش الفرس في أيام يوستينيان المذكور الى كسرى أنوشروان المشهور بالعادل . فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله . ففتح سوريا واحرق انطاكية ونهب اسيا الصغرى . فبعث يوستينيان اليه بليزاريوس فحاربه ورده على اعقابه . ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (من سنة ٥٤١ — ٥٦١) وقد مل الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضي فيه على يوستينيان بجزية سنوية مقدارها ٣٠,٠٠٠ دينار وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب

وللامبراطور يوستينيان ذكر مجيد في تاريخ المملكة الشرقية لما اكتسبت في عصره من النفوذ وما أتاه من الاعمال التي احيت ذكره مدى الدهور بما سنهُ من

القوانين والشرائع التي كانت أساساً لما وضع بعدها الى اليوم . وقد أدخل صناعة الحرير الى أروبا وبنى الكنائس والمعاقل والقصور وأشهر مايذكر به كنيسة اياصوفيا التي جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعاً لايزال معروفاً بهذا الاسم الى اليوم

ولكن الدول المطلقة انما يكون حظها من السعادة او الشقاء كما يكون ملكها . فان كان عظيماً عظمت او كان حقيراً احقرت . فلما توفي يوستينيان خلفه اناس لا يليقون بالملك فلم تعد تعرف السعادة بعده — خلفه ابن أخيه يوستين الثاني ثم طيباريوس ثم الامبراطور موريس (موريقوس) وقد ضعف أمر الدولة فأراد هذا الامبراطور ان يقويها بفتح الشرق فناصب الفرس وحاربهم سبع سنين حتى توفي كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩ وخلفه ابنه هرمز الرابع وكان عاتياً فثار عليه رعاياه فاشتغل باخماد قواتهم والروم يوغلون في بلاده من العراق . والتركمان يسطون عليها من الشمال والشرق حتى كادت بلاده تذهب فريسة الفاتحين لو لم يقيض لها الله قائداً شهيراً يعرف ببهرام محارب العدوين وانقذ البلاد منهما . فمال الفرس اليه فأنزلوا هرمز وسملوا عينيه وملكوا عليهم ابنه كسرى برويز فلم يقبل بهرام به وأذله ففرّ برويز الى القسطنطينية واستنجد الامبراطور موريس فأنجده بجند تغلب به على بهرام وأعاد الملك لنفسه فعرف برويز ذلك الفضل لموريس وما زال على ولاء الروم الى وفاة موريس

اما هذا فقد مات مقتولا سنة ٦٠٢ م وخلفه الامبراطور فوقاس وكان فوقاس جاهلاً فأبغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه . وكان من جملة ولاة الروم يومئذ والٍ على افريقية اسمه هراكليوس (هرقل) فاستنجده أهل القسطنطينية . فأنفذ اليهم ابنه هرقل الاصغر في عمارة بحرية . فقتل فوقاس وتربع هو في دست الامبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفي أيامه ظهر الاسلام

فرأى برويز باباً لمناوأة الروم فادعى انه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده على سوريا سنة ٦١٤ واليهود انصاره فيها . ففتحها وفتح مصر وافريقية واستولى على انطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن اخرى من سوريا وفلسطين . ثم اطلق لجنده نهب اورشليم فنهبوها واحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا

خزائنها وحملوا بطريركها والصليب الحقيقي الى بلادهم وواصلوا القتل والنهب في سوريا الى سنة ٦١٦ م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠,٠٠٠ نفس ثم ارسلوا جندًا آخر الى اسيا الصغرى ففتحوها والنصر رفيقهم حيثما حلوا حتى كادوا يطئون شواطئ البوسفور

(ش ٤) هرقل ملك الروم وحاشيته

كل ذلك والامبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والقصف والترف لا يبالي بما يتهدد مملكته. وكانه لما تحقق وقوع الخطر نفض غبار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض اموال الكنائس على ان يعيده بعد الحرب مع رباه. وحشد جنده وركب البحر الى كليكيا في اسيا الصغرى واحتل ايسوس فلقيه الفرس هناك فحارب بهم وغلبهم سنة ٦٢٢ م — وفي هذه السنة هاجر المسلمون من مكة الى المدينة

وقضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى أوغل في بلادهم واضطر برويز ان يسحب جنده من مصر والبوسفور للدفاع عن قلب مملكته

أما هرقل فانه حاربه مرة أخرى سنة ٦٢٧ فاجهز على قواته وانكسر الفرس انكسارًا عظيماً وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الاشور بين القديمة وهي أول مرة وطئ الروم تلك المدينة . وكان برويز قد أصبح شيخاً طاعناً في السن فأوصى بالملك لابنه مردز . وكان له ابن آخر اسمه شيرويه فحسد اخاه وعمد على الكيد به وبأبيه . فاستعان ببعض الناس حتى قبض على من بقي من أولاد برويز وهم ثمانية عشر ولداً فقتلهم جميعاً بين يدي أبيه وزج أباه في السجن حتى مات . وبموت كسرى برويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعش ابنه شيرويه بعده الا ثمانية أشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى وادعى الملك تسعة ملوك في أثناء أربع سنوات . فساد الفساد وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهي في تلك الحال

ناهيك بما كان يتهدد الروم في أوربا من هجمات برابرة القوط وكان هؤلاء في أوائل الاسلام قد استولوا على غربي هنكاريا (المجر) . وزد على ذلك ان الهونيين كانوا في أثناء ذلك يتهددون مملكة الروم من جهة الشرق

ولم يكن الاختلال مقتصرًا في الروم والفرس على الوجهة السياسية والادارية ولكنه كان يتناول الهيأة الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية مما هو مشهور . فقد كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع لتعدد الفرق وتشعب المذاهب وخصوصاً في ما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين وأكثر اختلافهم على الالفاظ والحروف والجوهر واحد

فكان الامبراطور وأهل دولته يقولون ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين وأما رعيته في مصر والشام فكان اكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة . وفي زمن هرقل سعى البطريرك اثناسيوس بطريرك اليعاقبة في منبج في التوفيق بين الطائفتين فخاطب الامبراطور في ذلك ووضع مذهباً متوسطاً بين القولين وهو ان للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة . فوافقه الامبراطور واستمهله ريثما يخابر البطريرك القسطنطيني بيروس وهو سوري الاصل وكان اثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبل مخاطبة الامبراطور . فنشر الامبراطور بهذا المعتقد منشورًا قبل به اكثر الاساقفة

الشرقيين الا صفرونيوس البطريرك الاورشليمي و بعض الاساقفة وفي مقدمتهم اسقف عمان وسائر أهل الكنيسة الملكية . فشق ذلك على الامبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم . فأصبح الانقسام مزدوجاً — الامبراطور والبطريرك القسطنطيني والاسكندري والانطاكي حزبٌ يقول بطبيعتين ومشيئة . والبطريرك الاورشليمي وسائر أهل الكنيسة الرومية حزب آخر يقول بطبيعتين ومشيئتين . واليعاقبة ومنهم الاقباط وأهل حوران وسائر أهل داخلية سوريا ومصر حزب آخر . والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة حزب آخر . فضلاً عن طوائف أخرى غير هذه ومنهم الخياليون وهم يقولون ان المسيح لم يصلب حقيقة وانما صلب رجل آخر مكانه . والاكيفاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء وهم يشبهون الخوارج . ثم ان اليعاقبة ايضاً كانوا أقساماً مما يطول شرحه

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد على السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين حتى آل ذلك احياناً الى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم الى الفرس . كما حصل بالارمن فانهم لما حرم المجمع القسطنطيني بدعة الطبيعة الواحدة جعل الامبراطور يشدد النكير على متبعيها والارمن منهم فأفضت بهم الحال الى تسليم بلادهم الى الفرس . وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص فقد كانوا عوناً له في فتحها للسبب عينه

وزد على ذلك ما كان من التباغض القوي بين اليهود والروم بنوع خاص لما اقتضاه تعصب تلك الايام . وقد بلغ هذا التباغض حده في أيام هرقل فثار اليهود في انطاكية فقتلوا بطريركها ومثلوا بجثته مثلاً قبيحاً فأرسل اليهم هرقل فقتل منهم جماً غفيراً . وثاروا في صور عاصمة فينيقية وقتلوا واليها . وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين على أن يدخلوا مدينة صور ليلاً ويقتلوا النصارى . فاطلع مطران صور على المكيدة فأخبر الوالي بها فنبه الوالي على الجند الحامية والبوابين والحراس ان يكونوا تلك الليلة على حذر . ولما جنَّ الليل هجم اليهود من خارج الصور فردهم الجند على اعقابهم فرجع اليهود الى الاديرة والكنائس بجوار المدينة فهدموها وسلبوا آنيتها

وفعلوا نحو ذلك في ما جاورها من القرى فعاقبتهم الحكومة فقتلت كل يهود صور وحدث مثل ذلك في قيسارية فلسطين فأرسل الملك أخاه ثاودورس فقتل من كان فيها من اليهود فاشتد غيظهم على المملكة في كل انحائها . ومما زاد الروم خوفاً من اليهود وتحذرًا منهم ان بعض أهل التنجيم أنبأوا الملك ان واحدًا من أهل الختان سيأخذ المملكة منهُ — ولذلك يقول العرب ان المراد بأهل الختان المسلمون . ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية في الروم انهم اشتروا من الفرس ثمانين ألفاً من اسرى النصارى وذبحوهم

ولم يكن التباغض محصورًا بين اليهود والروم ولكنه كان بينهم وبين النصارى على الاجمال . وكانت حكومات النصارى اذا سنت قانوناً خصصت بنودًا منه بشأن اليهود لمعاملتهم بالاحتقار والاستبداد كما فعل القوط حكام اسبانيا نحو زمن الفتوح الاسلامية فقد سموا اليهود اعداء الحكومة القوطية . وكانت المجالس الملية في تلك المملكة قد قررت الغاء الديانة الاسرائيلية فأمرت الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال باعيادهم واجبرتهم على احترام النصرانية وضيقت عليهم تضييقاً شديدًا حتى اضطروا للتظاهر بالنصرانية وقلوبهم ما زالت يهودية تكاد تنفجر حقدًا وكظماً على ماناهم من صنوف العذاب . ولم يكن القوط يجهلون تكتمهم ولذلك فلم يكونوا يعاملون المتنصرين منهم معاملة المسيحيين الاصليين . بل حرموهم من كل الحقوق المدنية وحظروا عليهم اقتناء العبيد وتمادوا في اذلالهم حتى منعوهم من القراءة — فهل نستغرب بعد ذلك اذا كان اليهود عوناً للعرب المسلمين على حكامهم المسيحيين . . ؟

أما الفرس فقد كانت هيأتهم الاجتماعية في غاية الانحطاط قبل الاسلام بمدة طويلة لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب عن ماني ومزدك . ومن غريب دعوى هذا الاخير ان الله بعثه ليأمر بشيوع النساء والاموال بين الناس على السواء لانهم اخوة اولاد اب واحد . وتبع هذا المذهب قباذ احد ملوكهم فجاء بعده من نقضه وقام غيره وتشعبت الآراء هناك وفسدت الاخلاق

وفيما كان الروم والفرس على ما ذكرناه من الانحلال والاختلال كان العرب

في ابان نهضتهم وقد اجتمعت كلمتهم واشتد ازرهم بمن كان يهاجر اليهم من رجال الروم والفرس انفسهم فرارًا من تغالب الاحزاب او ضغط الحكام

انتشار الاسلام

يبدأ تاريخ الاسلام بالهجرة فقد هاجر المسلمون من مكة الى المدينة فرارًا مما كان القرشيون يسومونهم اياه من الخسف والاهانة وهم قليلون لا يقوون على دفعهم ورأوا من اهل المدينة موازرة ونصرة بما أظهروه من البيعة المعروفة ببيعة العقبة . فأمرهم النبي بالهجرة الى المدينة فلاقاه اصحابه هناك بالترحاب وانزلوه وانزلوا الذين هاجروا معه على الرحب والسعة

واول عمل باشره بعد نزوله هناك المعاهدة بين قريش من اهل مكة والانصار من اهل يثرب . وكانوا من قبل لا يخلون من منافسة فجعل الاسلام واسطة عقد الاتحاد بينهم . وكتب بين الفريقين كتابًا يعترفون فيه انهم أمة واحدة . وقد أورد ابن هشام ذلك الكتاب بنصه ثم خصص المهاجرين من قريش والانصار من يثرب بعهود أخرى سموها المواخاة فآخى بين أصحابه المهاجرين والانصار بعهد وثيق . هذا هو الحجر الاول من أساس الدولة الاسلامية والمسلمون يومئذ بضع عشرات ففرضوا الزكاة والصيام وأقاموا الحدود وفروض الحلال والحرام وغير ذلك من دعائم الاسلام . ثم انضم الى المسلمين بعض وجهاء المدينة فتأيد الاسلام بهم كما تأيد من قبل بحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب

فلما فرغوا من ذلك فكروا في ما بينهم و بين أهل مكة من الاضطهاد فعمدوا الى مناوأتهم بالغزو والقتال فحدثت الغزوات المشهورة وهي أول الحروب الاسلامية . بدأت بالغزو والقتال على عادة العرب في جاهليتهم وانتهت بفتح المدن والممالك . وأشهر الغزوات وأهمها غزوة بدر الكبرى لان فوز المسلمين فيها قوى عزائمهم ونشطهم على موالاة الغزو

﴿غزوة بدر الكبرى﴾ بدر آبار بين مكة والمدينة تنزل عندها القوافل التجارية المسافرة بين مكة والشام . وكان القرشيون أهل تجارة تسير قوافلهم الى الشام تحمل اليهم البضائع كما تقدم . فعلم المسلمون في السنة الثانية للهجرة ان قافلة من القرشيين أهل مكة قادمة من الشام ومعها الاموال يخفرها ثلاثون رجلاً يرأسهم أبو سفيان بن حرب كبير اهل مكة يومئذ . فانتدب النبي أصحابه لغزو القافلة وسلب أموالها . فبلغ أبا سفيان ذلك فاستنجد اهل مكة مع رسول انفذه اليهم فجاءه منهم ٩٥٠ رجلاً فيهم مئة فارس . وخرج المسلمون وهم ٣١٣ رجلاً منهم ٧٠ من المهاجرين والباقون من الانصار ولم يكن معهم الا فرسان وسبعون جملاً . و بلغهم بعد خروجهم من المدينة ان قافلة قريش قاربت آبار بدر فسبقهم المسلمون الى المكان و بنوا للنبي عريشاً جلس فيه ومعه ابو بكر وتهيأ أصحابه للحرب

ثم رأوا قريشاً مقبلين وهم نحو ثلاثة أمثالهم وفيه نخبة رجال مكة الذين قاوموا الاسلام وأهانوا النبي وفي جملتهم ابو جهل بن هشام . وعلم النبي ان هذه الواقعة حد الفصلين — اما ان ينتصر المسلمون ويتأيد الاسلام اذا غلبوهم واما ان تعود العائدة عليهم اذا غلبوا . فلما رأى القرشيين قادمين في مثل ذلك العدد نظر الى أصحابه فاذا هم قليلون فقال « اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض »

و باشروا القتال بالمبارزة على جاري العادة فقتل أبو جهل . فجاؤا برأسه الى النبي فسجد وشكر الله . ودارت رحى الحرب فكان النصر للمسلمين وقد قتل منهم أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار . وقتل من القرشيين سبعون رجلاً وفيهم من أشراف كل بطون قريش وخصوصاً بني أمية و بني مخزوم وبني اسد . وأسر منهم سبعون رجلاً فيهم عقبة بن أبي معيط فأمر بقتله لما كان من اذاه النبي بمكة . وكان اكثر المسلمين جهاداً في تلك الواقعة علي بن أبي طالب ابن عم النبي وحمزة بن عبد المطلب عمه . وفر من بقي من القرشيين وفيهم أبو سفيان بن حرب رئيسهم وعمرو بن العاص الذين صار من أكبر قواد الاسلام فيما بعد . ساروا يطلبون مكة وغادروا الاموال والامتعة فاستولى المسلمون عليها وتنازعوا في تفريقها

ففرقها النبي عليهم بالسواء ولم يأخذ لنفسه شيئاً . ثم بعث القرشيون يفتدون اسراهم فاجتمع من ذلك مال كثير . وقد عاد أهل مكة مخزولين فانكسرت شوكتهم وعظم أمر المسلمين . ومما زادهم تأييداً ان أبا لهب المشهور بمقاومة الاسلام لم يخرج يوم بدر من مكة وانما أرسل من يحارب عنه على جاري عادتهم في من يتخلف عن الحرب . فلما اخبروه بفشل القرشيين اشتد به الحزن حتى مات بعد بضعة ايام . ولواقعة بدر شأنٌ عظيم في تاريخ الاسلام لانها كانت فاتحة الانتصارات الاخرى

﴿ واقعة احد ﴾ ثم ان القرشيين عادوا بعد هذه الكسرة فاجتمعوا في السنة التالية وقائدهم ابو سفيان وعددهم ثلاثة آلاف وفيهم ٧٠٠ دارع و ٢٠٠ فارس وتهيأوا للاخذ بثار قتلاهم في بدر وساروا لمهاجمة المدينة ومعهم النساء يضربن الدفوف ويندبن قتلى بدر ويحرضن الناس على مقاتلة المسلمين . وكان في جملة رجال هذه الحملة خالد بن الوليد الذي اشتهر بين قواد المسلمين بعد ذلك . فلما أقبلوا على المدينة تشاور النبي وأصحابه فكان رأيه البقاء في المدينة المدافعة . ورأى مثل ذلك أيضاً رجل من الصحابة اسمه عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول ولكن أكثر الصحابة أشاروا بالخروج عليهم . فأطاع النبي الاكثرية وخرج في الف منهم حتى توسطوا بين المدينة وجبل أُحد وباسم هذا الجبل سميت هذه الواقعة (غزوة أُحد) . وكان ابن أبي سلول هذا قد غضب لان النبي خالف رأيه وأطاع الآخرين فلما توسطوا الطريق تقهقر هو وثلث الرجال وأشاع القرشيون في الجند ان محمداً قتل . ففشل المسلمون ولم يظفروا في هذه الواقعة وقتل منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي وكان مقتله سبباً في زيادة الفشل كما كان اسلامه مؤيداً للاسلام . وبلغت جملة قتلى المسلمين سبعين رجلاً وأصيب النبي نفسه بضربة شجت رأسه ودخل بعض حلق المغفر (الدرع) في الشجة فسال الدم . ومثّل القرشيون بقتلى المسلمين مثلاً شنيعاً فقطعوا الآذان والانوف حتى ان هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان (وأم معاوية) شقت بطن حمزة وأخرجت كبده ولاكتها فلم تستطع ان تبتلعها فلفظتها

وكانت هذه الواقعة أشدّ ما أصاب المسلمين الى ذلك الحين ولكنهم كانوا قد

ذاقوا لذة النصر فنسبوا هذا الفشل الى خيانة ابن أبي سلول المتقدم ذكره وعادوا الى مواصلة الغزو حتى كانت واقعة الخندق

{ واقعة الخندق } وذلك ان قبائل العرب لما رأوا نصرة القرشيين في أحد تحزبوا لاهل مكة وانضموا اليهم وفيهم قريش وغطفان وسائر قبائل العرب وبنو النضير وبنو قريظة من اليهود وكان المسلمون قد أجلوهم من أماكنهم كما سيأتي فحرضوا قريشاً على الحرب . وحملوا على المدينة في بضعة عشر الفاً ونحو أربعمائة فرس والف بعير وهم الاحزاب وبهم تعرف الواقعة أيضاً . وكان المسلمون لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف فاضطربوا وخافوا وقد تعلموا من الواقعة الماضية ان لا يخرجوا من المدينة

وكان في جملة الصحابة يومئذ رجل من فارس له خبرة بفنون الحرب اسمه سليمان الفارسي فأشار على النبي بحفر الخندق . وكان العرب لا يعرفون ذلك من قبل فقال له سليمان « كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا فان ذلك من مكايد الحرب » فاستحسن النبي ذلك وأمر بالحفر وكان هو نفسه يشتغل معهم بحمل التراب ولم يكن عندهم العدد اللازمة فاستعاروا بعضها من بني قريظة فاحتفروا الخندق في بضعة عشر يوماً

وأقامت الاحزاب حوالي المدينة وحاصروها والخندق يمنعهم من مهاجمتها فقضوا بضعة وعشرين يوماً لايقاتلون الا بالمراماة بالنبال والحصى وقد هالهم أمر الخندق وعلموا انها مكيدة جديدة . على ان بعضهم حاول الوثوب بفرسه من فوق الخندق فسقط فيه واندقت عنقه فزاد الرعب في قلوب الاحزاب . فلما طال بهم الانتظار عمدوا الى البراز فخرج أحدهم وطلب البراز فخرج اليه علي بن أبي طالب فغلبه عليٌّ . واتفق على أثر ذلك سقوط الامطار وهبوب الرياح فأثرت في خيام الاحزاب وكفأت قدورهم وأهل المدينة في منازلهم قلما أثرت فيها الانواء . فتشاءم أولئك وعادوا على اعقابهم فزال عن المسلمين عار أحد بهذه الهزيمة

وكل ماتقدم من الحروب لاشيء من الفتح فيه وانما هو غزو ومقاتلة . وأما الفتوح الاسلامية فأولها فتح أرض بني النضير وهم يهود حدث حادث دعا الى مطالبتهم

بالجلاء عن بلادهم فطلب النبي اليهم ان يجلوا عنها فأبوا فحاصرهم ستة أيام (سنة ٤ هـ) فطلبوا اليه ان يخلي سبيلهم على أن يحملوا معهم ما حملت الابل من أموالهم الا السلاح فأجابهم الى ذلك فخرجوا وظل ما بقي من أموالهم فيئاً للنبي خاصة يعطي منه من شاء. وكذلك حصل في قريظة وخيبر وكان لخيبر حصون كثيرة فتحوها تباعاً

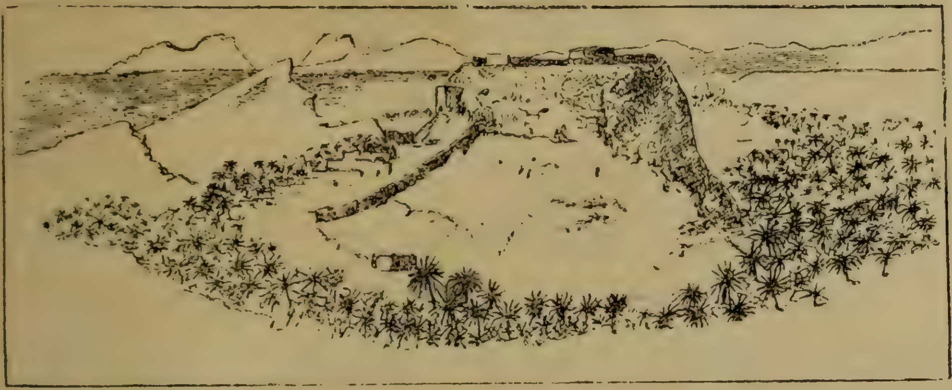

(ش ٥) حصن خيبر

اما القرشيون بعد واقعة الخندق فقد هان عليهم مهادنة المسلمين فعقدوا معهم صلحاً في نحو السنة السادسة للهجرة مفاده « ان من شاء من أهل المدينة أن يقدم مكة للحج أو العمرة او ان يجتاز بها الى اليمن أو الطائف فهو آمن. ومن قدم من أهل مكة او من معهم الى الشام والمشرق ومر بالمدينة فهو آمن »

فتفرغ المسلمون لنشر الدعوة الاسلامية وكان لفشل الاحزاب مع كثرة عددهم تأثيرٌ شديد على قبائل العرب وعظم الاسلام في نفوسهم فجعلوا يفدون الى المدينة لقبول الدعوة من تلقاء أنفسهم وفي جملة الوافدين رجلان لهما شأن عظيم في تاريخ الاسلام هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وكلاهما من أشهر القواد. فاعتز المسلمون بهم واتسعت آمالهم. فبعث النبي في السنة التالية رسله الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام وبعث جنداً لمحاربة الروم في الشام فحاربوهم في قرية من قرى البلقاء في حدود الشام مما يلي حوران اسمها مؤتة وتلك اول حروبهم مع الروم والعرب لم يجربوا الجنود المنظمة بعد فلم يفلحوا فعادوا الى المدينة وقد قتل منهم بضعة من خيرة الصحابة فيهم جعفر بن أبي طالب أخو علي

﴿ فتح مكة ﴾ وحدث في أثناء ذلك حادثة افضت الى نقض الصلح بين المسلمين وقريش فرأى ابو سفيان انهم لم يعودوا يقوون على مناوأة المسلمين فجاء بنفسه الى المدينة لتجديد العهد . وأدرك المسلمون ضعف عدوهم فلم يغفلوا عن هذه الفرصة فاظهروا لابي سفيان قبولهم بالصلح ووعدوه بعقده . فلما عاد الى مكة تجهزوا اليها على عجل لكي يباغتوها قبل ان يتأهب أهلها للدفاع . فساروا حتى اقبلوا عليها وهم عشرة آلاف وفيهم المهاجرون والانصار وقبائل من العرب المحالفة . وكان ابو سفيان و بعض كبراء قريش قد خرجوا من مكة يتجسسون فلقيهم العباس بن عبد المطلب عم النبي فسأله ابو سفيان عمّا هنالك فأخبره العباس بقوة جندهم واعتزاز أمرهم . فقال ابو سفيان « لقد اصبح أمر ابن اخيك عظيماً » فأشار العباس عليه ان يستأمن . فلم ير له خيراً من ذلك فجاء معه الى معسكر المسلمين فاكرم النبي وفادته ومنع الصحابة من أذيته لانهم كانوا ينوون الايقاع به . وزاد في تعظيمه حتى جعل كل من يدخل بيته من أهل مكة يوم الفتح آمناً مثل من يدخل المسجد . فعاد ابوسفيان واخبر أهل مكة بما كان فاستضعفوه وخزلوه وشتموه حتى ان امرأته هند بنت عتبة أخذت بشاربيه وقالت « اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبحه الله من طليعة قوم » فلم يبال

ثم دخل المسلمون مكة وفتحوها وسار النبي توًّا الى الكعبة فكسر الاصنام التي كانت حولها وفي جوفها ونزع ما كان على جدرانها من صور الملائكة وغيرها وكان ذلك آخر العهد بالوثنية في جزيرة العرب . وتحولت الكعبة من ذلك الحين الى مسجد يعبد فيه الله . وأسلم أهل مكة كافة وفيهم ابو سفيان وأولاده وفي جملتهم معاوية بن ابي سفيان مؤسس دولة بني امية

﴿ المؤلفة قلوبهم ﴾ وسمى النبي اشراف مكة الذين اسلموا بعد الفتح « المؤلفة » او « المؤلفة قلوبهم » اشارة الى تأليف قلوبهم لتتألف بهم قلوب اقوامهم تعزيزاً للاسلام . وفي السيرة الحلبية ان المؤلفة قلوبهم ثلاثة اصناف : صنف تألفهم النبي ليسلموا مثل صفوان بن امية . وصنف تألفهم ليثبتوا في الاسلام ومنهم ابو سفيان . وصنف تألفهم لدفع شرهم . وكان يتألفهم جميعاً بالعطاء فيميزهم به

عن سائر الصحابة كما سترى — وفي ذلك من حسن السياسة والحلم وسعة الصدر ما فيه

وبعد فتح مكة بعث النبي سراياه الى ما حولها يدعو الناس الى الاسلام. ثم غزا حنين والطائف وشتان. بين مجيئه الى الطائف الآن ومجيئه في أول دعوته. فقد جاءهم يومئذ مستنصرًا وجاءهم الآن فاتحًا فغلبهم وغنم غنائم بلغ مقدارها ٢٤,٠٠٠ من الابل و ٤٠,٠٠٠ من الغنم و ٤,٠٠٠ اوقية من الفضة. فلما عمد الى تفريقها في اصحابه بدأ بالمؤلفة قلوبهم فاعطى أبا سفيان مائة بعير وأعطى ابنه معاوية مائة بعير وابنه يزيدًا مائة بعير وأعطاهم الفضة. فكان جملة ما اخذه ابو سفيان واولاده ثلاثمائة بعير ومئة وعشرين اوقية من الفضة. فقال ابو سفيان « بأبي انت وأمي يا رسول الله لانت كريم في الحرب وفي السلم »

وفعل النبي نحو ذلك في سائر الاشراف مثل الحارث بن هشام أخي أبي جهل المشهور وصفوان بن امية وغيرهما. فشق ذلك على المهاجرين والانصار وهم دعامة الاسلام وأهل السابقة فكيف يتركون وتفرق الغنائم في من لم يسلموا الاّ مكرهين بعد ان غلبوا على مدينتهم. فتشاكى الصحابة في ما بينهم وقالوا « كيف يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا لا تزال تقطر من دمائهم » فبلغ ذلك الى النبي فجمعهم وسألهم فاعترفوا له بما قالوا فصوب قولهم ولكنه قال لهم « اني لأُعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألفهم ليحسن اسلامهم ويسلم غيرهم تبعًا لهم. وأما انتم فوكلتكم الى اسلامكم الثابت الذي لا يتزلزل — الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا انتم برسول الله الى رحالكم ؟ .. » وقال مثل ذلك للمهاجرين فارتضوا

ثم عادوا الى المدينة في نحو السنة التاسعة للهجرة وقد اعتز جانبهم وذاع امر سلطانهم في كل جزيرة العرب فجعل الناس يفدون على المدينة اسرابًا لاعتناق الاسلام

فلما اعتز المسلمون ودانت لهم جزيرة العرب كلها تقريبًا عادوا الى توسيع دائرة الفتح فامر النبي سنة ٩هـ بالتجهز لاعادة الكرة على الروم. فجهزوا جندًا عدده ثلاثون الفًا فيهم عشرة آلاف فارس. وتلك اكبر حملة استطاعها المسلمون الى ذلك الحين بذلوا فيها كل ما في وسعهم من المال والرجال. ولكنهم لقوا في الطريق شدة عظيمة من

العطش فنزلوا قرية بين المدينة والشام اسمها تبوك وهم يظنون الروم يجتمعون اليها ومعهم عرب لخم وجذام. فجاءهم صاحب ايلة (وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام في رأس خليج العقبة) فصالحهم على الجزية . وفي اثناء هذه الحملة سطا خالد ابن الوليد على صاحب دومة الجندل بين المدينة ودمشق على سبعة مراحل من هذه وهو عربي نصراني من كندة فأخذه خالد وقتل أخاه وأخذ منه قباء من ديباج مخوصاً بالذهب وأرسله الى المسلمين . فلما رأوه تعجبوا منه لانه أول عهدهم بمثل هذه الملابس ثم عادوا الى المدينة ولم يفتحوا شيئاً من بلاد الروم

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة توفي صاحب الشريعة الاسلامية والاسلام لا يزال حديثاً فسعى الذين حط الاسلام من نفوذهم أو وقف في سبيل اغراضهم فارتدت معظم قبائل العرب عنه الا أهل المدينة ومكة والطائف وأصبح الاسلام في خطر شديد لو لم يتداركه أبو بكر كما سيجيء

(٩)

الخلفاء الراشدون

كان النبي في أثناء حياته أمير المسلمين وقائدهم في الحرب وامامهم في الصلاة وقاضيهم في سائر الاحوال . فلما مات ولم يخلف ذكراً ولا أوصى بالخلافة لاحد اختلفوا في من يخلفه وأولى الناس بخلافته أصحابه وهم المهاجرون والانصار. فقال المهاجرون نحن احق بالخلافة لاننا أهل النبي وأصحابه وقد تركنا أهلنا وبلدنا وهاجرنا معه . وقال الانصار بل نحن أحق بذلك لاننا آويناه ونصرناه . واشتد الجدال بينهما حتى كاد يفضي الى النزاع فذكرهم أبو بكر بحديث كان النبي قد قاله على مسمع منهم وهو « قريش ولاة هذا الامر » فاذعنوا وتراجع الانصار

ولكن الخطر ما زال يتهدد الاسلام من اختلاف المهاجرين على من يختارونه لذلك المنصب العظيم . فاحس عمر بن الخطاب رجل المسلمين بذلك وعلم ان الاسلام انما قام بالاتحاد فبادر الى أبي بكر فبايعه والناس ينظرون وهم انما كانوا يخافونه اذا طاب

الخلافة لنفسه لشدة بطشه وقوته . فلما رأوه سبقهم الى مبايعة أبي بكر بايعوا معه وانفض المشكل

أما مبايعتهم ابي بكر دون سائر المهاجرين وفيهم العباس عم النبي وعلي بن أبي طالب ابن عمه وغيرهما من بني هاشم أهل بيته ففيه نظر . والظاهر من اقوال عمر وغيره في مواقف مختلفة انهم رأوا بني هاشم قد اعتزوا بالنبوة لان النبي منهم فلم يستحسنوا ان يضيفوا اليها الخلافة . ولعلهم فعلوا ذلك اقتداء بالنبي نفسه لان عمه العباس طلب اليه مرة ان يوليه عملاً فأبى . وصرح بذلك بنوهاشم أنفسهم وفي مقدمتهم الامام الحسن بن علي لما تنازل عن الخلافة لمعاوية فقال « أبى الله ان يجمع النبوة والخلافة فينا »

ومما ساعد على اختيار أبي بكر دون سائر المهاجرين من غير بني هاشم — مثل عمر وعثمان وطلحة والزبير — انهم اعتبروا السبق في الاسلام لان أبا بكر اسبق رجالهم اليه جميعاً . وهناك سبب آخر ذو شأن عند العرب من عهد جاهليتهم وهو السن ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والسيادة معاً . وكانوا اذا تساوت المناقب في من يترشحون للامارة فضلوا اكبرهم سناً مع ملاحظة المقام الادبي — كذلك فعلت قريش في حرب الفجار الثاني فانها جمعت بطونها وعلى كل بطن رئيس ورأسوا عليهم جميعاً حرب بن أمية . قال ابن الاثير وولوه عليهم جميعاً « لمكانه من عبد مناف سناً ومنزلة » . وقد جمع أبو بكر الامتياز بالسن والوجاهة على سائر قريش . وفوق كل ذلك ان النبي لما مرض انابه للصلاة في المسلمين وهي من حقوق الامامة

وأول خطبة قالها أبو بكر بعد المبايعة تمثل حقيقة الاسلام وتبين السر الذي ساعد على سرعة انتشاره وتأييد سلطانه وهي « أيها الناس قد وليتُ عليكم ولستُ بخيركم فان احسنت فاعينوني وان أسأت فقوموني . الصدق امانة والكذب خيانة والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . والضعيف فيكم قويٌ عندي حتى آخذ الحق له ان شاء الله تعالى . لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم »

تسلم ابو بكر زمام الخلافة والاسلام في غاية الاضطراب بسبب الردة التي أشرنا اليها. ومن أسبابها ان بعض القبائل التي دانت للاسلام ولم يكن الاسلام متمكناً في عقولهم وقلوبهم لما مات النبي تبادر الى اذهانهم ان الدعوة الى النبوة امر هين وظنوا انفسهم يستعينون على تأييد دعواهم بقبائلهم وهي اكثر رجالاً من قريش فكيف يستطيع هؤلاء السيادة على جزيرة العرب كلها وهم قليلون . فادعى النبوة غير واحد وفيهم طليحة الاسدي من بني اسد وسجاح من تميم ومسيلمة من بني حنيفة في اليمامة وغيرهم واستعان كل منهم بقبيلته وانصارها . فدعا ذلك الى اضطراب الاحوال في سائر القبائل فمنهم من رفض الاسلام وتابع اولئك الادعياء ومنهم من اكتفى بالامتناع عن اداء الزكاة — والزكاة من دعائم الاسلام الاولية ولها شأن المال في الدولة والمال ضروري لقيام الدول في كل زمان ومكان . و بعض العرب امتنعوا عن الزكاة لانهم عدوها من قبيل الاتاوة التي كانوا يدفعونها في جاهليتهم

واشتد امر الردة واستفحل المرتدون حتى تجاسر بعضهم على المدينة نفسها وهي عاصمة المسلمين فهاجموها وكادوا ياخذونها لو لم يدافعهم أبو بكر دفاعاً جميلاً . وقد تصرف في محاربة المرتدين تصرف الرجل الحكيم الحازم وبين يديه نخبة القواد وأهل الحزم فعقد لهم الالوية للقتال وبلغ عدد ما عقده منها احد عشر لواءً عقدت لاحد عشر قائداً في جملتهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص

فلم تمض على ذلك سنتان حتى استتب الامر لابي بكر وعاد الناس الى ما كانوا عليه واستكنت الاحوال . فحول التفاته الى الشام والعراق اقتداءً بما اراده النبي فوجه اليهما الجنود فجرت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣ هـ وكانت سبباً في فتح الشام واشتد أزر المسلمين بها كما اشتد أزرهم بواقعة بدر الكبرى

وتوفى أبو بكر في تلك السنة وقد أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب وهو أكبر سائر المهاجرين سناً بعد أبي بكر وفي أيامه جرت أهم الفتوح الاسلامية في الشام والعراق ومصر وافريقيا وغيرها

الفتوح الاسلامية
(١٠)
في صدر الاسلام

للكتاب وأهل النقد بحث طويل وجدال عنيف في الاسباب التي ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس وقهر القياصرة والاكاسرة برجال يكاد لا يزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن أولئك · مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة الدربة في فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف العدة · والروم والفرس أعظم دول الارض يومئذ وعندهما العدة والرجال والحصون والمعاقل · وزد على ذلك ان العرب فضلاً عن قلتهم وسذاجة أحوالهم فقد جاؤوا مهاجمين في بلاد لا يعرفونها ولا نصير لهم فيها · وأغرب من ذلك كله انهم فتحوا المملكتين جميعاً في مدة لا تتجاوز بضع عشرة سنة — فكيف تأتى لهم ذلك ؟

أشهر أقوال أهل النقد في هذا الشأن ان العرب لم يستطيعوا فتح تينك المملكتين الا لما كان فيه الروم والفرس من التضعضع والضعف على أثر ما كان من الحروب بينهما قبيل الاسلام مما بيناه في فصل سابق · وعندنا ان ذلك التضعضع لم يكن وحده علة ذلك النصر — والا لكانت احدى الدولتين أولى بالاستيلاء على جارتها وعدوتها من أمة صغيرة جاءت من صحاري بلاد العرب فغلبت الدولتين جميعاً · على اننا لا ننكر ما كان لتضعضع الروم والفرس من التأثير في تسهيل الفتح ولكنه لم يكن هو علته وهناك أسباب أخرى سيأتي بيانها

﴿ ما الذي جرأ العرب على الفتح ؟ ﴾ فلنبحث أولاً في الاسباب التي جرأت العرب على مهاجمة تينك المملكتين وهم أهل بادية ما برحوا من اجيال متطاولة ينظرون الى الروم والفرس نظر الاحترام والتهيب يضربون الامثال بضخامة ملكهما ويخافون اسميهما فكيف تتجرأ شرذمة منهم على مناوأتهما ببضعة آلاف ليس على ابدانهم الا غليظ الكساء وما طعامهم الا الذرة والشعير وما عدتهم الا الرماح مشدودة بعصب والسيوف معلقة بخرق — لماذا لم يفعلوا ذلك قبل الاسلام ؟ ·

والجواب على ذلك ان العرب أصبحوا بعد الاسلام غير ما كانوا عليه قبله – كانوا قبائل مشتتة مبعثرة فاصبحوا أمة واحدة بقلب رجل واحد – وهذا وحده لا يكفي لاقدامهم على ذلك الامر العظيم – وانما هو الاعتقاد بصدق الدعوة التي دعوا اليها – اعتقادهم انهم انما يفتحون الدنيا في سبيل الدين وان الله يدعوهم الى نشر الاسلام في الارض وان من مات منهم مات شهيداً وما في العالم الآتي خير وأبقى – هذا الاعتقاد هو الذي جرأ العرب على ركوب هذا المركب الخشن · وقد ساعدهم عليه ماذاقوه من حلاوة النصر في غزواتهم وسراياهم في أيام النبي · والانسان اذا خدمه التوفيق في تجارة هان عليه المخاطرة بكل ماله في سبيل تلك التجارة

اما الاتحاد بالاسلام فانه ظاهر في كل أعمالهم يشهد بذلك ما قدمناه من أمر المعاهدة والمؤاخاة في أول سنة للهجرة · ويؤيده ان الاسلام عنوان التوحيد كما يتضح من مراجعة القرآن والحديث · ولا تكاد تخلو خطبة من خطب الخلفاء أو الامراء في صدر الاسلام من الاشارة الى تلك الوحدة وتذكير المسلمين بما كان عليه آباؤهم في الجاهلية من التفرق والتشتت وما يدعوهم اليه الاسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة · وقد زاد متانة تلك الوحدة اجتماعهم خمس مرات في اليوم للصلاة خلف الامام أو من يقوم مقامه · وفي ذلك من توطيد عرى الاتحاد والاجماع على الطاعة ما لا يخفى – ذكر البلاذري ان أبا سفيان لما جاء المسلمين قبل الفتح وهو لم يسلم بعد رآهم قائمين للصلاة اذا ركع النبي ركعوا واذا سجد سجدوا فقال « تالله ما رأيت كاليوم طواعية قوم جاؤا من ههنا وههنا ولا فارس الكرام والروم ذات القرون »

واما اعتقاد العرب صدق الدعوة وانهم كانوا يعملون لآخرتهم لا لدنياهم فظاهر من اقوالهم واعمالهم في أثناء الفتح كقول المغيرة لما قال له رستم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية « انكم تموتون في ما تطلبون » فقال المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ويظهر من بقي منا على من بقي منكم » وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس لما خوفه بجموع الروم وانه ان يقدروا عليهم فقال عبادة : –

« ياهذا لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك · اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم

وكثرتهم وانا لانقوي عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه أن قتلنا من آخرنا كان امكن لنا في رضوانه وجنته . وما شيء أقر لاعيننا ولا احب لنا من ذلك . وانا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولانها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عزّ وجل قال لنا في كتابه كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحاً ومساءً ان يرزقه الشهادة وان لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى اهله وولده وليس لاحد منا همٌ فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه أهله وولده وانما همنا ما امامنا . واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لانفسنا أكثر مما نحن عليه . . »

وامثال ذلك كثيرة في تاريخ الاسلام حتى لقد كان المسلم يقاتل اباه واخاه اذا كانا مشركين ولا يبالي بل هو يعتقد انه يفعل خيرًا . ويؤيد ذلك ما جاء في تواريخ الاديان الاخرى فان الانسان لا يستهلك في أمر ويعرض حياته للخطر من أجله الا اذا كان من قبيل الدين وفي أحاديث الشهداء عند النصارى وسائر الاديان الاخرى ما يكفي

وقد رغب العرب في الشام والعراق ومصر لما علموه من خصبها وكثرة خيراتها وبلادهم قاحلة لا تفي بمطامعهم بعد تلك النهضة الدينية . وكانت بعض القبائل التابعة للاسلام تحارب لمجرد الكسب من الاسلاب والغنائم — يستدل على ذلك مما اظهروه بعد غزوة حنين والطائف فقد كانت الاموال كثيرة والغنائم غزيرة كما تقدم فلما فرغوا من الحرب ورد السبايا . قال ابن هشام « ركب (النبي) واتبعه الناس يقولون يارسول الله اقسم علينا فيأنا من الابل والغنم حتى الجأوه الى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال : ردوا عليّ ردائي ايها الناس فوالله ان لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً »

﴿ ما الذي ساعدهم على الفتح ؟ ﴾ ذلك ما جرأ العرب على الفتح اما ما ساعدهم عليه فهاك تفصيله : —

(١) نشاطهم وخفة احمالهم : لانهم اهل بادية تعودوا خشونة المعيشة فأصبحوا لا يبالون بالجوع ولا العطش . اذا سافر أحدهم الى حرب لا يحمل معه شيئاً يثقل كاهله او يثقل على بعيره . وقد لا يحملون طعاماً وانما يقتاتون بما يكسبونه بالغزو في اثناء الطريق

وللابل فضل كبير في تغلب العرب لانها كانت تقوم عندهم مقام المركبات والخيول والماشية عند الروم . فالعربي يركب ناقته ويحمل عليها أثقاله ويغتذي من لبنها ويستريح في ظلها وهي تقتات على العشب في الصحراء ولو يابساً وتصبر على الجوع وتحتمل الظماء أياماً . واما الرومي او الفارسي فلا يستطيع الانتقال الى الحرب الا بالاحمال والاثقال من المؤونة والذخيرة ما لا يقوى على حمله الا المركبات والمركبات تحتاج في جرها الى دواب والدواب تحتاج الى طعام ومياه — ويذكرنا ذلك بما شاهدناه في حرب الانكليز وعرب السودان في اثناء الحملة النيلية التي انفذوها سنة ١٨٨٤ لانقاذ غردون باشا من الخرطوم . فقد كان الانكليزي لا يستطيع الانتقال الا ومعه الاحمال من البقسماط واللحوم المطبوخة والسكر والشاي والبن والشمع وقناطس الماء واحمال الخيم والامتعة واطعمة الخيل وغير ذلك مما يحتاج الى الدواب الكثيرة . فكان رجال حملة النجدة ١٥٠٠ وجمالها اربعة آلاف ومعها الجمالة والخدم وهي عبء ثقيل على كاهل الحملة . واما السوداني فقد كان في غنى عن كل ذلك بجراب فيه شيء من الذرة الناشفة يتأبطه ويمشي

(٢) اعتقادهم بالقضاء والقدر : وان الانسان لا يموت الا اذا جاء أجله فاذا اتت ساعته مات ولو كان على فراشه واذا تأخرت فلا يصاب بسوء ولو كان تحت مراهف السيوف . وكان هذا الاعتقاد متمكناً فيهم وهو علة ما كان يبدو من بسالتهم في وقائعهم المشهورة

(٣) مهارتهم في ركوب الخيل ورمي النبال : فقد كانوا امهر من الروم والفرس فيهما . وخيل العرب انجب من خيول اولئك وكانت أكثر وقائعهم بالمبارزة بين الافراد

على جاري العادة في تلك الاعصر فيختارون فارساً من كل جند فيتبارزان فمن غلب كان اصحابه الغالبين . وكان العرب يغلبون في المبارزة على الاكثر . وكثيراً ما كان نصرهم متوقفاً على غلب في مبارزة أو رمي بنبلة صائبة اذا أصابت رئيس الجند احبطت رجاله — وسيأتي تفصيل ذلك في كلامنا عن السلاح

(٤) اختصاص صدر الاسلام برجال توفرت فيهم شروط النصر : وقد امتاز ذلك العصر بنبوغ الرجال العظام كما امتاز عصر نابوليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم . وقد نبغ قواد نابوليون على أثر الثورة الفرنساوية كما نبغ قواد الصدر الاول للاسلام على اثر واقعة الفيل التي سطا بها الاحباش على الكعبة وحركت ساكن العرب فاظهرت قواهم بالفرك والاحتكاك . ومثل هذه الحوادث الكبيرة يعقبها في الغالب نهضة تظهر فيها المواهب وتتبين القوى . والتاريخ أكبر شاهد على ذلك . فكأن الله قدر للعرب النصر فاختصهم بقواد من نخبة رجال العالم في الحرب والسياسة والدهاء والحكمة . كخالد بن الوليد وخالد بن سعيد وابي عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص ويزيد بن ابي سفيان وحمزة بن عبد المطلب وعلي ابن ابي طالب ممن تغلب فيهم البسالة وقيادة الجند . ومثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه من أهل الدهاء والسياسة . وابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب من اهل الحزم والتقوى وصدق العزيمة

فنبوغ هؤلاء الرجال وامثالهم في اوائل الاسلام كان من أكبر العوامل في سرعة نجاحه . وكان المسلمون يعلمون ذلك حتى ان النبي نفسه قال في أول ظهور الدعوة « اللهم أيد الاسلام بحمزة بن عبد المطلب » ولما اسلم حمزة ثم اسلم عمر بن الخطاب قال « قد تأيد الاسلام بحمزة وعمر » . وأمثال ابي بكر وعمر وعلي وابن العاص ومعاوية وخالد لو ظهروا اليوم لكانوا من افراد الناس العظام الذين يتمثل العالم المتمدن بعظمتهم كما يتمثل الافرنج ببونابرت وكروموبل وبسمارك وغلادستون وغيرهم . ناهيك بمن ظهر من رجال الاسلام في عصر الامويين والعباسيين

(٥) الصبر والمطاولة : اصبح العرب بعد فشلهم في واقعة مؤتة وقد عرفوا

قوة الروم وخبروا كثرتهم وعلموا ان قتالهم غير قتال أهل البادية الذين كانوا يغزونهم ببلاد العرب . فلما تحققوا ذلك جعلوا عمدتهم في حروبهم الصبر والمطاولة . والصبر هين عليهم لاكتفائهم بالشيء اليسير من الطعام واللباس كما تقدم . واذا قلّ زادهم عمدوا الى الغزو واقتاتوا بما تصل اليه ايديهم من الماشية او الحنطة او غيرهما

وكانت حروبهم في اول خروجهم الى الشام والعراق اشبه بالغزو منها بالفتح بل تلك كانت قاعدتهم في اكثر فتوحهم . فقد كانوا يرسلون جماعة منهم لغزو البلد الذي يريدون فتحه — وقد لا يكون قصدهم الفتح في بادئ الرأي — فيحومون حول البلد يغزون وينهبون حتى تتاح لهم فرصة للفتح فيغتنمونها — كذلك فعلوا في كثير من فتوحهم في صدر الاسلام وبعده . فان موسى بن نصير انما ارسل طارقاً الى سواحل اسبانيا سنة ٩٢ هـ غازياً وليس فاتحاً . فاتفق له اسباب ساعدته على الفتح تشبه الاسباب التي ساعدت العرب على فتح الشام فدخل طارق الاندلس فلما بلغ موسى ذلك استغربه وشق عليه ان لا يكون هو الفاتح فبعث يستوقفه — الى آخر ما كان بينهما . وهكذا كان شأنهم قبل ذلك في فتح افريقية وما يليها

(٦) نجدة العرب : كان الاسلام في أول امره نهضة عربية والمسلمون هم العرب حتى اصبح اللفظان مترادفين في كثير من الاحوال . فاذا قالوا العرب ارادوا المسلمين وبالعكس . فكان العرب اقرب الامم للدخول في الاسلام لما اختصهم منه دون غيرهم من الافتخار به . وتمكن ذلك في الاذهان خصوصاً لما امر عمر باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب . فخرجوا واصبح اهل الجزيرة كلهم مسلمين ولا يزالون كذلك الى اليوم

والمسلمون لم يهاجموا مدن الشام والعراق رأساً لكنهم قضوا زمناً طويلاً في ضواحيهما مما يلي البادية يغزون وينهبون وسكان تلك البادية عرب مثلهم وفيهم الغساسنة في بصرى حوران على حدود الشام والمناذرة في الحيرة على حدود العراق . وكان الغساسنة عمال الروم في الشام والمناذرة عمال الفرس في العراق . ولم يكن العرب يحبون الروم ولا الفرس وانما كانوا يخضعون لهم قسراً . وخصوصاً المناذرة فقد كان

بينهم وبين الفرس ضغائن على أثر مقتل النعمان بن المنذر الملقب ابا قابوس . فان كسرى برويز قتله وحصل بسبب قتله واقعة شهيرة بين الفرس والعرب في مكان يقال له « ذوقار » وبه تعرف الواقعة انهزم بها الفرس شر هزيمة وهي اعظم واقعة انتصف فيها العرب من العجم . ومن غريب الاتفاق انها حدثت في السنة التي حدثت فيها واقعة بدر الكبرى والعرب فازوا في كليهما

وظلت الضغائن بين المناذرة والفرس حتى جاءهم المسلمون وعرض عليهم خالد ابن الوليد الاسلام او الجزية او السيف فاختاروا الجزية وصالحوه على مال يدفعونه كل عام ووقع نحو ذلك في بصرى وغيرها من بلاد العرب النصارى في ضواحي الشام وفي غيرها من بلاد العرب في حدود البادية بين العراق والشام كعين التمر وصندوداء وفيها قوم من كندة واياد . وقراقر وهو ماء لبني كلب وغيرهم من القبائل التي حاربها خالد في أثناء قدومه من العراق الى الشام . فكانت العرب اقرب سائر الامم الى نجدة الاسلام للاسباب التي قدمناها ولاسباب أخرى تختص بكل قبيلة على حدة كحقد عرب اليمن على الفرس منذ فتحوا بلادهم وحكموهم قبل الاسلام ثم تقلص ظلهم عنهم وانحسر الى البحرين . وكانت ربيعة تقيم في الجزيرة ببلاد الفرس وكانوا عوناً للعرب المسلمين على الفرس نكاية في هؤلاء

وكثيراً ما كان هؤلاء العرب وغيرهم من اهل الشام الاصليين يضافرون المسلمين على الروم فراراً من اداء الجزية كما فعل الجراجمة (المردة) في جبل اللكام فان حبيب بن مسلمة الفهري غزاهم فبدروا بطلب الامان فصولحوا على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية ... ودخل من كان في مدينتهم من تاجر واجير وتابع من الانباط وغيرهم من أهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف

(٧) خط الرجعة : ثم ان العرب كانت قاعدتهم في حروبهم هناك المحافظة على خط الرجعة فلا يقاتلون الفرس او الروم الاّ وهم في حوطة . وكان حفظ ذلك الخط هيناً عليهم لانهم كانوا يجعلون الصحراء وراءهم وهي ملجأهم فاذا اندحروا

لا يستطيع الروم أو الفرس اللحاق بهم اليها ولا يهمهم ذلك اللحاق. ومتى عاد الروم الى مساكنهم عاد العرب عليهم وهكذا حتى يقلقوا راحتهم ويضعفوهم بالمطاولة والصبر ولو كانوا أقل عدداً منهم. وشأنهم في ذلك مثل شأن البوير في هذه الايام مع دولة الانكليز فانهم نفر قليلون وقد أقلقوا راحة الجيوش الانكليزية بضع سنوات وهؤلاء اكثر عدداً وعدة وعندهم الحصون والمعاقل. ولكن البوير انما اتعبوهم بالمطاولة والسطو حيناً بعد حين ثم الرجوع الى مكامنهم بين الجبال حيث لا يستطيع الانكليز الذهاب اليها الا تحت الخطر

وكانت هذه القاعدة مرعية عند العرب يحرضون بعضهم بعضاً عليها. ومن هذا القبيل قول المثنى بن حارثة الشيباني أحد قواد العرب فانه لما علم بقدوم المسلمين لمحاربة الفرس في العراق بعث اليهم يقول «قاتلوا الفرس على حدود ارضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا تقاتلوهم بعقر دارهم فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم. وان كانت الاخرى رجعوا الى فيئة ثم يكونون اعلم بسبيلهم واجرأ على ارضهم الى ان يرد الله الكرة عليهم»

ويؤيد ذلك رغبة الخليفة عمر في بقاء المواصلة بين مركز الخلافة في المدينة وبين سائر اطراف المملكة الاسلامية بحيث لا يكون بينه وبين سائر المسلمين ماء. فقد كتب الى قواده في الاطراف بعد فتح فارس ومصر — وكان سعد ابن أبي وقاص مقيماً في مدائن كسرى وعمرو بن العاص في الاسكندرية يقول — «لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت ان اركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمتُ» فتحول سعد الى الكوفة وتحول عمرو الى الفسطاط وأقاما بجندهما في مضارب الخيم ثم صارت تلك المضارب مدناً بعد ذلك

اليرموك : تلك كانت القاعدة في حروب العرب بالشام والعراق ثم كانت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣ هـ بدأت في حياة أبي بكر. واليرموك واد بناحية الشام بجوار بصرى يسيل فيه الماء حتى يصب في بحيرة طبرية واسمه اليوناني (Hieromax) عربه العرب «يرموك». وعلى ضفاف ذلك الماء حصلت تلك الواقعة

الهائلة وهي ذات شأن عظيم في فتوح الشام لان فوز المسلمين فيها نشطهم على مواصلة الفتح واضعف عزائم الروم

واذا تأملت في تفاصيلها رأيت سبب الفوز فيها سداد رأى عمرو بن العاص وشجاعة خالد بن الوليد . وذلك ان الروم لما رأوا ما كان من مناوأة العرب لهم في ضواحي الشام ومطاولتهم جمعوا قواتهم وعولوا على الفتك بهم دفعة واحدة . وكان المسلمون متفرقين في ضواحي الشام والعراق فتكاتبوا بشأن ذلك فقال عمرو بن العاص « ان الرأي لمثلنا الاجتماع فاننا اذا اجتمعنا لا نغلب من قلة وان تفرقنا لا تقوم كل فرقة بمن استقبلها لكثرة عدونا » فكتبوا الى ابي بكر بذلك فأجاب مثل جواب عمرو . فاجتمع جند المسلمين من العراق والشام فلاقاهم الروم في اليرموك وعددهم على قول ابن الاثير ٢٤٠,٠٠٠ والمسلمون ٥٠,٠٠٠ بقيادة خالد بن الوليد فخطب خالد فيهم خطاباً حرضهم فيه على الثبات وجعل الجند كراديس على كل كردوس قائد ولم يكن الحرب بالكراديس معروفاً عند العرب كما سترى . والظاهر ان خالداً عباه تلك التعبية لمقاومة الروم بمثل نظامهم

وشعر خالد بتهيب المسلمين وخوفهم من كثرة الروم وسمع أحدهم يقول « ما أكثر الروم وأقل المسلمين » فقال له « ما أقل الروم وأكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » وفيما هم في القتال جاءهم الخبر بموت أبي بكر فكتموه وصبروا صبر الرجال لعلمهم ان الفشل في تلك الواقعة يذهب بكل أعمالهم فقاتلوا قتالاً شديداً حتى ان النساء كن يقاتلن بالعصي . فانتصر المسلمون وكان هذا النصر مقدمة كل ما نالوه في الشام وكذلك واقعة القادسية في العراق فقد كانت فاتحة نصرهم على الفرس وقد صبروا في هذه الواقعة صبراً جميلاً وطال أمرها كثيراً

(٨) انقسام الروم (والفرس) فيما بينهم وانحطاط الهيأة الاجتماعية فيهم وفساد أخلاقهم . فضلاً عما كان من الشحناء بين الرعية أهل البلاد الاصليين وحكامهم وخصوصاً في مصر والشام فان المصريين الاصليين وهم الاقباط كانوا قد عانوا سلطة الاجانب اجيالاً متطاولة (الفرس فاليونان فالرومان) وهان عليهم الانتقال من سلطان

الى سلطان فرارًا من الظلم او الضغط · وكذلك اهل الشام وهم اخلاط من الآراميين والسريان والانباط واليهود وغيرهم وكان حظهم من ذلك مثل حظ جيرانهم المصريين وقد يئسوا من الاستقلال مثلهم فلا يهمهم اذا كان حاكمهم روميا او عربياً وانما يهمهم ان يكون لهم راحة تحت سلطانه · وربما فضلوا العرب لانهم أقرب اليهم لغة ونسبًا وأخلاقًا · وزد على ذلك ان المرء من طبعه يرجو النفع من البعيد اكثر من القريب ويتوسم الخير في القادم المجهول اكثر مما في الحاصل المعلوم · وعلى الخصوص اذا كان الفرق بينهما ظاهرًا مثل ظهوره بين الروم والعرب · فالروم كانوا يومئذ في دور انحطاطهم وقد فسدت احكامهم وآدابهم والعرب في دور نموهم وفي ابان نهضتهم وقد جعلوا العدل والمساواة وجهتهم · فضلاً عما كان بين اهل هذين القطرين وبين حكامهم الروم من الانقسامات الدينية التي قدمناها حتى هان عليهم الرضوخ لاي دولة كانت وان يكونوا عونًا لها على حكامهم

(٩) اليهود : كان الروم مع انقسامهم الى طوائف واحزاب قد اجمعوا على اضطهاد اليهود كما تقدم · ولما جاء المسلمون لفتح الشام كانت البغضاء قد بلغت معظمها ويودّ اليهود ان يخسروا اموالهم — مع رغبتهم في الاموال — في سبيل الانتقام من الروم · وفي الواقع كثيرًا ما كانوا عونًا للعرب عليهم وكانوا يدلونهم على عورات المدن ويدخلونهم اليها كما فعلوا بقيسارية بعد ان حاصرها المسلمون سبع سنين ولم يقووا عليها لقوة جندها ومناعة حصونها · فكان يحرس اسوارها كل ليلة ١٠٠,٠٠٠ جندي · وكان قائد المسلمين هناك يومئذ معاوية بن ابي سفيان فجاءه يهودي من اهلها اسمه يوسف فدلهم على طريق من سرب فيه الماء على شرط ان يؤمنوه واهله فدخل المسلمون المدينة وفتحوها

وصالح ابو عبيدة السامرة واهلها يهود على ان يكونوا عيونًا وادلاء للمسلمين واعفاهم في مقابل ذلك من جزية رؤوسهم واطعمهم ارضهم · وقس على ذلك مدنًا أخرى خانها اليهود نكاية في الروم حكامهم للاسباب التي قدمناها

(١٠) عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم : وكان لتلك المناقب تأثير عظيم

في من يدخل سلطان المسلمين من رعايا الروم او الفرس وتلك كانت الوصية الاولى التي يتزودونها اذا خرجوا للفتح . واليك وصية ابي بكر لاسامة يوم خروجه بالمسلمين نحو الشام قال « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيرًا ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً او تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا الا لله . وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فادعوهم وما فرغوا انفسهم له »

ومن هذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم . ومن اوضح الادلة على ذلك ما كان من أمر جبلة بن الايهم ملك غسان لما اسلم في زمن عمر بن الخطاب وجاء المدينة بخيله ورجله وقد فرح عمر باسلامه وخرج اهل المدينة للنظر الى موكبه وفيه الخيول المعقودة اذنابها وفي اعناقها سلاسل الذهب وعلى رأس جبلة تاج مرصع بالجوهر — على ان ذلك لم يمنع عمر من اقامة الحد عليه لما وطئ احد بني فزارة ازاره وهو يطوف في الكعبة فرفع جبلة يده وهشم انف الفزاري فاشتكاه الفزاري الى عمر فبعث الى جبلة فأتاه فقال له « ما هذا » قال « نعم يا أمير المؤمنين انه تعمد حل ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف » فقال عمر « قد اقررت على نفسك فاما ان ترضي الرجل واما ان اقيده منك فآمره بهشم انفك كما فعلت » فقال « وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك » فقال « الاسلام جمعك واياه فلست تفضله الا بالتقى والعافية » فلم ير جبلة مخرجاً من حكم عمر الا بالفرار فهرب الى القسطنطينية ولم يرجع الى بلاد العرب . ومثلها حكاية القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص فذهب الى عمر بن الخطاب في المدينة فاستعاذ به فبعث عمر الى عمرو فاستقدمه وابنه فلما جاء أعطى الخليفة الى القبطي سوطاً وأمره ان يضرب ابن عمرو فضربه وأراد ان يضرب اباه عمرًا فقال عمرو « انما ابني الذين ضربه » فقال له « يا عمرو مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارًا »

ولا يخفى ما كان لهذه المناقب من التأثير في تعجيل الفتح لان اهل الشام والعراق ومصر كانوا يشكون من استبداد حكامهم فيهم واحتقارهم اياهم فلما علموا

بعدل المسلمين ورفقهم مالوا اليهم

(١١) استبقاء الناس على أحوالهم : كان العرب اذا فتحوا بلداً اقروا اهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرضون لهم في شي من دينهم او معاملاتهم او احكامهم المدنية والقضائية او سائر احوالهم . كذلك فعلوا بمصر لما فتحها عمرو بن العاص فانه جعل امور الاقباط لانفسهم يحكم في مصالحهم قضاة منهم . وفعلوا مثل ذلك في معظم ما فتحوه من البلاد

فكان فتحهم في بادئ الرأي عبارة عن احتلال كما سترى . وكان ما يأخذونه من الجزية ثمناً لحمايتهم . وكان الروم قد تعودوا اداء مثل هذا المال للعرب المقيمين في حدود الشام من الغساسنة وغيرهم يبتاعون به نصرتهم على الفرس كما كان الفرس يؤدون المال الى عرب العراق لينصروهم على الروم . ولا تزال الدول الكبرى تعطي مثل هذا المال الى القبائل المجاورة . والدولة العلية تفعل ذلك ويسمون هذا العطاء اليوم « خوة » . واما العرب فقد اشترطوا مع دفع المال الخضوع لهم عملاً بنص الآية « حتى يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون » وكانوا مع ذلك يتعهدون بحماية الذين يدفعون الجزية . والغالب ان يراد بها حماية اهل البلاد الاصليين من حكامهم الروم لانهم كانوا يريدون الخروج من طاعتهم وهم يخافون سطوتهم

وترى ذلك واضحاً في كلام عبادة بن الصامت للمقوقس حاكم مصر ولسائر القبط لما دعاهم الى الاسلام فقد قال لهم « وان ابيتم الا الجزية فأدوها الينا عن يد وانتم صاغرون وان نعاملكم على شيء نرضى به نحن وانتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ... الخ » . ومثله كتاب خالد بن الوليد الى ابن نسطونا في العراق وغيره من كتب العهود لاهل الذمة وهي كثيرة

ويؤيد ذلك ان المسلمين لما دُعوا الى الاجتماع في اليرموك وكانت حمص في ذمتهم ردوا الى أهلها ما كانوا اخذوه منهم من الجزية وقالوا « قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » فقال أهل حمص « لولايتكم وعدلكم احبُّ الينا مما كنا فيه

من الظلم والضيم واندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » . وكثيراً ما كانوا يعفون غير المسلمين من الجزية اذا تعهدوا بالقتال معهم واكثر ما يكون ذلك مع العرب النصارى . ولكنه وقع غير مرة مع غير العرب كالجراجمة وغيرهم كما تقدم

فلم يكن استيلاء المسلمين ثقيلاً على الناس بل كان الاهالي كثيراً ما يفضلونهم على حكامهم الاصليين . والجزية التي كانوا يتكافون دفعها الى المسلمين أقل كثيراً من مجموع الضرائب التي كانوا يؤدونها الى الروم أو الفرس

﴿ الخلاصة ﴾ : وجملة القول ان المسلمين لم يجرئهم على الفتح ويساعدهم عليه الا الدين وصحة الاعتقاد بالنصر مع ماكان من مهارتهم في الفروسية ورمي النبال وقوة أبدانهم ونشاطهم من عيشة البداوة مع المطاولة في الحرب ونبوغ افراد منهم في الرأي والشجاعة مع عدلهم وقسطهم ورفقهم واختلال حال الروم والفرس — فلم تمض بضع عشرة سنة حتى فتحوا الشام وفلسطين ومصر والعراق وفارس في زمن عمر بن الخطاب وتواصل الفتح في ايام عثمان بن عفان ومن بعده

(ش ٦) صورة تمثل الخليفة عمر بن الخطاب
(عند قدومه الى بيت المقدس على جمله وقد خرج الناس لاستقباله واستعطافه)

(١١)

عود الى الخلفاء الراشدين

﴿ الفتنة ﴾ : وفي زمن عثمان حصلت الفتنة التي تمكنت بقتله سنة ٣٥ ﻫ فغيرت طور التاريخ الاسلامي . وسببها ان عمر لما طعنه ابو لؤلؤة سنة ٢٣ ﻫ وأحس بدنو الاجل سمى نفراً من الصحابة فيهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وأوصاهم ان يجتمعوا في بيت عائشة زوج النبي ويختاروا واحداً منهم يتولى الخلافة بعده . فاختاروا عثمان بن عفان وهو من بني أمية واكبرهم سناً

وكان بنو أمية اكثر بطون قريش عدداً وقوة ولكن اكثرهم لم يعتنقوا الاسلام الا بعد فتح مكة وبعد ان اسلم ابو سفيان زعيمهم . فلم يكن لهم جهاد في الغزوات التي قامت عليها دعائم الدولة الاسلامية . فلما تولى أبو بكر لم يولهم الاعمال . وربما كان السبب في ذلك انه لم يكن يثق بصدق اسلامهم لحداثة عهدهم فيه أو لانهم اسلموا مضطرين . فطالبوه بذلك فقال لهم « ادركوا اخوانكم في الجهاد » وانفذهم لحروب الردة ثم بعثهم عمر لحروب الشام . وهم مع ذلك يرون انهم أولى بطون قريش بالسلطة لانهم اعز من بني هاشم جانباً واكثر عدداً وكانت القيادة في الحرب اليهم كما رأيت في كلامنا على مصالح الجاهلية . وزاد نفوذهم بعد موت أبي طالب عم النبي . وبين الهاشميين والامويين منافسة متصلة بزمن الجاهلية

فلما تولى عثمان بن عفان اعتزوا به وكان رجلاً صالحاً ولكنه كان يؤثر أقرباءه فجعل يوليهم الاعمال في الامصار ويعهد اليهم بمصالح الدولة . فشق ذلك على الصحابة الذين كانت الاعمال اليهم من قبل وحدثت أسباب أخرى يطول شرحها آلت الى نقمة أهل الامصار على عثمان فجاؤا المدينة وفيهم أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة وطلبوا اليه ان يخلع نفسه فأبى فقتلوه وهو يقرأ القرآن فتلطخ قميصه بالدم . ومهما يكن في عملهم هذا من خرق حرمة الخلافة فانه دليلٌ صريح على ما كان العرب فيه من الانفة والحرية الشخصية وعلو الهمة

فلما قتل عثمان اختلفوا في من يخلفه وكان غرض أهل مصر في علي وغرض أهل

البصرة في طلحة وغرض أهل الكوفة في الزبير -- وهؤلاء هم أطمع الصحابة في الخلافة وكان اكثر مسلمي الشام من بني أمية وهم يريدونها لعثمان او من يخلفه منهم . وأما أهل المدينة فقد كانوا يريدونها لعلي بن ابي طالب جرياً على عادتهم في نصرة بيت النبي منذ هاجر النبي اليهم . وانضم الى أهل المدينة في نصرة علي ربيعة ويمن وغيرهما . فكان دعاة علي اكثر عدداً من سائر الاحزاب ولكنهم كانوا لفيفاً من قبائل شتى واكثرهم من أهل المدينة -- وبين أهل مكة والمدينة منافسة قديمة تمكنت بعد الاسلام لما رأيته من نصرة أهل المدينة للمسلمين بعد الهجرة حتى تأيد أمرهم بهم وعادوا ففتحوا مكة وصارت المدينة عاصمة المسلمين وتحولت اليها التجارة والنفوذ وضعف أمر مكة كما تقدم . فلما بايع أهل المدينة علياً بايعه أيضاً طلحة والزبير مكرهين . ثم خرجا الى مكة فنصرهما أهلها نكاية في أهل المدينة . ثم خرجا الى العراق للاعتزاز باحزابهما هناك فتبعهما علي بجنده فجرت بين الجيشين واقعة الجمل الشهيرة بجوار البصرة فقتل فيها طلحة والزبير وخلصت الخلافة لعلي . فنقل عاصمة المسلمين من المدينة الى الكوفة . وقد أخطأ في تخليه عن أحزابه بالمدينة واعتماده على أهل العراق

وظن عليّ ان الجو قد خلا له وما درى ان في الشام رجلاً عظيماً يطلب البيعة لنفسه نعني به معاوية بن أبي سفيان . وقد رأيت ان أبا سفيان واولاده لم يعتنقوا الاسلام الا لما يئسوا من الفوز . فلم يكن معاوية يتطلب الخلافة الا رغبة في الدنيا . فلما قتل عثمان كان معاوية في الشام وحوله نخبة الرجال من قريش وكلهم يستهلكون في سبيل نصرته لما قدمناه من كثرة بني أمية وقوتهم من أيام الجاهلية . وقد شقّ عليهم من الجهة الأُخرى ان تكون النبوة في بني هاشم فازدادوا نقمة . ولما خرج بنو هاشم من مكة بالهجرة خلا الجو في مكة لبني أمية وصارت الرئاسة اليهم في اثناء محاربتهم المسلمين في وقائعهم المشهورة في بدر وغيرها ورئيسهم في كل ذلك أبو سفيان والد معاوية . ولما تولى أبو بكر وأرسلهم للجهاد تولى ولاية الشام منهم يزيد بن أبي سفيان ثم مات فخلفه أخوه معاوية في زمن عمر فلما تولى عثمان اقره عليها ومعظم جنده من

قريش . فاتصلت رئاسة بني أمية — وخصوصاً بيت أبي سفيان — على قريش في الاسلام كما كانت قبله واشتغل بنو هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا

فلما قتل عثمان رأى معاوية سبيلاً لالتماس الخلافة فعرض قميص عثمان الملطخ بالدم في جامع دمشق ودعا الناس للمطالبة بثأره لانه من رهطه واتهم علياً وأصحابه بقتله . ثم رأى الحرب منتشبة في العراق بين علي وطلحة والزبير فظن هذين يكفيانه مؤونة الحرب . فلما قتلا وفاز عليٌ تصدى معاوية للمطالبة بدم عثمان واستنجد رجالاً من دهاة العرب ينظرون في الاسلام نظرهم الى مصالح الدنيا وفيهم عمرو بن العاص وكان عثمان قد عزله عن مصر فاستدناه معاوية ووعده بولاية مصر اذا هو فاز . فحارب معه في واقعة صفين الشهيرة سنة ٣٧ هـ وكادت رجال علي تظفر بمعاوية وأصحابه فيها فاستنبط ابن العاص حيلة أخرجت الخلافة من أهل البيت الى بني أمية — ذلك انه أمر رجال معاوية برفع المصاحف على اسنة الرماح اشارة الى طلب الهدنة للمخابرة . فانخدع اصحاب علي بذلك فالحوا عليه ان يوقف القتال ففعل . وبعد المخابرة توافقوا على التحكيم . فاختار كلٌ من الفريقين رجلاً وعمرو احد الرجلين عن معاوية فاختار أصحاب علي أبا موسى الاشعري وشتان بين الرجلين بالدهاء والذكاء . ورضي الفريقان بما يحكم هذان وعينوا يوماً لسماع الحكم . فاحتال عمرو على أبي موسى حيلة غلب بها على عقله فاظهر انه يريد خلع علي ومعاوية معاً ليختار المسلمون واحداً سواهما . فقبل أبو موسى بذلك ولكن عمراً كلفه ان يتكلم قبله لانه ارفع منزلة واكبر سناً . فانخدع أبو موسى فوقف وقال « أيها الناس انّا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألمّ لشعثها من أمر اجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو ان نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا واني قد خلعت علياً فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه أهلاً »

ثم وقف عمرو وقال « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وانا اخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه وليُّ عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه » فلما سمع الناس ذلك أيقنوا انها حيلة قد انطلت . ولو انها آلت الى خلافة معاوية فقط لهان امرها ولكنها أوجبت انقسام رجال علي عليه . لان بعضهم لاموه على قبول

التحكيم وخرجوا من حكمه وهم الخوارج فأصبح عليٌّ بين عدوين والخوارج اشدهما خطراً عليه لانه قتل بطعنة من أحدهم خاسة في السنة ٤٠ للهجرة في مسجد الكوفة

فبايع أهل الكوفة ابنه الحسن ومعاوية لايزال يطالب بالخلافة لنفسه . فرأى الحسن انه لايقوى على حربه فتنازل له عنها حجباً للدماء فبويع معاوية في الشام وانتقلت كرسي الخلافة من الكوفة الى دمشق . وكان ذلك آخر العهد بدولة الخلفاء الراشدين

﴿ زمن الخلفاء الراشدين ﴾ وترى مما تقدم ان دولة الخلفاء الراشدين تأسست على التقوى وشيدت بالعدل وخلفاؤها في ابسط أحوال العيش . وكانت الخلافة على عهدهم أشبه بالرتب الدينية منها بمصالح الدولة وكان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ (الكرباس القطن الابيض) وفي رجليه نعلان من ليف وحمائل سيفه ليف ويمشي في الاسواق كبعض الرعية . واذا كلم أدنى الناس سمع منه أغلظ من كلامه . وكانوا يعدون هذا من قبيل الدين ويحكمون الناس بالتقوى والعدل والقدوة الحسنة

وكان طعامهم أدنى اطعمة فقرائهم . وهم لم يتقللوا منه لفقر ولا عجز ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة للفقراء من رعيتهم . فقد كان لعلي بن أبي طالب ارتفاع طائل من املاكه يخرجه جميعه على الفقراء

ولم يكونوا يعبأون بالمال . وكان ذلك شأن سائر الصحابة في ايامهم . ولعل السبب في ذلك قربهم من عهد النبوة ولا تزال رهبتها آخذة بمجامع قلوبهم فلما بعد عهدها زالت تلك الرهبة من قلوبهم فعكفوا على مطالب الدنيا . ويظهر ان ذلك بدأ فيهم في أواخر عهد الراشدين . فقد ذكر المسعودي « انه في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال . فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة الف دينار وألف الف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة الف دينار وخلف ابلاً وخيلاً كثيرة . وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار وخلف الف فرس والف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق الف دينار كل

يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين الفاً . وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة الف دينار . وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية . وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرافات . وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلي بن منبه خمسين الف دينار وعقاراً وغير ذلك ماقيمته ثلثمائة الف درهم » اه

وكانت مدة حكمهم نحو ثلاثين سنة اتسعت فيها الفتوح الاسلامية حتى بلغت خيل العرب من افريقيا في الغرب الى أقاصي خراسان في الشرق وعبرت النهر الى سمرقند

(١٢)
دولة بني أمية

بيناً في اواخر كلامنا عن الخلفاء الراشدين كيف انتقلت الخلافة الى بني أمية وأولهم معاوية بن ابي سفيان . وتمتاز الخلافة في عهد بني امية بأنها سلطنة دنيوية يحكمها خليفتها بالدهاء والسياسة ويستدني الناس بالارهاب ويؤيد سلطانه ببذل الاموال . والسبب في ذلك ان مؤسس هذه الدولة لم يتطلب الخلافة طمعاً بالآخرة كما قد رأيت . ولعله لم يستطع تأييدها لولا ما في الشام من الخير الكثير والاموال الطائلة . فلما خلصت له الخلافة عمد الى التوسعة على الناس ببذل الاموال . وكان يبذلها خصوصاً لبني هاشم تخفيفاً لما في أنفسهم من النقمة عليه لاستخراجه الخلافة من ايديهم وكان اذا وفد احدهم عليه بالغ في اكرامه وارضائه وقضاء حوائجه . وكثيراً ما كانوا وهم في حضرته يذكرون حقهم بالخلافة ويعرضون باختلاسه اياها وهو يغضي عن ذلك ويقطع السنتهم بالمال والحلم مما هو مأثور عنه

واقتبس معاوية من الروم أسباب البذخ ودواعي الترف وقلدهم في ابهة الملك فأقام الحرس وهم الحشم يحملون الحراب ويقومون بين يديه اذا مشى او قام للصلاة . وبنى لنفسه قصراً نصب فيه السرير واوقف الحاجب ببابه وبنى مقصورة في المسجد اذا جاء للصلاة صلى فيها . ولعله اتخذ هذه الوسائل خوفاً من ان يغتاله احد كما اغتالوا علياً وكادوا يغتالونه هو . وقلد الروم بلبس الخز والديباج . وهو الذي وضع البريد على مثال ما كان عند الفرس والروم وديوان الخاتم مما سيأتي تفصيله

ومما استحدثه معاوية في الاسلام انه جعل الخلافة ارثية في نسله بعد ان كانت انتخابة . وهو اول من فعل ذلك من المسلمين فبايع لابنه يزيد وحمل الناس على بيعته بولاية العهد — ولا عبرة في بيعة الحسن بعد أبيه علي فان الناس بايعوه من عند أنفسهم ولم يوص له ابوه بالخلافة

﴿ ما الذي ساعد بني أمية على الخلافة ﴾ ولا بد من النظر في الاسباب التي اعانت معاوية على اخراج الخلافة من أهل بيت النبي وحصرها في قبيلته وهو وكل الذين بايعوه يعتقدون ان اهل البيت احق بها منه . والاسباب عديدة ذكرنا بعضها في ما تقدم . ومنها أيضاً ان معاوية استخدم في شد ازره رجالاً هم اشهر دهاة الاسلام استدناهم اليه بالاطماع . منهم عمرو بن العاص فقد اطمعه بمصر فساعد على مبايعته كما قد رأيت . ومنهم زياد بن أبيه وهو رجل لا يعرف ابوه ولكنه ذو دهاء وسياسة فانتحل معاوية حكاية استلحقه بها بنسبة وزعم انه اخوه من ابيه ابي سفيان وسماه زياد ابن ابي سفيان . فكان زياد هذا من اكبر اعوان معاوية وله فضل كبير في تأييد هذه الدولة في العراق وغيره . وابنه عبيدالله بن زياد هو الذي قتل الحسين بن علي قتلته المشهورة على يده . وما زال آل زياد يعدون من قريش حتى رد نسبهم الخليفة المهدي (١٥٩ هـ) الى رجل اسمه عبيد الرومي من ثقيف . وممن استخدمهم معاوية في تأييد خلافته المغيرة بن شعبة وهو الذي شجعه على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة وحصر الخلافة في نسله وساعده أيضاً في استدناء زياد بن أبيه

والمؤرخون يعدون هؤلاء الاربعة اعظم دهاة العرب ومن ذلك قول أحدهم

« ما رأيت أثقل حلماً ولا اطول اناة من معاوية . ولا رأيت اغلب للرجال ولا ابذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص . ولا اشبه سراً بعلانية من زياد . ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية ابواب لا يخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من أبوابها كلها »

ومما ساعد معاوية على الفوز ان علياً لم يكن يرى الاحتيال في الملك ولا يعرف الدهاء في السياسة — يدلك على ذلك ما فرط منه من هذا القبيل لما بويع بعد مقتل عثمان . فجاء المغيرة يومئذ وأشار عليه باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة وسائر العمال كما كانوا في زمن عثمان حتى يستتب له الامر وتجتمع على بيعته القلوب وتتفق الكلمة ثم يفعل بعد ذلك ما شاء — وهو رأي رجل حازم . فعده علي من قبيل الغش فلم يعمل به ونصحه أيضاً مثل هذه النصيحة ابن عمه عبد الله بن عباس فأبي . فلما رأى المغيرة ضياع نصيحته معه عمد الى مسايرته فعاد اليه في الغداة وحسن له ما رآه . ولو عمل علي برأي المغيرة وابن عباس لما نقم هؤلاء عليه ولا خرج المغيرة ولا غيره من احزابه ولا كانت واقعة الجمل ولا صفين ولا آل الامر الى بني أمية

وهناك عامل ذو تأثير عظيم استخدمه معاوية وسائر بني أمية في تأييد سلطانهم نعني به « المال » فقد كانوا يصطنعون به الاحزاب ويستدنون به الاعداء . فيبذلونه للشعراء والوافدين ففازوا به على علي بن ابي طالب واولاده واحفاده . على حين ان هؤلاء كانوا يعدون استخدام المال في هذا السبيل رذيلة يجلون انفسهم عنها ويعتقدون ان الحق وحده يكفي لتأييد دعوتهم . وقد صح زعمهم هذا في أوائل الاسلام والناس في دهشة النبوة قبل ان غلبت عليهم اهواؤهم . فلا نظن أهل الكوفة نكثوا بيعة الحسين الا بالمال حتى آل الامر الى قتله فكانهم قتلوه بالمال . وهم لم يقتلوا عبد الله بن الزبير الا بالمال . ولو بذل عبد الله هذا المال مثلهم لكانت الخلافة في نسله وليس في بني امية . ولكنه استنكف ان يعطي الناس من أموال الكعبة فأضر بنفسه . وقد صرح بذلك خصمه عبد الملك فقال وهو على فراش الموت « ما اعلم احداً أقوى على هذا الامر (الخلافة) مني — ان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام لكنه لبخله لا يصلح للسياسة »

وكان أخوه مصعب بن الزبير مع ذلك ينفق الاموال الطائلة على نفسه وأهله . حتى انه بذل مليون درهم في زواج سكينة بنت الحسين . وكان الجند في ضيق يطلبون مالاً ولا يعطى لهم . فكتب عبد الله بن همام الى عبد الله بن الزبير يقول :

بلغ أمير المؤمنين رسالة * من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف الف كامل * وتبيت سادات الجنود جياعا
لو لابي حفص اقول مقالتي * وأبثُّ ما أبثكم لارتاعا

وقد كان عبد الملك من أكثر بني أمية بذلاً للمال في سبيل تأييد سلطانه . فان عامله الحجاج بن يوسف لما حاصر الكعبة وفيها ابن الزبير امر رجاله ان يرموا الكعبة بالمنجنيق فتهيبوا فجاء بكرسي وجلس عليه وقال « يا أهل الشام قاتلوا على اعطيات عبد الملك » ففعلوا

وكثيرًا ما كان عبد الملك يردُّ اذى الاحزاب عنه بالمال ينثره على الناس فيشتغلون به عنه . ومن ذلك ما اتفق له مع عمرو بن سعيد بن الاشدق لما طمع بالشام دونه وخافه عبد الملك على نفسه فأمنه واحتال في استحضاره الى ديوانه وقتلهُ غدرًا . ثم علم أصحابه بمقتله فتجمهروا حول المجلس وخاف عبد الملك العاقبة فأمر رجلاً ان يرمي رأس عمرو الى الناس وأخذ ابنه عبد العزيز المال في البدر وجعل يلقيها اليهم . فلما رأى الناس الرأس والاموال اشتغلوا بالاموال وتفرقوا

وكان للمال تأثير أعظم من ذلك في أيام العباسيين فان سلطانهم كان يقوى او يضعف بنسبة ما يبذله الخليفة من الاموال للجند . وخصوصاً لما استبد الاتراك في أمور الدولة فكانوا يبيعون نصرتهم بالمال . وكانوا اذا تولىَّ خليفة طالبوه بحق البيعة وقد يفرضون عليه رزق سنة او غير سنة

ومن الاسباب التي أيدت سلطان بني أمية انهم كانوا يعتمدون في تأييده على الدهاء والسياسة والحزم ولو كان فيها خرق لحرمة الدين او اهانة لاهله . فانهم قتلوا ابن بنت النبي وضربوا الكعبة بالمنجنيق ولعنوا ابن عم النبي وصهره على المنابر

وقتلوا من لم يلعنه ونحو ذلك

﴿ خلفاء بني أمية ﴾ قلنا ان معاوية جعل الخلافة وراثية في نسله ولكنها لم تتعدَّ اولاده ولم يخلفه منهم الاَّ يزيد الذي بويع بولاية العهد بحياته ولم يحكم الاّ بضع سنين ارتكب في اثنائها أمورًا كبارًا في جملتها مقتل الحسين بن علي . ولما مات يزيد اختلف الناس على البيعة وكان له ابن اسمه معاوية (الثاني) ولوَّه وهو يرى الخلافة ليست حقاً لهم فمات بعد قليل . فبايع بنو أمية شيخاً أموياً من غير بيت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ — تولى الخلافة بضعة أشهر ومات ثم انحصرت الخلافة في نسله وكل خلفاء بني أمية بعده من ولده . اشهرهم عبد الملك بن مروان المتقدم ذكره تولاها من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ

ولعبد الملك ذكرٌ حسن في تاريخ التمدن الاسلامي لانه عمم اللغة العربية في دواوين الممالك الاسلامية وكانت لا تزال الى ايامه تكتب بلغات اهلها ويتولاها أناس من الوطنيين — فالديوان المصري كان يكتب بالقبطية ويتولى اعماله جماعة من قبط مصر . والشامي كان يكتب باليونانية وأموره بايدي اناس من نصارى الشام . والعراقي بالفارسية ويكتبه بعض أهل العراق . فامر عبد الملك ان تكون كلها بالعربية وسلم مقاليدها الى المسلمين . ولا يخفى ما كان لهذا العمل من التأثير العظيم في تأييد الدولة الاسلامية لانه جعل اللسان العربي لسانًا عاماً في سائر انحاء المملكة فاصبح اهلها بتوالي الاجيال وقد نسوا جنسياتهم وصاروا يعدون انفسهم عرباً . وساعده على ذلك ان العربية هي لغة الدين أيضاً

ومن أعمال عبد الملك انه ضرب النقود الذهبية بالعربية ونقل الطراز من الرومية الى العربية وسيأتي تفصيل ذلك . وكان عامل عبد الملك على العراق الحجاج ابن يوسف المشهور بدهائه وغلظته فكان نصيرًا له على تأييد دولته فحارب عبد الله ابن الزبير وكان هذا يدعو الناس الى بيعته دون بني امية فحصره الحجاج في مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ثم قتله واستخلص الخلافة لعبد الملك

ومن أشهر خلفاء بني أمية عمر بن عبد العزيز بن مروان (حكم سنة ٩٩—١٠١ هـ)

وكان أقربهم جميعاً الى سيرة الخلفاء الراشدين ولعله كان كذلك لقرابته من عمر بن الخطاب لانه ابن حفيدته . فلما تولى الخلافة جعل جده عمر قدوته بالزهد والعدل وكان بنو أمية منذ جاهروا بطلب الخلافة فرضوا لعن علي على المنابر فرأى عمر ان ذلك لايوافق روح الاسلام فأمر بابطاله فلم تقع اعماله هذه موقعاً حسناً لدى بني أمية وخصوصاً لانه منعهم من اقتناء الاملاك وكان عمر بن الخطاب قد نهاهم عن ذلك فلم يسمعوا فاعاده هو فخافوا اذا طال حكمه ان يخرج الخلافة منهم فعجلوا به

وخلفه عمه يزيد بن عبد الملك وكان من أهل اللهو والخمر والغناء فشغل عن مصالح الدولة بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة وتسلطت حبابة على عقله وقلبه فاصبحت المملكة طوع ارادتها تولي من شاءت وتعزل من شاءت وهو لايعرف من أمور الدنيا شيئاً . فلامه أخوه مسلمة وقال له « توليتَ هذا الامر بعد عمر ابن عبد العزيز وعدله فتشاغلت بهذه الجارية عن النظر في الامور والوفود ببابك وأصحاب الظلامات يصيحون وأنت غافل عنهم » فتأثر لقوله وقال «صدقت» وهمّ بترك الشرب ولم يجتمع بحبابة أياماً . فاشتاقت هي له فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها « ان خرج أمير المؤمنين الى الصلاة فاعلميني » فلما أراد الخروج أعلمتها فتلقته والعود في يدها وغنت :

ألا لا تلمه اليوم انَ يتبلدا ✽ فقد غلب المحزون ان يتجلدا

فغطى يزيد وجهه وقال « مه لا تفعلي » ثم غنت :

فما العيش الا ماتلذ وتشتهي ✽ وان لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتمالك ان عدل اليها وقال «صدقت والله . . قبح الله من لامني فيك . . ياغلام مر مسلمة ان يصلي بالناس » وأقام معها يشرب وتغنيه وعاد الى ما كان عليه

وما زال يزيد في ذلك حتى مات بعد موتها حزناً عليها . وخبر موتهما انه نزل ببيت رأس بالشام ومعه حبابة وقال في نفسه « زعموا انه لا تصفو عيشة لاحد يوماً الى الليل الا يكدرها شيء عليه وسأجرب ذلك » ثم قال لمن معه « اذا كان غد فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب » وخلا هو وحبابة وأتيا بما يأكلان ويشربان . فاكلت

حبابة رمانة فشرقت بحبة منها فماتت . فأقام يزيد ثلاثة أيام لا يدفنها حتى تغيرت وانتنت وهو يشمها ويرشفها ولم يتركها حتى عابه أهله وعاتبوه فاذن بدفنها ولم يعش بعدها الا خمسة عشر يوماً فمات ودفن الى جنبها سنة ١٠٥ ه

وتولى الخلافة بعده أخوه هشام (من سنة ١٠٥—١٢٥ ه) وكان غزير العقل لكنه كان بخيلاً — والبخل في دولة تأسست بالكرم مضرّ — وخلفه الوليد بن يزيد وكان قبل الخلافة منهمكاً في اللهو والشرب والغناء مثل أبيه وله أشعار فيها . فلما افضت الخلافة اليه زاد انهماكاً في اللذات واستهتارا بالمعاصي وزاد على ذلك انه اغضب أهله وأساء اليهم فهجموا عليه مع اعيان رعيته فقتلوه وبايعوا يزيد بن الوليد ابن عبد الملك وكان عاقداً النية على اصلاح الاحوال ولكن الامر كان قد استفحل واضطرب حبل بن أمية وبدأت الدعوة العباسية وفي أيام خلفه مروان بن محمد بن مروان خرجت الخلافة من أيديهم سنة ١٣٢ ه

دولة بني العباس

﴿ الدعوة العباسية ﴾ قلنا في عرض كلامنا عن خلافة أبي بكر ان المسلمين لم يشاؤا ان يجمعوا في بني هاشم النبوة والخلافة فبايعوا غيرهم من قريش . واما بنو هاشم فكانوا يعدون ذلك عدولاً عن الحق وانهم أولى الناس بذلك الامر وجعلوا يسعون في سبيله . والهاشميون المطالبون بالخلافة اصناف . منهم العلويون من ابناء علي بن أبي طالب وهم فئتان احداهما تدعو لنسل فاطمة الزهراء والاخرى تدعو لمحمد بن الحنفية (ابن علي من غير فاطمة) . ومنهم العباسيون سلالة العباس عم النبي . وكان كل من هؤلاء يدعو الناس الى نفسه والناس يبايعونهم سرًّا ولا يستطيعون الظهور . فلما ظهر ضعف بني أمية واضطرابهم هان على الناس الخروج من طاعتهم وخصوصاً لانهم لم يخضعوا للامويين الا طمعاً أو خوفاً لاعتقادهم ان بني هاشم أولى بالخلافة

وتوفق العباسيون يومئذ الى رجل فارسي من أهل خراسان ذي بطش وبسالة اسمه

أبو مسلم الخراساني فانفذوه في طلب البيعة لهم في خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الاموية فتوفق الى ذلك توفيقاً عجيباً . فحارب وجاهد حتى أدنى الخلافة لبني العباس وسلم ازمتها الى السفاح أول خلفائهم سنة ١٣٢ هـ ولابي مسلم فضلٌ في تأسيس الدولة العباسية أعظم من فضل عمرو بن العاص في خلافة معاوية . لان عمراً نصر معاوية برأيه واما أبو مسلم فانه نصر العباسيين بسيفه وقومه

﴿ الدولة العباسية ﴾ مهما قيل في دولة بني أمية فانها تمتاز عن دولة بني العباس بأنها عربية حقيقية لان عمالها وقضاتها وسائر رجالها كانوا عرباً الا بعض الكتبة والاطباء ونحوهم . وأما بنو العباس فقد غلب في دولتهم العنصر الفارسي لان الفرس هم الذين سلموا اليهم مقاليد الاحكام كما رأيت فاتخذوا منهم الوزراء وهم اول من اتخذ الوزراء — اقتبسوا هذا المنصب من الفرس كما سيأتي

أول خلفائهم ابو العباس السفاح وكان له عدة اخوة واعمام استخدمهم في تأييد سلطانه . وكان مقر السفاح في الانبار على الفرات غربي بغداد وما زال فيها حتى مات ولم يحكم الا بضع سنين فخلفه اخوه ابو جعفر المنصور سنة ١٣٦ — ١٥٧ هـ وهو من أعظم رجال الاسلام دهاءً وسياسة وشجاعة . بنى مدينة قرب الكوفة سماها الهاشمية ثم اتفق له فيها حرب مع جماعة يقال لهم الراوندية فكرهها لذلك ولقربها من الكوفة وكان يخاف اهل الكوفة لانهم قتلوا علياً والحسين . فخرج منها وبنى مدينة بغداد وهي اشهر عواصم الاسلام . ثم رأى ان بقاء أبي مسلم يجعل مركزه في خطر لانه أقدر الناس على اخراج عصا الملك من أيدي العباسيين كما سلمها اليهم فقتله غيلة وعذره في ذلك انه كان عقبة في سبيله فازالها . كما فعل محمد علي باشا بالامراء المماليك وكما فعل السلطان محمود الثاني بالانكشارية بعد ذلك بأحد عشر قرناً

وأيام المنصور كلها حروب وفتوح وخلفه ابنه محمد المهدي ثم موسى الهادي فهارون الرشيد ثم ابنه الامين فالمأمون . وفي أيام الرشيد والمأمون بلغت الدولة العباسية أبان مجدها ومعظم سلطانها وزهت فيها العلوم والمعارف وترجمت الكتب وتفجرت

ينابيع الثروة مما سنأتي على تفصيله في اماكنه

قتل المنصور ابا مسلم الخراساني خوفاً من طمعه بالسلطة وهو فارسي ولكنه استخدم في بلاطه رجالاً من الفرس . وفعل مثله خلفاؤه وقدموهم في مصالحهم ومنها الوزارة وهي ارفع مناصب الدولة عندهم . فآل ذلك الى استفحال أمرهم في أيام الرشيد وهم البرامكة . فلما رآهم الرشيد يستبدون بمصالح الدولة دونه نكب بهم كما هو مشهور

وخلف المأمون المعتصم بالله سنة ٢١٨ ه فاكثر من استخدام الاتراك . وكان صبيان الاتراك يحملون الى بلاط الخلفاء في أوائل الدولة العباسية هدايا من عمال الامصار في تركستان . وكان الخلفاء ينتقون أحسنهم خلقاً واقواهم بنية لاستخدامهم في بلاطهم وكانوا يسمونهم المماليك

ثم جعل الخلفاء يكثرون من اقتنائهم و يفاخرون بكثرتهم حتى بلغ عددهم على عهد المعتصم بضعة وعشرين الفاً . وكانوا قد اعتنقوا الاسلام وتعلموا وتثقفوا فظهرت مواهبهم فولاهم الخلفاء كثيراً من مصالح الدولة . وما زالوا يرتقون بحسب اقتدارهم حتى اتصلوا الى اعلى مناصب الامارة والجند فاصبحت مقاليد السلطة تتنازعها قوتان متوازنتان الترك والفرس

وكان المعتصم قد اصطنع قوماً من أهل الحوف بمصر (الشرقيـة والدقهلية) واستخدمهم في جنده وسماهم المغاربة . وجمع خلقاً من سمرقند واشروسنة وفرغانة سماهم الفراغنة فكانوا من أصحابه وحاشيته . فضلاً عما كان عنده من الجند العربي . واصطنع غيره بعده أناساً آخرين من أمم أخرى فتعددت العناصر وكثرت الايدي الاجنبية المعترضة فآل ذلك الى ضعف الخلفـاء واستبداد العمال في الولايات واستقلالهم رويداً رويداً . وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى وسعها السواد بين الفرات ودجلة ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت في مدينة بغداد ولم يكن سلطانهم فيها تاماً . واليك اقسام المملكة الاسلامية على عهد الراضي بالله في الربع الاول من القرن الرابع للهجرة :

الولايات		حكامها
البصرة	في يد	ابن زائق
خوزستان	«	البريدي
فارس	«	عماد الدين بن بويه
كرمان	«	ابي علي محمد بن الياس
الري واصفهان والجبل	«	ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضر وربيعة	«	بني حمدان
مصر والشام	«	الاخشيد
خراسان وما وراء النهر	«	السامانية
طبرستان وجرجان	«	الديلم
البحرين واليمامة	«	القرامطة

ومما زاد الامر استفحالاً ان الخدم والاجناد اصبحوا مطلوقي الايدي في قصور الخلفاء يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء اصناف الاهانة وأنواع العذاب كما فعل جند المغاربة والاتراك في المعتز سنة ٢٥٥هـ لما خلعوه لانه قصر في عطائهم. فانهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه واوقفوه في الشمس فكان يرفع رجلاً ويضع الاخرى لشدة الحر. وبقي بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده. وادخلوه حجرة واحضروا ابن ابي الشوارب القاضي وجماعة فاشهدوهم على خلعه ثم سلموا المعتز الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة ايام. ثم ادخلوه سرداباً وجصصوه عليه فمات ...

ومع كل ما لحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للاتراك ولا المغاربة ولا الفراغنة ولا لغيرهم من غير عرب قريش ان ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس

وما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها

وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦ هـ ففر من بقي من أهله الى مصر والتجأوا الى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة الى ان فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم . و بلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعاً نيفاً وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق أولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون في مصر

الدولة الاموية في الاندلس

أول من دخل بلاد الاندلس من المسلمين طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ في عهد الدولة الاموية بالشام فافتتحاها وتولاها الامراء باسم الخلفاء الامويين . فلما أفضت الخلافة الى بني العباس واعمل ابو العباس السفاح السيف في بني أمية قتلهم جميعاً الا شاباً اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك فانه نجا وفرّ الى بلاد المغرب وأجاز البحر ودخل الاندلس وكان عليها أمير اسمه عبد الرحمن بن يوسف الفهري فامتلكها منه وخطب فيها للسفاح زمناً قصيراً . ثم عزله العباسيون فقطع الدعوة عنهم ودعا لنفسه سنة ١٣٨ هـ واقام في قرطبة عاصمة الاندلس في ذلك الحين وخلفه بعده امراء كثيرون كانوا يلقبون أنفسهم بالامراء الى سنة ٣١٧ هـ اذ تولاها عبدالرحمن الثالث فسمى نفسه خليفة وهو اعظم خلفاء بني أمية في الاندلس . وحارب الافرنج مراراً وردهم على اعقابهم . فلما مات خلفه غيره وغيره وما فيهم من يعدل به . وفي القرن الخامس انقسمت الاندلس الى طوائف يتولاها رؤساء أعظمهم العبابدة عرب اشبيلية . ثم أفضى الامر العام الى العبابدة ثم اضطر هؤلاء الى استنجاد المرابطين سلاطين المغرب ليساعدوهم على دفع الافرنج فجاؤا الاندلس فأعجبتهم و بعد قليل افتتحوها فصارت ولاية تابعة لهم . ثم تناوبتها احوال مختلفة حتى صارت الى الافرنج سنة ١٤٩٢ م وكان ذلك آخر عهد المسلمين بها

وللاندلس شأن عظيم في التاريخ الاسلامي فقد نبغ فيها العلماء والشعراء وانشئت فيها المدارس والمكاتب وشيدت الابنية والقصور وسنأتي على كل شي في مواضعه

١٥

الدولة الفاطمية بمصر

نشأت هذه الدولة في بلاد المغرب . وهي تنتسب الى فاطمة بنت النبي بواسطة جعفر الصادق . واول من ظهر بالدعوة منهم عبيدالله المهدي في أواخر القرن الثالث للهجرة ولذلك فهي تسمى أيضاً العبيدية . وفي أواسط القرن الرابع امتد سلطانهم الى مصر على يد القائد جوهر وكانت مصر في حوزة العباسيين ففتحها جوهر و بنى فيها مدينة القاهرة نحو سنة ٣٦٠ هـ ولا تزال الى اليوم وسموها القاهرة المعزية نسبة الى المعز لدين الله اول من جاء مصر من الخلفاء الفاطميين . وتناوبها خلفاؤه بعده حتى أصابهم ما أصاب الدولة العباسية في بغداد من اصطناع الاعاجم من الاكراد والاتراك وغيرهم فأفضى أمرها سنة ٥٦٧ هـ الى السلطان صلاح الدين الايوبي الشهير . وللدولة الفاطمة آثار عظيمة لا تزال ظاهرة في مصر . ومنها القاهرة نفسها والجامع الازهر . وتولاها بعد صلاح الدين ابناؤه واخوته . ومن آثار صلاح الدين قلعة القاهرة وجاء بعدهم السلاطين المماليك حتى فتحها السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣ هـ

ولو أردنا تعداد الدول الاسلامية التي نشأت في العالم لطال بنا الكلام وقد نشرنا في الهلال الثاني من السنة الرابعة جدولاً بينا فيه اسماء الدول الاسلامية وذكرنا عواصمها وعدد ملوك كل منها وسني ولايتهم . وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التي ظهرت من أول الاسلام الى الآن ١٠٤ دول عدد رؤسائها ١١٩٥ وفيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والاخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام و بغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وعمان ودهلي وغيرها

هذه مقدمات تاريخية في كيفية تأسيس الدولة الاسلامية وانشاء التمدن الاسلامي تمهيداً لما سيأتي من تاريخ ذلك التمدن . وقد رأيت انهم أنشأوا دولاً كثيرة تمدنت

عصور مختلفة ولما كانت الدولة العباسية اشهرها جميعًا واسبقها الى التمدن فسنجعل ما يأتي من وصف التمدن خاصاً بها على الاكثر

المملكة الاسلامية واحصاؤها

تأسست المملكة الاسلامية في المدينة في السنة الأُولى للهجرة كما رأيت والمسلمون يعدون بالعشرات وكل ارض خارج اسوار المدينة غير أرضهم وكل رجل من غير الصحابة عدوٌّ لهم . وحدود تلك المملكة محصورة بيثرب وبعض ضواحيها . وكانت دار الامارة والقضاء يومئذ المسجد او بيت النبي او بيوت الصحابة . وما زال ذلك شأنها الى السنة الرابعة للهجرة فأضافوا اليها أرض بني النضير . وفي السنة التالية أرض خيبر ثم فدك فوادي القرى فتيماء ثم فتحوا مكة فالطائف فتبالة فجرش ثم شمالاً الى تبوك وايلة وجنوبًا الى نجران فاليمن فعمان فالبحرين فاليمامة

ولما توفي النبي سنة ١٠ للهجرة كانت سطوة الاسلام قد أظلت كل جزيرة العرب . وشاهد النبي مملكته تمتد من تبوك وايلة شمالاً الى سواحل اليمن جنوبًا ومن خليج العجم شرقًا الى بحر القلزم غربًا

فلما تولى ابو بكر وفرغ من أمر الردة بعث الجند لفتح الشام والعراق . وأتم فتحهما عمر بن الخطاب وفتح مصر وكانت اكثر الفتوح على يده . وخلفه عثمان ففتح بلاداً أخرى وشغل المسلمون عن الفتوح بعد مقتله بالفتنة التي شبت بينهم . حتى اذا انقضى عصر الخلفاء الراشدين وضع معاوية يده على أزمة الخلافة ورايات المسلمين تخفق على الشام ومصر والنوبة وافريقية والعراق وفارس وأرمينية وأذربيجان وجرجان وطبرستان والاهواز وغيرها

وكان الخليفة يقيم في المدينة (او الكوفة) ويرسل عماله الى الاعمال (الولايات) واكبر اعمال المملكة الاسلامية يومئذ الشام وتحتها اجناد حمص وقنسرين والاردن وفلسطين والثغور . ثم العراق وأعظم أعماله السواد وهو ما بين دجلة والفرات وعاصمته

الكوفة على الفرات . وما عدا السواد البصرة وقرقيسية والري واصفهان ونهاوند واذربيجان وحلوان وحمدان ومازادان . وفي بلاد العرب مكة والطائف والبحرين وعمان وصنعاء وفي قارة افريقيا مصر وما يتبعها من افريقية في بلاد المغرب والنوبة في أعالي وادي النيل . وكان الخلفاء يرسلون عمالهم الى هذه الاعمال رأساً من المدينة (او الكوفة) الا الشام فقد كان عاملها يقيم في دمشق وهو يولي عمالاً على ما تحتها من الاجناد . وكذلك مصر فقد كان عاملها في الغالب يرسل العمال من تحت أمرته الى افريقية والنوبة

وكان عامل الشام في ايام عمر بن الخطاب الى آخر عصر الخلفاء الراشدين معاوية ابن ابي سفيان . ثم جعل نفسه خليفة ونقل مركز الخلافة الى دمشق كما تقدم . وتخلفت جزيرة العرب كلها عن بيعته وظلت على بيعة علي ثم أولاده . وبعد مقتل الحسين ظلت هذه الجزيرة في عهد ابن الزبير حتى قتله الحجاج في ايام عبد الملك ابن مروان سنة ٧٢ هـ فانضمت الى مملكة بني أمية

وفي أيام بني امية زادت المملكة الاسلامية اتساعاً ففتحوا الاندلس وسائر المغرب غرباً . وأوغل بنو أمية في اوروبا من وراء اسبانيا فقطعوا جبال البيرينيه ووطئوا بلاد فرنسا وأوغلوا فيها الى نهر الرون سنة ١١٤ هـ . فارتعد الافرنج لذلك وخافوا ان يصيبهم ما اصاب اسبانيا فتكاتفوا لدفعهم بكل جهدهم فحصلت بين الفريقين وقائع دموية في مكان بين تورس وبواكتيه دامت بضعة أيام والحرب سجال . ولم يذكر العرب من أخبار هذه الوقائع الا اشارات مختصرة . واما الافرنج فانهم فصلوها مع ما يقتضيه المقام من اعجابهم بالعرب وبسالتهم . وكان ذلك في ايام شارل مارتل القائد الفرنساوي الشهير جد الامبراطور شارلمان . فذكروا حروباً هائلة جرت بين شارل هذا وبين العرب سنة ٧٣٢ م انتهت بتقهقر العرب الى اسبانيا وقتل قائدهم عبدالرحمن . وقد ورد في تاريخ ابن الاثير ان عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي امير الاندلس خرج غازياً سنة ١١٤ هـ (وهي تقابل ٣سنة ٧٣ م تقريباً) ببلاد الافرنج فقتل هو ومن معه شهداء . فالارجح ان هذه هي الحملة التي حاربها شارل مارتل المذكور

ومما يستدعي الاعتبار والتأمل ان العرب لو فازوا في هذه الواقعة لانتشر الاسلام في فرنسا ثم في سائر أوربا – لان الفرنساويين كانوا أقوى امم الافرنج على مدافعة العرب – ولاصبحت اللغة العربية لغة اهل تلك القارة كما هي لغة أهل معظم قارتي أسيا وافريقيا وسائر العالم الاسلامي . ولكن الله في خلقه حكمة لا تدركها العقول

(ش٧) شارل مارتل يحارب العرب بين تورس وبواكتيه بفرنسا

وامتدت فتوح الامويين في بلاد فارس فخراسان وما وراءها الى حدود الهند وهاك اقسام المملكة الاسلامية في زمن بني أمية :

١ الشام وتقسم الى أربعة أجناد
٢ الكوفة
٣ البصرة وتشمل فارس وسجستان والبحرين وعمان
٤ ارمينا
٥ مكة
٦ المدينة
٧ افريقية
٨ مصر
٩ اليمن
١٠ خراسان .

ولما افضت الخلافة الى بني العباس ترتبت الولايات على هذه الصورة :

١ الكوفة والسواد
٢ البصرة ومهرجان قباد الى كور دجلة وما وراءها جنوباً الى البحرين فعمان
٣ الحجاز واليمامة
٤ اليمن
٥ الاهواز (خوزستان وسوزيانا)
٦ فارس
٧ خراسان
٨ الموصل
٩ الجزيرة (بين النهرين وارمينيا واذربيجان)
١٠ الشام
١١ مصر وافريقية
١٢ السند في حدود الهند
١٣ الاندلس

واتسع نطاق المملكة الاسلامية على عهد العباسيين حتى بلغت اوسع مابلغت اليه في عهد الاسلام الى الآن . ولا عبرة في خروج بعض الاعمال من سيطرة العباسيين كالاندلس لما تولاها بنو أمية واستقلال بعض الدول الثانوية كالطاهرية والسامانية والاغالبة والطولونية ونحوهم فقد كان هؤلاء كلهم يخطبون للخليفة العباسي (الا الاندلس) ومهما اختلفت الدول فالمملكة اسلامية وحكامها مسلمون

وقد بلغت حدود هذه المملكة من الشمال الى اعالي تركستان في اسيا وجبال البيرينية في شمالي اسبانيا . ومن الجنوب الى بحر العرب والاقيانوس الهندي وصحراء افريقيا ومن الشرق الى بلاد السند والبنجاب من بلاد الهند . ومن الغرب الاوقيانوس الاتلانتيكي وتزيد مساحتها على ضعفي مساحة اوربا

ولبيان عظمة تلك المملكة الواسعة نأتي على اسماء أعمالها ثم نبين مقدارها :

(أنظر الجدول في الصفحة المقابلة)

السواد	همذان	طبرستان	طريق الفرات
الاهواز	ماسبذان	تكريت	قنسرين والعواصم
فارس	مهرجان قذق	شهرزور	حمص
كرمان	الايغارين	الصامغان	دمشق
مكران	قم وقاسان	الموصل	الاردن
اصبهان	اذربيجان	ديار ربيعة	فلسطين
سجستان	الري	ارزن وميافارقين	مصر
خراسان	قزوين	طرون	الحرمين
حلوان	زنجان	ارمينيا	اليمن
الكوفة	قومس	آمد	اليمامة والبحرين
البصرة	جرجان	ديارمضر	عمان

هذه اعمال المملكة الاسلامية العباسية ماعدا مملكة بني أمية في الاندلس. وكانت معاصرة لها وقد فتحت صقلية ومالطة وغيرهما من جزر البحر المتوسط . وكان لكل عمل من هذه الاعمال والٍ او عامل يوليه الخليفة او وزيره او نائبه كما سترى فبلغ عدد هذه الاعمال — أو الولايات في اصطلاح هذه الايام — ٤٤ ولاية لكل منها بيت مال وديوان خراج وقاضٍ او اكثر . وسكانها هم معظم امم العالم المتمدن في ذلك الحين وفيهم العرب والفرس والاتراك والاكراد والمغول والتتر والافغان والهنود والارمن والسريان والكلدان والروم والقوط والقبط والنوب والبربر وغيرهم . وكانوا يتكلمون العربية والفارسية والبهلوية والهندية والرومية والسريانية والتركية والكردية والارمنية والقبطية والبربرية وغيرها. فمنهم من اصبحت اللغة العربية لغتهم وضاعت لغاتهم الاصلية كاهل الشام ومصر والمغرب والعراق. ومنهم من اختلطت العربية بلغاتهم الاصلية كاهل فارس وتركستان والهند والافغان وغيرها . ولا تزال معظم امم أسيا وأفريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية الى الآن أثراً لذلك التمدن العظيم

﴿ احصاؤها ﴾ ويحسن بنا في هذا المقام النظر في احصاء هذه المملكة في تلك الايام . ولكن ذلك غير مستطاع لان العرب قلما انتبهوا الى تعداد سكان

ممالكهم . وانما ننظر في احصاء سكان هذه الاعمال اليوم فنأتي بما يقابلها واسم الدولة التي هي تابعة لهـا وعدد سكانها ثم نقابل بين أحوالها الآن واحوالها في تلك الايام فنقول :

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها الان	عدد سكانها الآن
ايران كلها	شاه العجم	٩,٠٠٠,٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٤,٠٠٠,٠٠٠
بلوخستان	انكلترا	٥٠٠,٠٠٠
السند	انكلترا	٢,٠٠٠,٠٠٠
تركستان	روسيا	٤,٠٠٠,٠٠٠
قوقاسيا	روسيا	٥,٠٠٠,٠٠٠
ارمينيا وكردستان	تركيا	٢,٥٠٠,٠٠٠
العراق الجزيرة	تركيا	٢,٥٠٠,٠٠٠
سوريا فلسطين	تركيا	٢,٧١١,٠٠٠
جزيرة العرب	تركيا	٥,٠٠٠,٠٠٠
القطر المصري	تركيا	١٠,٠٠٠,٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	١,٠٠٠,٠٠٠ ؟
طرابلس الغرب	تركيا	١,٠٠٠,٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	٤,٤٢٩,٠٠٠
تونس	فرنسا	١,٥٠٠,٠٠٠
مراكش	مستقلة	٩,٠٠٠,٠٠٠
اسبانيا	مستقلة	١٧,٠٠٠,٠٠٠
قبرص	انكلترا	٢٠٩,٠٠٠
كريد	تركيا	٢٩٤,٠٠٠
		٧٢,٦٤٣,٠٠٠

هذا هو تعداد سكان تلك البلاد اليوم ولكن كثيرًا من المدن الاسلامية أصبح خرابًا الآن بالنظر لما كان عليه في عهد الدولة الاسلامية وخصوصاً العراق اوهو السواد وعلى الاخص بغداد والبصرة والكوفة وسائر مدن العراق . فقد وصف الاصطخري مدينة البصرة وصفاً تحار به العقول ننقله تمثيلاً لما كانت عليه أرض العراق في ذلك العصر الذهبي قال :

« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم وانما مصرها العرب ... وليس فيها مياه الا انهارًا . وذكر بعض أهل الاخبار ان انهار البصرة عدت ايام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة الف نهر وعشرين الف نهر تجري فيها الزوارق . وقد كنت انكر ما ذكر من عدد هذه الانهار في أيام بلال حتى رأيت كثيرًا من تلك البقاع فربما رأيت في مقدار رمية سهم عددًا من الانهار صغارًا تجري في كلها زوارق صغار ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذي احتفره او الى الناحية التي يصب فيها فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها » فاعتبر المسافة التي تحفر فيها ١٢٠٠٠٠ نهر او ترعة كم يمكن ان يكون سكانها

ناهيك ببغداد مدينة الخليفة ودار السلام فقد ذكر الاصطخري أيضاً في وصفها كما شاهدها في أيامه في القرن الرابع للهجرة قال « وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد حتى تتصل من نهر بين الى شط دجلة ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة أميال وتحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً على دجلة الى آخر الكرخ الخ » ثم قال « وبين بغداد والكوفة (او بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميز تخترق اليه أنهار من الفرات » ثم عدد الانهر التي تمتد من الفرات الى دجلة

فأين هذه العمارة مما عليه بغداد اليوم فان احصاء ولاية البصرة كلها الآن ٢٠٠,٠٠٠ نفس وتعداد ولاية بغداد ٨٥٠,٠٠٠ ونظن احصاء الولايتين جميعاً أقل كثيرًا مما كانت تحويه مدينة بغداد وحدها . وقس على ذلك مدينة دمشق وغيرها من المدن التي ضعف أمرها اليوم . وهناك مدن أخرى كانت يومئذ في أبان مجدها فأصبحت

الآن اسماً بلا مسمى مثل الفسطاط في مصر والكوفة في العراق والقيروان في افريقية وبصرى في حوران وغيرها مما لا محل للكلام فيه هنا

واما مصر فيؤخذ من كلام مؤرخي العرب انها لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك « ليس فيهم امرأة ولاصبي ولاشيخ » ثمانية آلاف الف (٨٠٠٠٠٠٠) منهم في الاسكندرية وحدها ٣٠٠،٠٠٠ فاذا اضفنا الى ذلك عدد الاناث والاطفال والشيوخ زادت جملته على ٣٠٠٠٠٠٠٠ وهو ثلاثة اضعاف سكانها اليوم . وقد يطعن في صحة هذه الرواية ولكن يستدل من مجمل أقوالهم في مصر انها كانت في رغد ورخاء وكان عمرانها بالغاً حد النهاية . ذكر المقريزي ان هشام بن عبدالملك (سنة ١٠٧) ه أمر عبيدالله بن الحبحاب عامله على خراج مصر ان يمسحها فمسحها بنفسه فوجد مساحة ارضها الزراعية مما يركبه النيل ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان . وذلك خمسة اضعاف مايزرع منها الآن . مع ان مساحة الارض الزراعية في وادي النيل اليوم مع ما تبذله الحكومة من العناية في اخصابها وتعميرها لا تزال اقل من ستة ملايين فدان . ومساحة وادي النيل كلها أي الوجه البحري والصعيد على جانبي النيل لا تزيد على هذا القدر الا قليلاً . فيستحيل ان تكون مساحتها في اوائل الاسلام خمسة أضعاف ذلك . ولكن يظهر ان العرب زرعوا ما يجاور هذا الوادي من الشرق نحو البحر الاحمر ومن الغرب الى وادي النطرون . لان مساحة مصر بما فيها الواحات في صحراء ليبيا والارض بين النيل والبحر الاحمر وبينه وبين بحر الروم الى العريش تزيد على ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع وذلك يساوي نحو ١٨٧ مليون فدان . فلا غرابة اذذاك ان يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان . وان يكون سكانها ٣٠ مليون نفس

ويؤيد ذلك ان مؤرخي العرب كانوا يقدرون مساحة مصر نحو ما تقدم تقريباً . قال المقريزي « وآخر ما اعتبر حال أرض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوماً ومساحة أرضها ١٨٠٠٠٠٠٠٠ فدان يزرع منها في مباشرة ابن المدبر (في أواسط القرن الثالث للهجرة) ٢٤،٠٠٠،٠٠٠ فدان . وانه لا يتم خراجها حتى يكون فيها

٤٨٠،٠٠٠ حراث يلزمون العمل بها دائماً ٠٠ الخ »

واعتبر نحو هذا العمران أيضاً في مدن الاسلام الكبرى في الاندلس مثل قرطبة وغرناطة وطليطلة ٠ وفي العراق والشام بلاد لا تحصى كانت في تلك الايام مدناً كبرى واصبحت الآن قرى حقيرة

فاذا اعتبرنا كل ما تقدم لا نستبعد ان يكون احصاء المملكة الاسلامية في ابان عمرانها نحو ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ نفس الى ٢٥٠ مليون وهو نحو تعداد سكان اوربا كلها وسنعود الى ذلك في كلامنا عن ثروة المملكة

مصالح الدولة الاسلامية

١٧

﴿ الدولة الاسلامية ﴾ نشأت الدولة الاسلامية في المدينة في السنة الاولى للهجرة والمسلمون يومئذ الصحابة لا يزيد عددهم على بضع عشرات بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الانصار فجعلوا اساسها المساواة والمواخاة والتعاون ٠ فقد ذكرنا ان النبي آخى بين المسلمين ومكن المواخاة بان جعل أموالهم واحدة ومصالحهم واحدة كما يستدل من قوله « من ترك كلاً فالينا ومن ترك مالاً فلورثته » وقد كان ذلك الاشتراك في المصالح داعياً الى زيادة الاتحاد ٠ ومصالح الدولة يومئذ محصورة في النبي وتشمل السياسة والادارة والدين ففرضوا الصلاة والزكاة وغيرها من الفروض التي تعد من قبيل الدين ولا نبحث فيها الا من حيث دخلها في تأسيس الدولة

أما الصلاة في الجماعة ففائدتها في الدنيا الاتحاد والطاعة للامام ٠ وأما الزكاة فانها قوام الدولة وأساس مصالحها فهي أصل بيت المال الذي نعبر عنه بنظارة المالية

ولا يخفى ان للدول نظامات مختلفة وفيها الملكي والجمهوري والمطلق والمقيد ولكل دولة قوانين تختلف عما للاخرى مما لا يحصره وصف ولكنها ترجع كلها الى امرين أساسيين تشترك فيهما جميعها وهما المال والجند ٠ وما من دولة مهما يكن من نوع نظامها

الا وفيها الجندية والمالية اذ لا قوام لها بدونهما وربما كانت الحاجة اليهما في أوائل الدولة اشد مما بعدها . والمسلمون هم الجند واتحادهم بالصلاة والركوع والمؤاخاة هو نظام الجند والزكاة عبارة عن المال اللازم لبقاء الجند — فأساس الدولة الاسلامية هذه الآية « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

والقصد من الزكاة توطيد عرى الاتحاد الذي هو أساس الاسلام بان يؤخذ من أغنياء المسلمين مايزيد من أموالهم ويعطى الفقراء منهم — فيؤخذ زكاة ويعطي صدقة . ويمثل ذلك جلياً قول النبي لمعاذ لما بعثه الى اليمن اذ قال له « انك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم الى شهادة ان لااله الا الله وان محمداً رسول الله . فان هم أطاعوا لذلك فاعلمهم ان الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة . فان هم أطاعوا لذلك فاعلمهم ان الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم . فان هم أطاعوا لذلك فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فان ليس بينها و بين الله حجاب »

وفي فرض الزكاة على الاغنياء واعطائها للفقراء حكمة عالية . لانها تسترضي الفقراء وهم الجمهور الاكبر وخصوصاً في عصور الجاهلية ايام الاستبداد والاستئثار . فجاء الاسلام لنصرة الضعيف والمساواة بينه و بين القوي . ولذلك كان الناقمون على النبي من كبار القوم الذين ساءهم ان يشاركوا فقراءهم باموالهم وان يكونوا اخوة لهم

وبعد واقعة بدر الكبرى سنة ٢ هـ حدثت الغنائم والجزية كما سيأتي . فاصبحت أعمال الدولة في عهد النبي وعهد أبي بكر منحصرة في الزكاة تجمع من أغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم . والغنائم المكتسبة بالغزو تقسم في المحاربين . وما فرضوه على من دخل في ذمتهم من اليهود والنصارى في بلاد العرب من الجزية ونحوها . ويتولى ذلك كله النبي أو خليفته . وكانت الاموال التي ترد عليهم تفرق فيهم على السواء الصغير والكبير الحر والعبد الذكر والانثى . واذا كانت من الغنائم أخذوا نصيبهم منها على ما يأتي . واذا جاء المدينة مال من بعض البلاد أُحضر الى المسجد وفرق على ما يراه النبي او الخليفة بلا قيد ولا ضبط ولا يبقى منه باق

ولما فتحت البلاد على عهد عمر بن الخطاب واختلط العرب بالروم والفرس واتسع سلطان المسلمين وكثرت وارداتهم وتعددت مصادر الفي اضطروا الى ضبط ذلك وتقييده وتعيين ما يدخل وما يخرج منه . فرأى عمر ان يضبط الوارد في الدفاتر فيدفع منه رواتب معينة في العام الى كل على قدر استحقاقه والذى يبقى من الاموال يحفظ للانتفاع به عند الحاجة . فشرع عمر بذلك في السنة العشرين للهجرة (وقالوا ١٥) وهو ما يعبر عنه بالديوان اقتداء بما كان عند الفرس والروم

ونظر عمر في من حوله من المسلمين فاذا هم طبقات ودرجات باعتبار تأثيرهم في انشاء هذه الدولة وتوسيع سلطانها . فرأى ان يجعل عطاء كل واحد منهم على قدر خدمته ولكنه اعتبر أيضاً القرابة من النبي فميز اهله بشيء خاص كما سنفصله . واستناب عنه في تدوين ذلك كاتباً يتولى ضبطه

ولما تكاثرت موارد المال الى المدينة انشأ عمر خزانة او داراً سماها «بيت المال» وهو اول من فعل ذلك من الخلفاء . وان كنا نرى ذكر بيت المال في عهد أبي بكر فما هو الا من قبيل القياس لان أبا بكر لم يكن يفضل عنده مال يحفظه في خزانة او بيت

فانقضت دولة الخلفاء الراشدين (سنة ٤٠ هـ) وموظفو حكومتها (١) الخليفة (٢) عماله في الامصار (٣) كاتب يكتب له الكتب ويتولى أمر الديوان (٤) خادم خصوصي كانوا يسمونه الحاجب (٥) خازن يتولى بيت المال (٦) قاضي يقضي في الخصومات

فلما افضت الخلافة الى بني أمية وأصبح الامر ملكاً سياسياً وكثرت مخالطة المسلمين للاعاجم جعلت تلك المصالح تتفرع وتتوسع عملاً بناموس الارتقاء العام واضافوا اليها مصالح اقتبسوها من الروم والفرس وقضى عليهم الترف وابهة الملك ان يتخذوا الخدم والحشم والحاشية والحجاب والحراس فحدث في عهد بني أمية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج مما سيأتي بيانه

ولما آل الامر الى بني العباس زادت عوامل الاختلاط وزاد ميل الخلفاء الى

الترف والرخاء فاستنابوا من يقوم مقامهم في مباشرة الاعمال فاستحدثوا منصب الوزارة والحسبة وغيرهما وتفرعت المناصب الاولى وتشعبت على مقتضيات الاحوال ثم أدخلت كل دولة من دول الاسلام مصالح اقتضتها أحوالها فاختلفت في بغداد عما في قرطبة وفيهما عما في القاهرة مما لا محل لتفصيله

﴿ تشعب المصالح ﴾ كان الخليفة في عهد سذاجة الدولة هو الذي يراقب أعمال الدواوين بنفسه وكان عماله لا يزالون من أهل الزهد والتقوى لا يحتاجون الى من يراقب اعمالهم أو يستطاع خفاياهم ولم يكن للخليفة اموال خاصه ولا ضياع تحتاج الى كتاب أو حساب. وكان اذا كتب الى أحد عماله كتاباً ختمه بخاتمه بيده وربما كتب الكتاب بيده . فلما اتسع سلطانهم وتبدلت وجهة الخلافة من الدين الى السياسة ومال الخلفاء الى التقاعد وتقليد القياصرة والاكاسرة استنابوا من يقوم بتلك الاعمال . فاستخدموا من يباشر أمور الدولة عنهم وهم الوزراء ومن يراقب تصرف العمال في الامصار وهو صاحب ديوان البريد . ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها وهم اصحاب ديوان التوقيع أو الخاتم . ومن يتولى النظر في ضياعهم وأملاكهم وهم عمال ديوان الضياع . ومن ينظر في حسابات حاشيتهم وخدامهم وهم عمال ديوان الخاص . واقتضت حضارتهم أن يضربوا النقود ويتخذوا الطراز فأنشأوا دار الضرب وديوان الطراز. وأنشأوا دواوين أخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضها لغير ذلك مثل ديوان الترتيب وديوان العزيز — وهذا كان يشبه الباب العالي

وكان الكاتب في عهد الخلفاء الراشدين هو الذي يتولى الديوان على ما وضعه عمر فيدون ما يرد من أموال الخراج والجزية وغيرهما وما ينفق على الجند والعمال والقضاة وغيرهم ويتولى مكاتبة العمال . فلما اتسعت اعمال الدولة تشعب ذلك الديوان الى ما يختص بحسابات الخراج والجزية وهو ديوان الخراج والى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم وهو ديوان الزمام والنفقة والى ما يتعلق بغير ذلك مثل ديوان الاقطاع وديوان المعادن والى ما يختص بتدوين أسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم وهو ديوان الجند . وتفرع من ديوان الجند ديوان الاساطيل وديوان الثغور وغيرهما .

وأفردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديوانًا خاصًا هو ديوان الرسائل أو الانشاء

وكان بيت المـال مخزنًا عاماً لكل أموال المسلمين فتفرع في أيام الامويين والعباسيين الى عدة فروع بعضها لاموال الصدقات وبعضها لاموال المظالم وبعضها لاموال الورثة وبعضها لغير ذلك . وعلى هذا النمط تشعبت المصالح الاخرى فتفرع من القضاء ديوان المظالم والحسبة والشرطة ونحو ذلك مما لا يمكن حصره

وشأننا في هذا المقام النظر في نشأة الدواوين الاساسية وتاريخها وسائر أحوالها ولا ينجلي ذلك الا اذا نظرنا في أصولها وكيف نشأت وتفرعت والاحوال التي دعت الى ذلك . فنبدأ بالخلافة وتوابعها وملحقاتها فولاية الاقاليم فالوزارة ثم نفرد لكل من الجند والمال بابًا خاصًا ونلحق ذلك بالمصالح الاخرى

الخلافة

١٨

ماهيتها وشروطها وحقوقها

﴿ ماهيتها ﴾ الخلافة ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن في سواه من قبل وهي من قبيل السلطة الملكية المطلقة ولكنها تمتاز عن سلطة القياصرة والامبراطرة والاكاسرة ان الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية فتحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها . وأما تلك فتنحصر في حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية

وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيرًا ومرجعهما الى مبداء واحد . لان الذي يتأتى له ان يتولى أمور الناس ويحكم فيهم حكماً مطلقًا اما ان يسير بهم على قانون مفروض او على مقتضى شهواته واغراضه . واكثر ملوك العالم المتمدن يحكمون رعاياهم بقوانين سياسية وضعها عقلاء الامة واكابر الدولة فيحملون الكافة على أحكامها – كذلك كان الفرس والروم قبل الاسلام وهذا هو شأن الملوك المطلقين في أوربا اليوم . وأما

الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الكافة على احكامها بالنيابة عن النبي صاحب تلك الشريعة . ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الامامة وقد سموا الخليفة اماماً تشبيهاً بامام الصلاة في اتباعه والاقتداء به

﴿ شروط الخلافة ﴾ للخلافة أربعة شروط يشترط توفرها في الخليفة وهي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس . واختلفوا في شرط خامس هو النسب القرشي اي ان لا يقوم خليفة الا من قبيلة قريش . فامتنع حينئذ ان يتولى امور المسلمين اعجمي باسم الخليفة . وأصل هذا الشرط حديث احتجت به قريش لما طلب الانصار الخلافة لهم كما تقدم في الكلام على بيعة أبي بكر . وكان هذا الشرط مرعياً كل الرعاية في سائر احوال الدول الاسلامية والخلافة لم يتطلبها غير القرشيين قط . ومع كل ما انتاب الخلفاء في اواخر الدولة العباسية من الضعف واستبداد الامراء فيهم حتى جردوهم من كل قوة دنيوية وانشأوا الدول دونهم ولقبوا انفسهم بالسلاطين — ومع كل ذلك لم يخطر لاحد منهم ان يدعي الخلافة او ان ينصب نفسه خليفة . هذه دول بني بويه والسلاجقة والغزنوية والطاهرية وغيرهم فقد استقلوا في الاحكام وفيهم من غلب على الخلفاء انفسهم ولكنهم لم يسموا انفسهم غير سلاطين . بل كانوا يتزلفون الى الخلفاء ليثبتوهم في الحكم . وكذلك فعل صلاح الايوبي في مصر فانه تناول ازمة الملك في مصر من آخر خليفة فاطمي وليس من يطالبه او ينافسه على السلطة و بيده مقاليد البلاد . فلما أراد الاستقلال بالملك دعا على المنابر للخليفة العباسي ولم يسم نفسه خليفة وانما اكتفى بلقب السلطان . وأول من تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح العثماني سنة ٩٢٣ هـ . وحجة الائمة الحنفية في صحة خلافة بني عثمان ان الخليفة يتولى الخلافة باربعة حقوق وهي : —

(١) حق السيف : ومعنى ذلك ان طالب الخلافة يجب ان يقوم بدعوته أنصار لا يقوى عليهم مناظر آخر على وجه الارض . وقد كان ذلك شأن السلطان سليم يوم التمس الخلافة بعد فتح مصر

(٢) حق الانتخاب : أي مصادقة أهل العقد وهو مجلس من الائمة والعلماء .

وحجتهم في ذلك ان هذا المجلس كان في أول عهد الاسلام بالمدينة ثم نقل الى دمشق ثم الى بغداد ونقل من بغداد الى القاهرة فيجوز أيضاً نقله من القاهرة الى القسطنطينية فلما فتح السلطان سليم مصر حمل معه جماعة من علماء الازهر وأضاف اليهم عدة من علماء الاتراك وألف من الفئتين مجلساً صادق على انتخابه وسلموه السيف . ولا تزال العادة جارية في تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من أيدي العلماء الى اليوم وهم يفعلون ذلك الآن في جامع أيوب

(٣) الوصاية : وهي وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته . والمتوكل آخر الخلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها السلطان سليم وقد أوصى بالخلافة له

(٤) حماية الحرمين : والسلاطين العثمانيون ما برحوا منذ تولوا الخلافة وهم حماة الحرمين الا سبع سنوات تولاهما فيها أئمة صنعاء في القرن العاشر وسبع سنوات أخرى تولاهما فيها الوهابيون

(٥) الاحتفاظ بالامانات : وهي المخلفات النبوية المحفوظة في الاستانة . وهم يقولون ان الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد فحملها الخلفاء العباسيون معهم الى القاهرة . وما زالت فيها حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية وهي محفوظة الى الآن في صندوق من الفضة في غرفة بالسراي القديمة على البوسفور

مبايعة الخلفاء

﴿ نوع المبايعة ﴾ وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين شورى — وما هي شورى — كان للخليفة ان يسمي من يخلفه ممن يرى فيهم الكفاءة واللياقة . كما فعل أبو بكر في تسمية عمر ولكنه لم يسمه الا بعد ان شاور أصحابه فيه . واذا خاف أن يدعو ذلك الى القيل والقال عين جماعة يختارون من بينهم خليفة كما فعل عمر . ولم يخطر لاحد منهم ان يجعلها ارثاً في نسله . حتى ان عمر لما سمى الشورى لانتخاب من يخلفه منهم سمى ابنه عبدالله في جملتهم ولكنه نهى عن انتخابه . فاختاروا عثمان بن عفان وهذا قتل ولم يوص فاختار الناس علياً بلا شورى . فشق ذلك على كثيرين من

كبار الصحابة لانهم كانوا وقت مقتل عثمان متفرقين في الامصار لم يشهدوا بيعة علي . فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس وتركوا الامر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه . ثم كان ما كان من أمر الفتنة المشهورة

فلما قتل علي ارادت شيعته حصر الخلافة في نسله باعتبار انهم بضعة من النبي فسألوه وهو على فراش الموت « أنبايع الحسن » فقال « لا آمركم ولا انهاكم انتم أبصر » اما هم فبايعوا ابنه الحسن وهذا تنازل عنها لمعاوية بن ابي سفيان فصارت في بني أمية

فطريقة الخلفاء الراشدين في انتخاب الخلفاء أفضل ما بلغ اليه جهد المتمدنين حتى الآن وهي جامعة بين الجمهورية والملكية والشوروية . أما الجمهورية فلأن الخليفة يُنتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين . وهي شوروية لان الانتخاب يكون بالشورى . وهي مطلقة لان الخليفة اذا قبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف . فاذا اضفت الى ذلك شروطها الاربعة التي ذكرناها كانت أفضل انواع الحكومات على الاطلاق . لان الحاكم المطلق اذا كان عادلاً مع علم وكفاءة وسلامة الحواس لم يكن أقدر منه على ترقية شؤون المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه . ناهيك بما في طريقتهم تلك من أدلة التقوى والزهد في الدنيا كما يتضح ذلك من مراجعة سير الخلفاء الراشدين

فلما أفضى الامر الى بني أمية واختلطوا بالروم في الشام واطلعوا على طرق الحكومات عندهم وفي جملتها توالي الملك في الاعقاب رأى معاوية ان يجعله كذلك في نسله . ولكنه تهيب لعلمه بما فيه من مخالفة سنة الراشدين فاستشار بعض خاصته فشجعه المغيرة بن شعبة . وزاده تشجيعاً ما خافه من افتراق الكلمة اذا ترك الامر بعده فوضى فيتطلبه بنو هاشم ولا يرضى بنو أمية تسليمه الى سواهم فيأول ذلك الى الفتنة بعد ذهاب دهشة النبوة وتغلب طبيعة الملك ورجوع الناس الى العصبية . فتجنباً للفتنة بايع ابنه يزيدًا وخوفاً من الافتتان عليه بعد موت معاوية طلب له البيعة في حياته وتربص ليرى مايبدو من الناس فلم ير شرًّا . وجرى على ذلك خلفاؤه بعده الا عمر

ابن عبد العزيز فانه أراد الرجوع الى طريقة الخلفاء الراشدين ولكنه لم يتوفق الى ذلك بتغلب العامة عليه فلم تطل مدته فعادوا الى طريقة معاوية

وأراد مثل ذلك أيضاً المأمون في الدولة العباسية فعهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق من نسل الامام علي وسماه « الرضا » فعظم ذلك على بني العباس ونقضوا بيعة المأمون وبايعوا عمه ابرهيم بن المهدي . ولو لم يبادر المأمون الى ملافاة الامر لخرجت الخلافة من يده . فعاد الى الخلافة بالارث وجرى عليها العباسيون والفاطميون وغيرهم من خلفاء المسلمين

﴿ البيعة ويمينها ﴾ البيعة هي العهد على الطاعة فاذا بايع الرجل أميراً كانه عاهده وسلم اليه النظر في امر نفسه لا ينازعه في شيء من ذلك وانه يطيعه فيما كلفه به من الامر على المنشط والمكره . وكان العرب اذا بايعوا أميراً جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري فسمي « بيعة » مصدر باع وصارت البيعة مصافحة الايدي وهو مدلولها بعرف اللغة أيضاً . وأقدم بيعة في الاسلام بيعة العقبة ومنها ايمان البيعة التي كان الخلفاء يستحلفونها على العهد ويستوعبون الايمان كلها

وأما نص يمين البيعة فانه يختلف باختلاف الدول والاحوال وان كان مرجعه واحداً . فلما بايع الانصار النبي بالعقبة قالوا « يا رسول الله انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا . فاذا وصلت فانك في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه انفسنا وابناءنا ونساءنا » . وهناك نص آخر بويع بالعقبة يعرف ببيعة النساء وهي « بايعنا بان لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفريه من بين ايدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف »

ويمين بيعة بني العباس منذ طلبها لهم ابو مسلم الخراساني هي « أبائعكم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي الى بيت الله الحرام على ان لا تسألوا رزقاً ولا طعماً حتى يبتدئكم به ولاتكم »

وكانت العادة اذا هموا بمبايعة خليفة بايعه أولاً كبار الدولة ثم من يليهم من

أصحاب المناصب . وفي الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة الجند والقواد وقضاة بغداد . وكان كاتب الجيش هو الذي يتولى استحلافهم على الغالب ويدعو بأسمائهم ويقف الوزير أو من يقوم مقامه فيعمم الخليفة بيده ويلبسه البردة . ومتى تمت المبايعة يعرضون على الخليفة القاباً فيختار لقباً منها . وهذه الالقاب حادثة في الاسلام وكانت في اوائل الدولة العباسية بسيطة كالامين والمأمون والرشيد . فلما كانت أيام المعتصم اضاف اسم الجلالة الى لقبه فسموه « المعتصم بالله » وصارت تلك عادة في من خلفه من بني العباس

فاذا بويع في داره جاؤه بموكب الخلافة وهي أفراس مسرجة ولكل دابة سائس بالالبسة الفاخرة فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة ويمشي بين يديه رجل بالحربة ويصف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينهما الى دار الخلافة وهي دار العامة في بغداد . ثم يرد عليه وفود المهنئين من الامصار على مقتضى الاحوال

واختلفوا في نص يمين البيعة وفي كيفية الاحتفال بالمبايعة باختلاف الدول ولكن الجوهر واحد . وهو تبادل العهود بين الخليفة ورعيته بالسير على ما يقتضيه الكتاب والسنة ونحو ذلك . وكان شأنهم في المبايعة الاختصار كما قد رأيت شأن الدول في أبسط أحوالها . وكانت البيعة تتلى شفاها ثم صارت تكتب وتحفظ وكانت كلمات قليلة فصارت سطوراً عديدة بما ادخلوه فيها من الحشو والاطناب لما اقتضاه استغراق الدول في الترف من الميل الى التفخيم والتبجيل والتطويل شأن الدول في أيام بذخها . فقد بلغت صورة المبايعة التي كتبت للحاكم بأمر الله العباسي في أواسط القرن الثامن للهجرة بمصر ما يملأ اربع صفحات من هذا الكتاب

﴿ بيعة ولي العهد ﴾ ذكرنا في كلامنا على الخلافة بعد ان صارت ارثية ان الخلفاء كانوا يبايعون لاولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوي قرابتهم وكانوا يحتفلون بذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء . وكثيراً ما كانوا يعرضون عزمهم في ذلك على أهل الرأي كما فعل المنصور لما أراد البيعة لابنه المهدي وكان جعفر يعترض عليه في ذلك فامر المنصور باحضار الناس وقامت الخطباء فتكلموا وقالت الشعراء فاكثرت في

وصف المهدي فرجح لذلك بيعة المهدي

وكانوا اذا رأوا غير واحد من أولادهم أو أخوتهم أهلاً للخلافة بايعوا لاحد أولادهم أو اخوتهم وشرطوا ان يخلفه فلان او فلان كما فعل يزيد بن عبدالملك لما أراد ان يبايع بولاية العهد وكان ابنه لايزال صغيراً فبايع أخاه هشاماً على ان يخلفه ابنه الوليد بن يزيد . وكثيراً ماكانوا يغيرون في شروط المبايعة بعد حين اذا رأوا لزوماً لذلك . وقد يبايع الخليفة بولاية العهد لأحد أولاده ويذكر من يخلفه ويخيره في استخلافه كما فعل الرشيد لما كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل أمره للمأمون ان شاء أقره وان شاء خلعه

والعهد كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ويختمه بخاتمه وخواتم أهل بيته ويدفعه الى ولي العهد أو من يتولى أمره فيحفظه الى حين الحاجة . وقد يحفظه في مكان امين في خزانة او مسجد او في الكعبة كما فعل الرشيد بالكتابين اللذين كتبهما لاولاده بولاية العهد أحدهما للامين والآخر للمأمون و بعد هذا للقاسم كما قدمنا

علامات الخلافة

علامات الخلافة ثلاث البردة والخاتم والقضيب

﴿ البردة ﴾ أما البردة فهي بردة النبي وما زال النبي يلبسها حتى أعطاها الى كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المشهور وكان كعب قد هجا النبي وفر من وجه المسلمين . فلما فتح المسلمون مكة كتب اليه اخوه بجير بن زهير « ان رسول الله (صلعم) قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وان من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه فان كانت في نفسك حاجة فطر الى رسول الله (صلعم) فانه لايقتل أحداً جاءه تائباً » فلم يرَ كعب مفرجاً الا رجوعه وتوبته فجاء المدينة وسلم نفسه الى النبي ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول

فاكرمه النبي وأراد بعض الصحابة قتله فمنعهم و بالغ في اكرامه فخلع عليه بردته فظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان في اثناء

خلافته بأربعين الف درهم (نحو ١٫٦٠٠ جنيه) وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون وذكر أبو الفداء انها انتقلت من العباسيين الى التتر . ولكن البردة المذكورة هي الآن في جملة المخلفات النبوية في السراي القديمة في الاستانة كما تقدم ولعل أبا الفداء وهم بما علمه من غزو التتر على بغداد وفرار الخلفاء العباسيين الى مصر فظن البردة كانت في جملة ما انتهبوه من قصر الخليفة . والظاهر ان العباسيين حملوا البردة معهم الى مصر فلما فتحها السلطان سليم وأخذ الخلافة منهم اخذ البردة معها

﴿ الخاتم ﴾ وأما الخاتم فقد اتخذهُ الخلفاء تشبهاً بالنبي لانه لما أراد ان يكتب الى قيصر وكسرى يدعوهما الى الاسلام قيل له ان العجم لايقبلون كتاباً الا ان يكون مختوماً . فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه « محمد رسول الله » وانتقل هذا الخاتم الى أبي بكر ثم الى عمر ثم الى عثمان ووقع من يد عثمان في بيراريس ولم يعثروا عليه بعد ذلك . فاصطنع عثمان خاتماً مثله وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خاتماً يختمون به الكتب من اسفل الكتابة أو في أعلاها بالطين أو المداد ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها . وأول من فعل ذلك معاوية تجنباً للتزوير لانه كتب مرة الى زياد بن أبيه عامله بالكوفة ان يدفع لعمر بن الزبير مئة الف درهم وسلم الكتاب الى عمر ليحمله الى زياد فجعل عمر المائة مايتين فدفعها زياد له ولما رفع حسابه الى معاوية بان التزوير فأمر من ذلك الحين بحزم الكتب وختمها على طرفيها بعد طيها أو لفها

وذكر البلاذري ان زياداً أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم في أثناء ولاية العراق امتثالاً لما كانت الفرس تفعله وانه كان لملوك الفرس قبل الاسلام عدة خواتم يستخدم كل منها لغرض — خاتم للسر وخاتم للرسل وخاتم للسجلات والاقطاعات وخاتم للخراج وكان الذي يتولاها يسمى صاحب الزمام

وما زال ديوان الخاتم معدوداً من الدواوين الكبرى من أيام معاوية الى أواسط دولة بني العباس فاسقط لان مباشرة الاعمال تحولت الى الأمراء والوزراء والسلاطين وغيرهم . ولما أراد الرشيد ان يستوزر جعفر بن يحيي ويستبدل به من

الفضل أخيه فقال لابيهما يحيي بن خالد « يا أبت اني أردت ان أحول الخاتم من يميني الى شمالي » فكنى له بالخاتم عن الوزارة

وكان لخاتم الخلفاء عندهم مقام عظيم فاذا تناوله الوزير أو غيره ليختم به كتاباً وقف على رجليه تعظيماً للخلافة . وكانوا اذا ختموا كتاباً دافوا الطين أو المداد وطبعوهُ على صفح القرطاس أو على جسم لين كالشمع حتى ترتسم صورة الختم عليه وقد يكون ذلك في آخر الكتاب أو في أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو اسم الخليفة أو شيء يعنونه ويكون ذلك اشارة الى صحة ذلك الكتاب ويكون الكتاب بدونه ملغىً ويسمون الختم أيضاً علامة

ولما نشأت السلطنات جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة وسموها الطغراء وهي نقشة تكتب بقلم غليظ وفيها القاب الملك وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى فيها عن علامة السلطان بيده . وكانت الدولة السلجوقية تسمي ديوان الانشاء بديوان الطغراء

ويقال ان الطغراء سميت بذلك نسبة الى حسين أبي اسماعيل الطغرائي صاحب لامية العجم المشهورة كان وزيرًا للسلطان مسعود السلجوقي وكان خطه جميلاً وكان يكتب تلك الطغراء بخط جميل فلقبوه بها وهو أول من كتبها (قتل سنة ٥١٥ هـ) والاغلب ان هذا هو أصل الطغراء العثمانية وليس صورة كف السلطان مراد كما نقلناه عن لامارتين وجوانين في الهلال ١١ السنة ١٠

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم أسماءهم ولكنهم كانوا ينقشون عليها عبارات فيها مواعظ وحكم . فقد كان نقش خاتم أبي بكر « نعم القادر الله » وخاتم عمر « كفى بالموت واعظاً يا عمر » . وخاتم عثمان « لتصبرن أو لتندمن » وخاتم علي « الملك لله » وجرى على نحو ذلك خلفاء بني أمية وبني العباس ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه والغالب ان يكون بينها وبين اسمه مناسبة معنوية . فقد كان نقش خاتم المأمون « عبد الله يؤمن بالله مخلصاً » وختم الواثق « الله ثقة الواثق » وختم المتوكل « على الله توكلت » والمعتمد « اعتمادي على الله وهو حسبي » وقس على ذلك . ويعبرون عن

علامات الخلافة اليوم بالمخلفات النبوية وهي محفوظة في الاستانة في صندوق من الفضة في غرفة بقصر يعرف بالسراي القديمة . وأما المخلفات فهي : (١) البردة (٢) سن من اسنان النبي (٣) شعرات من شعره (٤) نعاله (٥) بقية من العلم النبوي (٦) اناء من حديد يقال ان ابراهيم الخليل كان يشرب بهما من ماء زمزم (٧) جبة الامام أبي حنيفة (٨) ذراع سيدنا يحيى . ويحتفلون بزيارة هذه المخلفات في ١٥ رمضان من كل سنة فيخرج جلالة السلطان بموكبه الى السراي المذكورة فيؤدي فروض الزيارة والتبرك بها ومعه كبار رجال الدولة

أما القضيب فهو ثالث علامات الخلافة واذا تولى الخليفة جاؤه بالبردة والخاتم والقضيب وظل الامر على ذلك في بني أمية وبني العباس

شارات الخلافة

وشارات الخلافة أيضاً ثلاث الخطبة والسكة والطراز

﴿ الخطبة ﴾ من شارات الخلافة الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة وهي الخطبة . واصلها ان الخلفاء كانوا يتولون امامة الصلاة بانفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي والرضى عن الصحابة . فلما فتحوا البلاد وبعثوا اليها العمال صار الولاة يتولون امامة الصلاة في ولاياتهم فكانوا اذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء واول من فعل ذلك منهم عبد الله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الامام علي وقف على منبر البصرة وقال « اللهم انصر علياً » واتصل العمل على ذلك فيما بعد . وصار الدعاء للخليفة في بلادٍ علامة سلطانه عليهم . ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين أو الامراء يشاركون الخلفاء بذلك فيذكرون اسماءهم بعدهم . ثم صار السلاطين يستقلون في الدعاء لانفسهم ولا يزال الدعاء على المنابر للخلفاء الى اليوم

﴿ السكة ﴾ ومن شارات الخلافة او هي شارات الملك على الاطلاق الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة أو السلطان ويقال لها السكة وهي لازمة للدولة

نقود العرب قبل الاسلام : كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر وهي الدراهم والدنانير وكانت الدنانير على الاجمال نقوداً ذهبية والدراهم نقوداً فضية بما يقابل الجنيه والريال عندنا . وكانوا يعبرون عن الذهب بالعين وعن الفضة بالورق وكان عندهم أيضاً نقود نحاسية منها الحبة والدانق . على ان مرجع هذه النقود انما هو الى الوزن لان المراد بالدينار قطعة من الذهب وزنها مثقال عليه نقش الملك أو السلطان الذي ضربه . والمراد بالدرهم وزن درهم من الفضة و يسمونه أيضاً الوافي . و يقدرون الدينار اليوم بعشرة فرنكات . وكان الدينار عندهم عشرة دراهم ور بما اختلفت قيمته الى ١٣ بين ١٠ و١٥ أو اكثر حسب الاحوال . فكان الدرهم يقابل الفرنك . و بعبارة أخرى ان درهم من الفضة كان يساوي أر بعة غروش مصرية تقريباً

(ش ٨) الدينار الرومي

وذكر صاحب الاحكام السلطانية ان الدراهم الفارسية كانت ثلاثة أوزان منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً وهي الدراهم البغلية ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطاً ودرهم وزنه عشرة قراريط . وذكر غيره دراهم وزن الواحد منها ستة مثاقيل و يسمونها الدراهم السمرية الثقال ودرهم وزنها خمسة مثاقيل وهي السمرية الخفاف وكلها فارسية

وكانت الدنانير عند العرب قبيل الاسلام صنفين دنانير هرقلية أو رومية ودنانير كسروية أو فارسية وكذلك كانت الدراهم ولكن الغالب ان تكون معاملتهم بالدنانير الرومية والدراهم الفارسية . ولذلك كانت الهرقلية اعز عندهم وارغب حتى ضربوا المثل بجمالها وزهوها

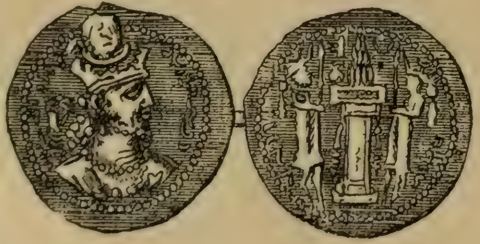

(ش ٩) الدينار الفارسي

والدينار لفظ لاتيني والاصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوي عشرة آسات والاس درهم من دراهم الروم . والدينار ضرب اولاً لهذه الغاية وهو مشتق عندهم من (Deni)

أي عشرة . وكان وزنه سبع الاوقية الرومانية أو جزء من مئة من الرطل (الليبرة) أي انهم كانوا يقسمون الليبرة من الفضة الى مئة دينار . ثم ضربوه من الذهب فصار عندهم ديناران الواحد من الفضة والآخر من الذهب وعنهم اخذ الفرس فضربوا نقوداً مثلها وسموها باسمها

النقود الاسلامية : وما زال العرب يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد وأسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدنهم . فكان في جملة عوامله السكة . فضربوا الدراهم والدنانير اولاً مشتركة بينهم و بين الروم او الفرس

(ش ١٠) نقود خالد بن الوليد

منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة وهي على رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (ΧΑΛΕΔ) وهذه الاحرف (BON) ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني ناقل هذا الرسم انها مقتطعة من « ابو سليمان » كنية خالد بن الوليد

(ش ١١) نقود معاوية بن ابي سفيان

وهناك قطعة أخرى ضربت باسم معاوية . ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله الا اسم معاوية عليه . وقد نقلنا رسمه عن الدكتور مولر المشار اليه أيضاً

وذكر الدميري ضرباً من النقود يقال لها البغلية قال ان رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية «نوش خور» أي كل هنيئاً

وذكر المرحوم جودت باشا انه رأى نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ ﻫ في قصبة هرتك طبرستان وعلى دائرها

بالخط الكوفي « بسم الله ربي» ورأى نقدًا مضروبًا سنة ٣٨ ﻫ على دائرته هذه العبارة أيضاً. ونقدًا ضرب سنة ٦١ ﻫ في يزد على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين» بخط بهلوي

على ان هذه المسكوكات لم تكن تعتبر رسمية في الدول الاسلامية بل كانت أكثر معاملاتهم بالنقود الرومية والفارسية. فاتفق في أيام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥—٨٦ ﻫ) ان هذا الخليفة أراد تغيير الطراز من الرومية الى العربية كما سيجيء فشق ذلك على ملك الروم فبعث اليه يتهدده بأن ينقش على دنانيره شتم النبي فعظم ذلك على عبد الملك فجمع اليه كبار المسلمين واستشارهم فأشار عليه أحدهم بمحمد الباقر احد الائمة الاثني عشر من الشيعة وكان يقيم في المدينة. فعظم على عبد الملك ان يستنجد أحد أئمة بني هاشم وهم مناظروه في الملك ولكنه لم يرَ بدًّا من استقدامه فكتب الى عامله في المدينة ان « اشخص اليَّ محمد بن علي بن الحسين مكرماً ومتعه بمائة الف درهم لجهازه و ٣٠,٠٠٠ لنفقته وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه» فلما قدم محمد الى دمشق استشاره عبد الملك في ماينويه ملك الروم في الاساءة بالاسلام. فقال محمد « لايعظم هذا عليك .. ادع في هذه الساعة صناعاً فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها صورة التوحيد وذكر رسول الله (صلعم) احدهما في وجه الدرهم او الدينار والآخر في الوجه الثاني وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير وتعمد الى وزن ثلاثين درهماً عددًا من الاصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون أوزانها جميعاً احد وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لاتستحيل الى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل»

ففعل ذلك عبد الملك وبعث نقوده الى جميع بلدان الاسلام وتقدم الى الناس في التعامل بها وتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير

وغيرها وان تبطل تلك وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السكاك الاسلامية

هذا ماقاله الدميري ولكن ابن الاثير ينسب هذا الرأي الى خالد بن يزيد بن معاوية وغيره ينسبه الى غيره . وتسمى دنانير عبد الملك الدنانير الدمشقية . وأمر الحجاج عامله في العراق ان يضرب الدراهم على ١٥ قيراطاً من قراريط الدنانير ثم صار أمراء العراق يضربون النقود لبني أمية في الاكثر

ونقش نقود بني أمية على أحد الوجهين في الوسط «لا اله الاَّ الله وحده لاشريك له» وحول ذلك «بسم الله ضرب هذا الدرهم في بلد كذا سنة كذا» وفي الوجه الآخر بالوسط «الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» وحولها «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» وكانت هذه الكتابة تنقش على الدينار والدرهم على السواء

وابطل المسلمون استخدام النقود الرومية والفارسية وغيرها من ذلك الحين . واجود نقود بني أمية الهبيرية التي ضربها لهم عمر بن هبيرة والخالدية نسبة الى خالد بن عبد الله البجلي واليوسفية التي ضربها يوسف بن عمر وكلهم من عمال العراق لبني أمية . فلما افضت الخلافة لبني العباس لم يكن المنصور يقبل في الخراج من نقود بني أمية سواها

(ش ١٢) نقود عبد الملك بن مروان

وللنقود الاسلامية تاريخ طويل لامحل له هنا . وفي كتابنا «تاريخ مصر الحديث» رسوم اكثر النقود الاسلامية وأسماء ضاربيها . ولكننا نقول بالاجمال ان المسكوكات الاسلامية ضربت في كل عواصم الاسلام وفي أشهر مدنها في العراق والشام والاندلس وخراسان والهند وغيرها وكانت تختلف رسماً وسعة ونصاً باختلاف الدول والعصور

وكانت الكتابة على النقود تنقش بالحرف الكوفي ثم تحولت الى الحرف النسخي

الاعتيادي سنة ٦٢١ هـ في ايام العزيز محمد بن صلاح الدين الايوبي بمصر

(ش١٣) نقود العزيز بن صلاح الدين

ويظهر انهم لم يكونوا يذكرون اسم البلد التي ضربت النقود فيه الى اوائل القرن الثاني للهجرة . وكانوا اذا ذكروا تاريخ الضرب سبقوه بلفظ «السنة» ثم ابدلوها بلفظ «عام» وكثيرًا ما كانوا يقولون شهور سنة كذا او شهور عام كذا او في أيام دولة فلان وكان يكتب التاريخ اولا بالحروف على حساب الجمل ثم كتب بالارقام وأقدم ما عثروا عليه مؤرخاً بالارقام سنة ٦١٤ هـ

دار الضرب : وكانت دار الضرب ضرورية للدولة كما نراها ضرورية في هذه الايام اذ لا تخلو دولة من دول الارض المتمدنة من دار تضرب فيها النقود وكان ذلك شأن الدول الاسلامية في كل ادوارها ولم تكن تخلو عاصمة او قصبة من دار للضرب في بغداد والقاهرة ودمشق والبصرة وقرطبة وغيرها شيء كثير . وكان لدار الضرب ضريبة على ما يضرب فيها من النقود يسمونها ثمن الحطب واجرة الضراب ومقدار ذلك درهم عن كل مئة درهم اي واحد في المئة . وربما اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن . فكان للدولة من ذلك دخل حسن

واما مقدار ما كانت الدولة تضرب به من النقود فيختلف كثيرًا ويتعذر تقديره لاختلاف احوال السكة عندهم . فقد يمر على الدولة اعوام وهي تتعامل بنقود دولة أخرى ولا دار للضرب عندها . أو ربما كانت تضرب نقودًا في عاصمتها وتتعامل بنقود غيرها ايضاً مما لا يمكن ضبطه ولكننا نأتي بما اتصل بنا من هذا القبيل على سبيل المثال — فقد ورد في نفح الطيب ان مصلحة دار الضرب في الاندلس بلغ دخلها من ضرب الدراهم والدنانير على عهد بني مروان في القرن الرابع للهجرة ٢٠٠,٠٠٠ دينار في السنة وصرف الدينار ١٧ درهماً . فاذا اعتبرنا هذا الدخل باعتبار واحد في المئة عن المال المضروب بلغ مقدار ما كان يضرب في الاندلس وحدها من ممالك الاسلام ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار او نحو عشرة ملايين جنيه وذلك نحو ضعفي ما تضرب به دولة

الانكليز اليوم وهي في ابان مجدها . فاذا أضيف اليها ما كان يضرب في القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية وفي غيرها من المدن الاسلامية يومئذ كان مبلغ ذلك شيئاً كثيراً

وكانت صناعة ضرب النقود في تلك العصور لا تزال في أبسط أحوالها وهي عبارة عن طابع من حديد تنقش فيه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ثم يقسمون الذهب او الفضة اجزاءً بوزن الدنانير أو الدراهم و يضعون الطابع فوق تلك القطعة و يضربون عليها بمطرقة ثقيلة حتى تتأثر وتظهر الكتابة عليها . وكانت هذه الحديدة تسمى أولاً « السكة » ثم نقل هذا المعني الى اثرها في النقود وهي النقوش ثم نقل الى القيام على ذلك العمل والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها . ويدخل في دار الضرب كثير من الوظائف وفيها عدد كبير من العمال من الوازن والضارب وصاحب العيار وغيرهم

﴿ الطراز ﴾ : ومن شارات الخلافة أيضاً الطراز وهو قديم في الدول من عهد الفرس والروم . وذلك ان يرسم الملوك او السلاطين اسماءهم او علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير او الديباج او الابريسم كانها كتابة خطت في نسيج الثوب الحاماً وسدى بخيط من الذهب اوبما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ما يحكمه الصياغ بحيث تصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز للدلالة على ان لابسها من أهل الدولة من السلطان فما دونه كما هي الحال في لباس اجناد هذه الايام فترى على بعضهم شرائط القصب والازرار الصفراء ونحوها من علامات الرتب كرسوم التيجان والسيوف والنجوم ونحوها

وكان ملوك الفرس والروم يجعلون رسم ذلك الطراز بصور ملوكهم وأشكالهم او صور أخرى تشير الى الملك . فلما استقر المسلمون على عرش الاكاسرة والقياصرة وعظمت دولتهم احبوا الاقتداء بهم ولم يستحسنوا اتخاذ الصور لورود تحريمها في بعض الاحاديث النبوية فاعتاضوا عنها بكتابة اسمائهم وكلمات اخرى تجري مجرى الفأل او الدعاء

وأول من نقل الطراز الى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الاموي لان الخلفاء الراشدين ظلوا على سذاجة البداوة كما تقدم . فلما أفضت الخلافة الى بني امية وخالطوا الروم ساروا على خطواتهم في اكثر شؤون دولتهم وكان في جملة ذلك الطراز على أثوابهم وستور منازلهم وقراطيسهم (والقراطيس بردى مصرية كانوا يحملون بها الانية والثياب) فاتخذ المسلمون الطراز كما كان عند الروم والكتابة عليه بالرومية وظلوا على ذلك الى ايام عبد الملك بن مروان فجعله في العربية وبدأ بالقراطيس وكانت تنسج بمصر واكثر من في مصر لا يزال على النصرانية فكانوا يطرزونها بالرومية وطرازها « بسم الاب والابن والروح القدس » فظهر الاسلام وفتحت مصر والشام والطراز باق على ما كان عليه . وكيفية تنبه عبد الملك لذلك انه كان يوماً في مجلسه فمر به قرطاس فرأى عليه الطراز بالرومية فلاح له ان يستطلع فحواه فأمر ان يترجم بالعربية فلما وقف على الترجمة اكبر امرها وقال « ما أغلظ هذا في أمر الدين والاسلام ان يكون طراز القراطيس وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل مصر تدور في الافاق والبلاد وقد طرزت على هذه الصورة » ثم كتب الى اخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وغير ذلك وان يستبدلوا تلك العبارة بصورة التوحيد « لا اله الا هو » ففعل وظل هذا طراز القراطيس في سائر ايام الدول الاسلامية ولم يغير شيء في جوهره . وكتب عبد الملك الى عمال الافاق جميعاً بابطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من يخالف ذلك بالضرب الوجيع والحبس الطويل

فلما حملت هذه القراطيس الى بلاد الروم وعلم الامبراطور بخبرها وعلم ترجمة مافيها انكره واستشاط غيظاً فكتب الى عبد الملك « ان عمل القراطيس بمصر وسائر مايطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم فان كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت وان كنت قد أصبت فقد أخطأوا فاختر احدى الحالتين » وبعث اليه بهدية يسترضيه بها للرجوع الى الطراز . فرد عبد الملك الهدية وأخبر الرسول ان

لا ردّ عنده فأعاد اليه اضعافها وطلب الجواب . فلما لم يرد عليه جوابًا غضب الامبراطور وبعث يهدده بنقش سب النبي على النقود فكان ذلك داعيًا الى تنبه عبد الملك الى ضرب النقود الاسلامية الحقيقية كما تقدم

ذلك ما كان من أمر القراطيس والظاهر ان المسلمين تنبهوا للطراز على الاثواب من ذلك الحين فجعلوا على ملابس أجنادهم ورجال دولتهم شارة الخلافة وهي اسم الخليفة او لقبه او نحو ذلك . وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة وبنودها وكسائها يدل على بقاء سلطانها فاذا أراد احد الولاة الخروج من طاعة الخليفة قطع الخطبة له وأسقط اسمه من الطراز . كما فعل المأمون لما بلغه وهو على خراسان ان اخاه الامين نكث بيعته

وانشاء الخلفاء للطراز دورًا في قصورهم تسمى دور الطراز لنسج اثوابهم وعليها تلك الشارة وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز وهو ينظر في أمور الصياغ والآلة والحاكة فيها ويجري عليهم ارزاقهم ويشارف اعمالهم . وبلغت تلك الدور افخم احوالها في أيام الدولتين الاموية والعباسية . وكانوا يقلدون أعمال هذه الدور لخاصة دولتهم وثقات مواليهم . وكذلك كانت الحال في دولة بني أمية بالاندلس وفي الدولة الفاطمية بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم

ومن هذا القبيل ما كان يسمى في الدولة الفاطمية بدار الكسوة وكان يفصل فيها جميع انواع الثياب والبز . وقيمة ما كان يخرج منها من الكسى ٦٠٠,٠٠٠ دينار في العام وكانت خلعهم على الامراء الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب وكانت قيمة طراز الذهب والعمامة خمسماية دينار . وكانوا يفرقون الكسوات مرتين في العام مرة لتفريق كسوة الصيف ومرة لتفريق كسوة الشتاء الى جميع أهل الدولة من الخدم والحواشي من العمامة الى السراويل وقدروا عدد القطع التي صدرت منها سنة ٥١٦ ﻫ فبلغت ١٤,٣٠٥ قطع . وفي المقريزي فصل خاص في تعداد ضروب الالبسة التي كانت تفرق من تلك الدار

وما زالت دور الطراز في الدول الاسلامية على نحو ما تقدم حتى ضاق نطاق تلك

الدولة وضعف أمرها وتعددت فروعها فتعطلت هذه الوظيفة من اكثرها. ولكن الطراز نفسه لم يبطل في ملابسهم ولكنهم لم يعودوا يصنعونه في دورهم بل صاروا ينسجون ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير او من الذهب الخالص ويسمونه المزركش ويرسم اسم السلطان او الامير عليه . كذلك فعل السلاطين المماليك بمصر. ويشبهه في الدولة العثمانية رسم الطغراء العثمانية والشرائط المزركشة على البسة الضباط وغيرهم من رجال الدولة والعلامات الاخرى في الدول الاخرى

واما الهلال في الدولة العثمانية فلم نقف على ما يقابله في دول الخلفاء سوى ما كان يؤخذ من الوان الرايات عندهم واختصاص كل لون بدولة كما سيجيء. والظاهر انهم كانوا يطرزون اسماء الخلفاء او القابهم على راياتهم واسلحتهم كما كانوا يضربونها على نقودهم

(ش ١٤) اسم السلطان بيبرس الثاني على سيفه

فقد ذكر ابن خلكان في ترجمة العزيز بالله الفاطمي ان مملكته اتسعت وفتحت له حمص وحماه وشيزر وحلب وخطب له المقلد بن المسيب صاحب الموصل بالموصل وضرب اسمه على السكة والبنود . وفي كلام ابي الفداء عن استيلاء بجكم على بغداد انه اتصل بخدمة ابن رايق وانتسب اليه حتى كتب على رايته «الرايقي» فالظاهر ان تطريز الاسم على الرايات او البنود بعد ان كان خاصاً بالخلفاء في اوائل الاسلام شاع في اواخر الدولة بين الامراء وكل ذي سلطان

وكانوا يعدون من قبيل شارات الملك أيضاً السرير والمنبر والتخت والكرسي وذكروا من شارات الخلافة الآلة وهي الالوية والرايات والموسيقى وسيأتي الكلام عليها في باب الجند

ولاية الاعمال

﴿ الولايات قبل الاسلام ﴾ يراد بالولاية الامارة على البلاد فيولى السلطان او الملك من يقوم مقامه في حكومة الولايات وهي الاعمال في اصطلاحهم · وهذا النوع من الحكومة قديم · وكانت الشام لما فتحها المسلمون ولاية واحدة من ولايات الروم يسمونها ولاية الشرق وتقسم الى ١١ أقليماً تحت كل أقليم عدة بلاد ولكل أقليم قصبة وهاك اسماءها واسماء قصباتها وعدد المدن التابعة لها :

	اسماء الاقاليم	عدد بلادها	اسم قصبتها
١	سوريا الاولى	٩	انطاكية
٢	« الثانية	٧	حماة
٣	« الثالثة	١٣	منبج
٤	فينيقية الاولى او البحرية	١٢	صور
٥	« الثانية او اللبنانية	١٣	دمشق
٦	العربية · حوران	١٤	بصرى
٧	الجزيرة او بين النهرين	١٣	ديار بكر
٨	اسروانا	١٢	اورفا
٩	فلسطين الاولى		قيسارية
١٠	« الثانية	٦	بيسان
١١	« الثالثة		بطرا الحجرية

وكان لكل أقليم حاكم أو عامل والغالب ان يكون بطريقاً · والبطريق عند الروم غير البطريرك وانما هو لقب جماعة من اشراف المملكة الرومانية نشأوا بنشوء مدينة رومية وكان لهم نفوذ عظيم في دولة الرومان · وكانوا بعد انقسام المملكة الرومانية قد انحط شأنهم ولم يعد لهم عمل في الحكومة · فلما امتدت تلك المملكة الى افريقيا وسائر المشرق رأت الحكومة ان هذه الولايات البعيدة تحتاج الى من يتولاها ويكون له هيبة وسطوة فجعلوا يولونهم الحكومات في تلك المستعمرات وفي جملتها الشام ومصر وما يليهما

فكان على كل اقليم من اقاليم الشام حاكم يقيم في قصبتها ومعه الجند في القلاع وكان على كل هذه الاقاليم حاكم عام يقيم في انطاكية ولهذا الحاكم ان يولي ويعزل

من يشاء من حكام الاقاليم . وهو يتولى جباية الخراج والانفاق على الجند وسائر أعمال الولاية . وكانت مصر أيضاً على نحو هذا النظام من حيث الانقسام الى اقاليم وبلاد . وحاكمها العام كان يقيم في الاسكندرية

وكانت العراق وبلاد فارس ايضاً على نحو هذا النظام وربما كان ولاتها اكثر تقيداً من ولاة الشام ومصر لقرب دار الملك منهم

﴿ الولايات في الاسلام ﴾ : فلما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح كانوا اذا ارسلوا قائداً الى فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه او شرطوا عليه اذا فتحه فهو أمير عليه . وكان ذلك شأنهم من أيام النبي فانه أرسل في السنة الثامنة للهجرة أبا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما « ان أجاب القوم الى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وأبو زيد علي الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » وكان كذلك

فلما تولى أبو بكر وبعث البعوث لفتح الشام كان اذا عقد لاحدهم لواء على بلد او اقليم ولاه عليه قبل ذهابه لفتحه — كذلك فعل في أول بعث بعثه وهم ثلاثة فعقد لواء لعمرو بن العاص وأمره ان يسلك طريق ايلة عامداً الى فلسطين وعقد لواء آخر ليزيد بن أبي سفيان وأمره ان يسلك طريق تبوك الى دمشق وعقد لشرحبيل بن حسنة على ان يسير في طريق تبوك أيضاً الى الاردن وولى كل واحد منهم البلد الذي هو سائر لفتحه وقال لهم « اذا كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله »

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ولى أبا عبيدة ابن الجراح أمر الشام كله وأمرة الامراء في الحرب والسلم . فأشبه عمله هذا ما كانت عليه الشام قبل فتحها وهي ان يكون على كل اقليم عامل وعلى عمال الاقاليم وال عام كما رأيت . ولكن حاكم الروم العام كان يقيم في انطاكية فاختار المسلمون دمشق بدلاً منها لبعدها عن البحر وقربها من بلاد العرب عملاً برغبة عمر بن الخطاب ان لا يقيم المسلمون في مكان يحول بينه وبينهم ماء كما تقدم

وكانت ولاية الاعمال في بادئ الرأي أشبه بالاحتلال العسكري منه بالتملك .

وكان العمال أو الولاة عبارة عن قواد الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة بما يعبرون عنه بالرابطة أو الحامية · وكانت الجنود الاسلامية منقسمة الى قوات تقيم في محطات عسكرية باماكن أقرب الى طريق الصحراء منها الى السواحل للاسباب التي قدمناها · فكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم في دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد · وقوات العراق كانت تقيم في الكوفة والبصرة · وقوات مصر في الفسطاط وضواحي الاسكندرية · ولم يكونوا يسكنون القرى ولا المدن ولا يختلطون بالاهالي وقد منعهم الخليفة عمر بن الخطاب من اتخاذ الزرع وشدد عليهم في ذلك · فكانوا يقيمون في معسكراتهم الى زمن الربيع فيسرحون خيولهم بالمرعي في القرى يسوقها الاتباع ومعهم طوائف من السادات · وكانوا كثيري العناية بتربية خيولهم وأسمانها · ومن أقوال عمرو بن العاص لجنده في مصر « لا أعلمن ما أتى رجلاً قد أسمن جسمه واهزل فرسه واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك »

وكان عمرو بن العاص اذا جاء الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم الى حيث احبوا فتتفرق العرب في القرى حسب راياتهم وقبائلهم وخصوصاً في منوف وسمنود واهناس وطحا · فكانت قرى مصر كلها في جميع الاقاليم مملوءة بالقبط والروم · ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المئة الاولى من تاريخ الهجرة ثم تضاعف في أواسط المئة الثانية · ولكنهم لم يقووا الا في المئة الثالثة — يؤيد ذلك ان المسلمين لم ينشئوا في القرى مساجد قبل ذلك الحين وان القبط كانوا اذا انتقضوا اتعبوا المسلمين ولا يهون على هؤلاء اخضاعهم · وما زالوا في ذلك حتى أوقع المأمون بهم سنة ٢١٦ﻫ وجعل الاسلام ينتشر في القرى · وقس على ذلك حال الاندلس لما فتحوها سنة ٩٢ ﻫ فانهم اقروا أهلها على ما كانوا عليه ادارياً وسياسياً ودينياً وتركوا لهم أعمال الحكومة وادارة شؤونها وانما أبقوا لانفسهم الرئاسة العامة وقيادة الجند — هكذا كانت حال الاعمال الاسلامية في أوائل الاسلام الا ما قرب منها من مركز الخلافة كالشام في أيام بني أمية والعراق في أيام بني العباس

فكان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند الذين افتتحوا تلك الاعمال وواجباتهم بالاكثر مراقبة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج . وقد رأيت في غير هذا المكان ان أعمال الحكومة في البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق ظلت سائرة على ما كانت عليه قبل الفتح الى أواسط ايام بني أمية . و بدأت ولايات الاعمال تتحول الى حكومات محلية من أواخر دولة الراشدين حتى كانت ايام عبد الملك بن مروان فأتم السيطرة الاسلامية بنقل الدواوين الى العربية وتسليمها الى رجال من المسلمين . ثم تنوعت الولايات وصارت درجات متفاوتة على ما اقتضاه الزمان والمكان ولكنها ترجع الى امارتين : امارة عامة وامارة خاصة والامارة العامة ضربان امارة استكفاء وامارة استيلاء

﴿ امارة الاستكفاء ﴾ فامارة الاستكفاء أو امارة التفويض هي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختارهُ من رجالهِ الاكفاء فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع أهلهِ ويجعلهُ عام النظر في كل اموره ويشتمل نظره فيه على سبعة أمور (١) تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير ارزاقهم (الاَّ اذا كان الخليفة قدرها) (٢) النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام (٣) جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما (٤) حماية الدين والدفاع عن الحريم (٥) اقامة حدود الشرع (٦) الامامة في الصلوات (٧) تسيير الحج . واذا كان الاقليم المشار اليه متاخماً لعدوّ ترتب على العامل امر ثامن وهو جهاد ذلك العدو وقسمة الغنائم في المقاتلة وأخذ خمسها لاهل الخمس كما هو مفصل في باب الجند والمال . وكان أكثر ولايات الاسلام على هذه الصورة وخصوصاً لما يبعد من الاقاليم عن مركز الخلافة كالعراق في أيام بني أمية ومصر والشام في أيام بني العباس وخراسان في كليهما

ومن أشهر عمال الاستكفاء في أيام بني أمية في العراق زياد بن أبيه وابنه عبيد الله وبشر بن مروان والحجاج بن يوسف ويزيد بن المهلب ومسلمة بن عبد الملك وعمر بن هبيرة وخالد بن عبدالله القسري ويوسف بن عمر الثقفي وعبد الله بن عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عمر بن هبيرة وكانت تسمى امارة كل منهم « امارة العراقين » لاشتمالها على الكوفة والبصرة . فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف في امارته تصرف الملوك المستقلين

بالكيفية التي قدمناها فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته ويجبي الاموال منها على جنده وفي ما تقتضيه فينفق العمارة من اصلاح الجسور واحتفار الترع ونحو ذلك ويرسل ما يبقى عنده الى بيت المال في الشام

وكانت الحال نحو ذلك في مصر فقد كان عاملها من عمال الاستكفاء من عهد عمرو بن العاص فما بعده • وربما كان عاملها اكثر استقلالاً من سواه وخصوصاً عمرو بن العاص لما تولاها المرة الاخيرة بامر معاوية بعد ان نصرهُ على علي • وربما فعل معاوية مثل ذلك بزياد بن أبيه لما ولاه خراسان وبالمغيرة بن شعبة لما ولاهُ الكوفة رغبة منه في اطماع هؤلاء الدهاة كما تقدم

ولما أفضت الخلافة الى بني العباس ساروا على نحو هذه الخطة ولكنهم قلما كانوا يجعلون امر العراق مفوضاً للعمال لقربه من مركز الخلافة على انهم كانوا يفوضون العمال في الاقاليم البعيدة كالشام ومصر وخراسان وسائر ما وراء العراق نحو الشرق الى اقصى بلاد الترك وما وراء النهر • ولما تمكن البرامكة من الدولة وغلب نفوذهم فيها ولى الرشيد احدهم جعفر بن يحيي الغرب كلهُ من الانبار الى افريقيا وقلد أخاه الفضل بن يحيي الشرق كله من شروان الى اقصى بلاد الترك سنة ١٧٦ هـ فاقام جعفر بمصر وارسل العمال بامره الى الشام وافريقيا وغيرهما • واما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل خراسان فأصلح وبدل واستخلف عمالاً وعاد الى العراق • وكثيراً ما كان الخلفاء يفوضون الى بعض خاصتهم عملاً من الاعمال فيرسل هذا من يقوم مقامه في ذلك العمل ويبقى هو في بلاد الخليفة واكثر ما كان يقع ذلك في الدولة العباسية • وكانت امارة الاستكفاء هذه من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة • لان الوالي كان يقيم في ولايته كانه ملك مستقل الا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج الى الخليفة والخطبة له وضرب النقود باسمه وأموراً اخرى لا تضغط على ارادته • فاذا كان الوالي ذا دهاء وآنس من الخليفة ضعفاً جمع أهل الاقليم على ولائه واستقلَّ بعمله اما استقلالاً تاماً واما على مال معين يبعث به الى الخليفه ببغداد او على شروط اخرى • وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبة في افريقية وابن طاهر في خراسان وابن طولون في مصر ولكن تلك الاقاليم ما زالت تعد امارات عباسية ويعبرون عنها بامارة الاستيلاء

﴿ امارة الاستيلاء ﴾ ويراد بامارة الاستيلاء ان يعقد الخليفة لامير على اقليم

اضطراراً بعد ان يستولي الامير على ذلك الاقليم بالقوة • فكان الخليفة يثبته في امارته ويفوض اليه تدبير سياسته • فيكون الامير باستيلائه مستبدًّا بالسياسة والتدبير والخليفة باذنه منفذاً لاحكام الدين • ولهذه الامارة شروط تفرض على الامير في مقابل ذلك وهي (١) حفظ منصب الامامة في خلافة النبوة وتدبير أمور الملة (٢) ظهور الطاعة الدينية (٣) اجتماع الكلمة على الالفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على سواهم (٤) ان تكون عقود الولايات الدينية جائزة والاحكام فيها نافذة (٥) ان يكون استيفاء الاموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها (٦) ان تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق (٧) ان يهتم الامير في حفظ الدين • ولامير الاستيلاء ان يستخدم الوزراء وغيرهم • ومن هذه الامارات ما انتهت اليه الدولة العباسية من التشعب وظهور الدول الصغرى فيها كالدولة الطاهرية والحمدانية والبويهية والغزنوية والطولونية والاخشيدية وغيرها • وكلها كانت امارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر وتضرب السكة باسمه وترسل اليه مالاً معيناً في السنة يتم الاتفاق عليه • وهو الذي يثبت امراءها ويكون الحكم متسلسلاً في اعقابهم على نحو حال الخديوية المصرية بالنظر الى الدولة العلية العثمانية

﴿ الامارة الخاصة ﴾ واما الامارة الخاصة فهي ان يكون الامير فيها مقصوراً على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة • وليس لهُ ان يتعرض للقضاء او الاحكام او لجباية الخراج او الصدقات في شيء حتى الامامة في الصلاة فربما كان القاضي اولى بها منه • والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي وهم يؤدون اعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه • والامارات الخاصة كانت قليلة في ابان الدولة العباسية

﴿ رواتب العمال ﴾ اما رواتب العمال فقد قدرها عمر بن الخطاب بعد تدوين الدواوين وتقدير ارزاق الجند • واول ما فعل ذلك لما وجه عمار بن ياسر الى الكوفة وولاهُ صلاتها وجيوشها فجعل له ستمائة درهم في الشهر وعين الرواتب لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه • فبعث عثمان بن حنيف على مساحة الارض وعبدالله بن مسعود على قضاء الكوفة وشريحاً على قضاء البصرة واجرى على عثمان ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم • وجعل عطاءه خمسة آلاف درهم في السنة • واجرى على عبد الله مائة درهم في الشهر وربع شاة في اليوم • واجرى على شريح ماية درهم

وعشرة اجربة في الشهر • فترى مما تقدم انه فضل عمار بن ياسر عليهم أجمعين لانه كان على الصلاة والجند وهي الامارة يومئذ • ولما ولى عمر معاوية بن أبي سفيان على الشام جعل له الف درهم كل سنة • وكان عمر يشدد في محاسبة العمال فاذا رآهم ربحوا مالاً من شيء قاسمهم واخذ النصف لبيت المال

واما بنو امية فقد نال عمال الاقاليم في ايامهم امتيازات كثيرة منحهم اياها معاوية ترغيباً لهم في البقاء على ولائه • فولى زياد بن أبيه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد • وفعل نحو ذلك في عمرو بن العاص بمصر وجرى العباسيون على نحو ذلك فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته واهميته

الوزارة

وامير الامراء والسلطان

الوزارة اسمى الرتب السلطانية وليست من محدثات الاسلام بل هي فارسية الاصل اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية . اما اذا أريد بالوزارة استعانة الخليفة بمن يشدّ ازره أو يعاونه في الحكم فهي تتصل بصدر الاسلام . لان النبي نفسه كان يشاور أصحابه و يفاوضهم في مهماته العامة والخاصة و يختص أبا بكر بخصوصيات أخرى . حتى ان العرب الذين خالطوا الروم والفرس قبل الاسلام كانوا يسمون أبا بكر وزيره وكذلك كان شأن عمر مع أبي بكر وشأن علي وعثمان مع عمر ولكن لفظ الوزير لم يكن يعرف بين المسلمين في سذاجة الاسلام

على ان بني أمية لما جعلوا الخلافة ملكاً وأصبح معتمدهم في استبقاء ملكهم على السياسة والدهاء احتاجوا الى من يستشيرونهم و يستعينونهم في امور القبائل والعصائب واستيلافهم واصطناع الاحزاب منهم فاستخدموا اناساً لنحو ذلك الغرض وهي الوزارة بمعناها . ولكن يظهر انهم لم يكونوا يسمون صاحب هذه الرتبة الوزير . فانقضت دولة بني أمية والوزارة تشمل النظر في نحو ما تقدم

فلما افضت الخلافة الى بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وأضيف اليها النظر في ديوان الحسبان ثم النظر في المكاتبات لصون أسرار الخليفة فاصبحت الوزارة شاملة لخطتي السيف والقلم

وأول وزراء بني العباس أبو سلمة حفص بن سليمان الهمداني وزير أبي العباس السفاح وهو أول من سمي وزيراً في الاسلام . قال ابن خلكان ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا في دولة بني أمية ولا في غيرها . وكان يسمى أبو سلمة وزير آل محمد كما يسمى ابو مسلم الخراساني امير آل محمد وكلاهما فارسيان . والعباسيون أول من اركن الى الوزراء فسلموا اليهم امور الدولة وجميعهم من الفرس . وأشهر وزرائهم البرامكة وقد استفحل أمر استبدادهم في الدولة حتى اضطر الرشيد الى الفتك بهم في نكبتهم المشهورة

وتقلبت على الوزارة احوال جمة في أيام بني العباس . ففي القرن الرابع للهجرة أضيف الى اسم الوزير لقب « صاحب » وأول من لقب به منهم أبو القاسم اسماعيل ابن أبي الحسن عباد بن العباس وكان أولاً وزير مؤيد الدولة بن بويه وعرف بالصاحب وصار كل من تولى الوزارة بعده يسمى الصاحب

وأخذ نفوذ الوزارة في بني العباس يتقلص بتقلص نفوذ الخلفاء حتى استبد العمال في الاعمال وتفرعت المملكة العباسية فاصبحت الوزارة كالخلافة اسماً بلا مسمى فاسقطوها وابدلوها بامرة الامراء

﴿ أمير الامراء ﴾ هو لقب منحه الخلفاء العباسيون لبعض الدول الاسلامية الصغرى التي تفرعت من الدولة العباسية في القرن الرابع للهجرة وما بعده من بني حمدان وبني بويه . وقد يكون أمير الامراء ملكاً أو مثل ملك . وأول من لقب به ابن رائق من بني حمدان وكان أمير البصرة وواسط فجعله الراضي أمير الامراء سنة ٣٢٤ﻫ وفوض اليه تدبير المملكة وأمر ان يخطب له على المنابر وخلع عليه واعطاه اللواء وكانوا يسمونه أيضاً ملك بغداد أو سلطان بغداد . وما زال هذا اللقب في بني بويه الى سنة ٤٤٩ ﻫ فانتقل الى السلاجقة الاتراك وأولهم طغرل بك ثم صار خلفه

الب ارسلان من أعظم ملوك زمانه وظل هذا اللقب في السلاجقة الى سنة ٥٤٧ ﻫ وسقط بسقوط دولتهم في بغداد . وكان بنو بويه لما استفحل أمرهم يولون أمير الامراء من عند انفسهم ولم يتركوا للخلفاء الا نائباً يسمى رئيس الرؤساء ثم عاد الخلفاء في ايام السلاجقة الى تولية أمير الامراء

ومن تدبر تاريخ منصب الوزارة في الدولة العباسية يتبين له انها كانت من جملة أسباب انحلال هذه الدولة لان الخلفاء سلموا مقاليد الحكومة الى وزرائهم وتقاعدوا عن أمور السياسة فأصبحوا بتوالي الاجيال عاجزين عنها

وأما في الدول الاخرى فالدولة الفاطمية بمصر أول وزرائها يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله سنة ٣٦٣ ﻫ . والدولة الاموية في الاندلس كانت الوزارة فيها كما كانت في أيام امويي الشام — كانت مشتركة في جماعة يعينهم الخليفة للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير في دولة بني العباس فيسميه الحاجب ثم سمي الوزير وكانت الرتبة عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة كما كان شأن البرامكة في بغداد

﴿ وزارة التفويض ﴾ : كانت الوزارة وزارتين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ مثل امارة الاعمال . فوزارة التفويض ان يستوزر الخليفة رجلاً يفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضائها على اجتهاده . فيتولى الوزير كل شيء يمضيه عن الخليفة الا ثلاثة أشياء (١) ولاية العهد فان للخليفة ان يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير (٢) للخليفة ان يعزل من قلده الوزير وليس للوزير ان يعزل من قلده الخليفة (٣) للخليفة ان يستعفي الامة من الامامة وليس ذلك للوزير . ومن وزراء التفويض آل برمك ويحيى بن اكثم وابن الفرات وغيرهم في الدولة العباسية . وأمير الجيوش في الدولة الفاطمية . وقد بلغ من تفويض بني العباس لوزرائهم انهم كثيراً ما كانوا يسلمون اليهم خاتم الخلافة يختمون به الكتب دونهم . وفي حكاية الرشيد مع جعفر والفضل يوم أخذ الخاتم من جعفر وسلمه الى الفضل دليل قاطع على مقدار نفوذهم ناهيك بحكاية جعفر بن يحيى البرمكي مع عبد الملك بن صالح . وكان جعفر في

مجلس لهو فدخل عبد الملك بن صالح (ابن عم الرشيد) عليه وفيما هم في الطرب قال جعفر لعبدالملك « هل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة على ما صنعت » قال « بلى ان في قلب أمير المؤمنين بعض تغير عليّ فتسأله الرضى عني » فقال جعفر « قد رضي عنك أمير المؤمنين » قال « وعلي عشرة آلاف دينار » فقال جعفر « هي حاضرة لك من مالي ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » قال « وأريد ان أشد ظهر ابني ابراهيم بصاهرة من أمير المؤمنين » قال « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » قال « واحب ان تخفق الالوية على رأسه » قال « وقد ولاه أمير المؤمنين مصر » ثم انصرف عبدالملك بن صالح . وقد أقدم جعفر على ذلك كله من غير استئذان . وفي الغد دخل جعفر على الرشيد فقال له الرشيد « كيف كان يومك يا جعفر بالامس » — قال جعفر : فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك بن صالح وكان الرشيد متكأً فاستوى جالساً وقال « لله أبوك ما سألك » قلت « سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين » قال « بم اجبته » قلت « قد رضي عنك أمير المؤمنين » قال « قد رضيت عنه ثم ما ذا » قلت « وذكر ان عليه عشرة آلاف دينار فاجبته قد قضاها عنك أمير المؤمنين » قال « وقد قضيتها عنه ثم ماذا » قلت « ورغب ان يشد أمير المؤمنين ظهر ولده ابراهيم بصاهرة منه فقلت له قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية » قال « قد أجبته الى ذلك » ثم ماذا قلت « قال واحب ان تخفق الالوية على رأسه فقلت قد ولاه امير المؤمنين مصر » قال « قد وليته اياها » ثم نجز له جميع ذلك من ساعته

وكثيرًا ما كان الخلفاء يقلدون وزراءهم مع الوزارة منصباً آخر مهماً كما تقلد الفضل بن سهل رئاسة السيف مع الوزارة فسموه ذا الرئاستين

﴿ وزارة التنفيذ ﴾ وأما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصورٌ على تنفيذ مايراه الخليفة فيكون الوزير واسطة بين الخليفة وبين الرعية فيمضي مايأمره الخليفة به من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم . خلافاً لوزير التفويض فانه يولي ويعزل كما يشاء ويقضي ويمضي بلا حد ولا

قياس . ويجوز للخليفة ان يستوزر وزيري تنفيذ أحدهما للحرب مثلا والآخر للخراج ولكنه لا يستوزر الا وزيرًا واحدًا تفويضياً

﴿ راتب الوزير ﴾ اما راتب الوزير فقد كان يختلف باختلاف الاعصر واختلاف الاشخاص . ولكن الوزراء لم تكن نفقاتهم تقتصر على رواتبهم لان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لاخوتهم وأولادهم وحواشيهم . واليك الوزير في الدولة الفاطمية وما يلحقه من رواتب أهله وأتباعه

الوزير	راتبه في الشهر	٥،٠٠٠ دينار
لكل واحد من أولاده واخوته	« «	٢٠٠ — ٣٠٠ «
لكل واحد من حواشيهم	« «	٣٠٠ — ٥٠٠ «

كل ذلك ماعدا الاقطاعات وما كان يدفع اليهم في المواسم من الهدايا وما يخلع عليهم من الخلع في الاعياد ونحوها . فربما بلغ راتب الوزير وتوابعه بما يلحقهم من الاقطاع نحو ١٠٠،٠٠٠ دينار في السنة

﴿ السلطان ﴾ كان هذا المنصب في اول امرهِ لقباً لوزراء الدولة العباسية يلقبون به على سبيل التفخيم بامر الخلفاء كما تقدم . وذكر ابن خلدون ان جعفر بن يحيى دعي سلطاناً . ويظهر من مجمل ما نقرأه في كتبهم انهم يطلقون لفظ السلطان على والي بغداد او والي الشام ولعله رئيس الشرطة او مايشبه المحافظ اليوم . وقد يريدون بالسلطان الخليفة نفسه . وكل ذلك من قبيل المجاز ونحوه ولم تصر السلطنة رتبة رسمية الا في ايام محمود الغزنوي ابن سبكتكين وهو اول سلطان في الاسلام . سمي به في اواخر القرن الرابع للهجرة بدلاً من لقب امير الامراء الذي ذكرناهُ وكأَنه ابتذل كما ابتذل اسم الوزير قبله فأبدلوه بلقب سلطان . وصار بعد ذلك لقباً لملوك الاتراك والأكراد والجراكسة وغيرهم من السلاجقة والايوبية والمماليك والعثمانيين . والوزارة لم يكن الارث شرطاً فيها فلما صارت الى السلطنة صار الارث شرطاً فيها والسلطان يعهد الى ولي عهده قبل موته

وذكر ابن خلكان في ترجمة الرازي الطبيب ان الملوك السامانية كانوا يسمون ملكهم « سلطان السلاطين » والملوك السامانية قبل الغزنوي — فالظاهر ان هذا اللقب كان معروفاً من قبل . فاذا صح ذلك كان لقب الغزنوي موروثاً عنهم ولكننا رأينا لبعض

الباحثين كلاماً في شأن هذا اللقب يرجح قولنا الاول • والاَّ فربما كان ذلك اللقب عند السامانية قبل اعتناقهم الاسلام • فيكون محمود أول سلطان في الاسلام والله اعلم

وكان الخلفاء هم الذين يولون السلاطين وان كانت القوة في ايدي هؤلاء ولكنهم كانوا يعتبرون ذلك من وجهه الديني • وكانوا يحتفلون بتوليته احتفالاً شائقاً فيخلع الخليفة عليه سبع خلع ويلبسه طوقاً وتاجاً وسوارين ويعقد له اللواء ويقلده السيف ويخطب له • ومن امثلة ذلك احتفال الخليفة المستظهر بالله بتولية محمد بن ملكشاه في بغداد بحضور اخيه سنجر • فان الخليفة جلس لهما في قبة التاج على سدته وعلى كتفه بردة النبي وعلى رأسه العمامة وبين يديه القضيب وأفاض على محمد بالخلع والبسه الطوق والتاج والسوارين وعقد له اللواء بيده وقلدهُ سيفين واعطاه خمسة افراس بمراكبها وخطبوا له بالسلطنة في جامع بغداد • وكانوا يلقبون السلاطين يوم الاحتفال بتوليتهم القاباً تشير الى تأييد الخلافة بهم مثل ناصر الدولة وسيف الدولة وعضد الدولة ونحو ذلك

الجنـد وتوابعه

تاريخ الجند

﴿ أصل الجند ﴾ كان الناس في أوائل أدوار تمدنهم قبائل جندها رجالها اذا احتاجت الى قتال اجتمع الرجال من كل قبيلة بلا نظام ولا ترتيب وينال كل واحد من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة بطشه . فلما تحضر الناس وتقاسموا الاعمال ونشأت الدول كان من أقدم المهن عندهم الكهانة والجندية . وأول دولة نظمت الجند الدولة المصرية الفرعونية . فقد جندت جيشاً من الزنوج والاحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد اخضعت بهم سكان سواحل البحر الاحمر . ثم انتشر امر التجنيد في الدول القديمة في اشور وبابل وفينيقية واليونان فالرومان فالاسلام

وكان نظام الجند عند الفراعنة الصفوف المتعاقبة المتراصة وعلى انقاضهم كثير من صور هذه الصفوف . واقتبس اليونان عنهم هذا النظام مع بعض التعديل

فانشأوا الكتائب وهو ما يعبر عنه في لسانهم بهذا اللفظ Phalanx وهو ان تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة . وكانت الكتيبة تتألف من ٤,٠٠٠ رجل يتراص رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة اقدام في صفوف متعاقبة الواحد وراء الآخر فجعلها فيلبس المكدوني ضعفي ذلك ثم جعلها ابنه الاسكندر أربعة اضعافه وقارب ما بين الرجال حتى كادت تتماس اكتافهم وتترابط تروسهم . واصطنع لهم رماحاً طول بعضها ٢٤ قدماً . وتكون رماح الصف الامامي قصيرة ورماح ما وراءه أطول فأطول حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة اقدام نحو الامام . وكان فيلبس قد نظم فرقة من الفرسان فأضاف ابنه اليها آلات الحرب وفي جملتها المنجنيق — وبهذا النظام تغلب الاسكندر على العالم في القرن الرابع قبل الميلاد

﴿ جند الروم ﴾ فلما نشأت دولة الرومان اقتبست نظام الكتائب عن اليونان وادخلته في جندها . وكان الجيش الروماني في أبان الدولة مؤلفاً من فرق عدد رجالها ٦٠٠٠ تتألف كل منها من ثلاث طبقات من الرجال (١) الشبان ومنهم من يتألف الصف الاول من الكتيبة في الحرب (٢) الكهول في الصف الثاني (٣) أهل الدربة والحنكة ويتألف منهم الصف الثالث . وكان يلحق كل فرقة عندهم كوكبة من الفرسان تتقلد السهام والمقاليع والمزاريق لمشاغلة الاعداء عن حرب المشاة

ثم قسم الرومان الفرق الى كراديس بلا تقييد بالصف فجعلوا الفرقة عشرة كراديس والكردوس ثلاثة أقسام وكل قسم فصيلتان عدد رجال كل منهما مئة رجل وهذا النظام يخالف نظام الكتائب المتقدم ذكره بان لا يتقيد الجند بصف واحد او كتيبة واحدة بل يكون عدة كتائب كل كتيبة منه كردوس وسيأتي تفصيل ذلك وظل نظام الجند الروماني في حروبه على هذه الصورة الى الفتح الاسلامي

ولما ظهر الاسلام كانت جنود الروم ١٢٠,٠٠٠ يقود كل عشرة آلاف منها قائد يغلب ان يكون بطريقاً وتحت البطريق ضابطان يسمى كل منهما طومرخان Τουρμαρχαι ويتولى قيادة ٥٠٠٠ وتحت الطومرخان خمسة طرنجارية Drungrii كل واحد يقود الف رجل . وتحته خمسة قوامس وأحدهم قومس Comes يتولى

قيادة ٢٠٠ جندي وتحت القومس قمطرخ Centuriones وتحته الدامرخ . وهذا تحته عشرة رجال . وترى في هذا النظام مشابهة كلية بنظام جند هذه الايام

(ش ١٥) قواد الروم واجنادهم وآلاتهم واسلحتهم

وأما الفرس فقد كان جندهم اربع طبقات الاولى طبقة القوادالعظام ويسمى واحدهم ميرميران تحته أربعة قواد يسمى كل منهم اصفهبذ وتحت كل أصفهبذ اربعة مرازبة وتحت كل مرزبان اربعة سالارية وتحت كل سالار عشرة اساورة (وهم الفرسان المفردة) وخمسة من الرجال المشاة ويسمونهم البيادة

﴿ جند العرب ﴾ اما العرب قبل الاسلام فقد كانوا أهل بداوة لا نظام للجند عندهم وانما كانوا قبائل اذا أرادت احداهن حرباً جردت رجالها وفيهم الفرسان والمشاة ومعهم الاسلحة المعروفة في الجاهلية كالقوس والرمح والسيف . الا ما كان من نظام الجند في الدول العربية التي تمدنت قبل الاسلام كالتبابعة ملوك حمير والمناذرة ملوك الحيرة فقد ذكروا للمناذرة كتيبتين من الجند تسمى أحداهما الدوسر والاخرى الشهباء . وأما عرب الحجاز فقد كانوا قبل الاسلام على الفطرة البدوية كما قدمنا

فلما ظهر الاسلام انفرد المسلمون عن سائر العرب واتحدوا بجامعة الدين يداً واحدة

في محاربة اعدائهم فكانوا كلهم جنداً كبيرهم وصغيرهم . واول جنود المسلمين المهاجرون فلما جاؤوا المدينة اتحدوا بالانصار وصاروا جميعاً جنداً واحداً قائدهم النبي بنفسه ورابطتهم المعاهدة والمواخاة وعددهم يومئذ قليل جداً

ثم جعلوا يزدادون بالفتح والغزو في ايام النبي وأبي بكر بما انضم اليهم من قبائل العرب في الحجاز واليمن ونجد واليمامة كباراً وصغاراً تجمعهم جامعة الاسلام حتى تكاثروا فتكاتفوا وحملوا على الشام والعراق ومصر ففتحوا البلاد ومصروا الامصار وانقسموا الى اجناد يقيم بعضها في مصر و بعضها في الشام وبعضها في العراق في محطات خاصة بهم . وكان جند كل محطة ينقسم باعتبار القبائل والبطون فكانت البصرة مثلاً خمسة أقسام تسمى الاخماس يقيم في كل خمس منها قبيلة من قبائل المسلمين وهم الازد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية (قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة) وكانوا يسمون أهل العالية والكوفة أهل المدينة . وكان على كل خمس امير من أمراء تلك القبائل . وقس على ذلك سائر اجناد المسلمين في الكوفة والفسطاط مما مصره المسلمون او في غيرهما من مدن العراق والشام ومصر فقد كان لهم في كل اقليم جند ينقسم على نحو هذه الكيفية

كل ذلك والمسلمون كلهم جند محارب لا يعمل أحد منهم عملاً وقد نهاهم عمر بن الخطاب عن الزرع كأنه رآهم بعد ان فتحت لهم الامصار ورأوا خصب الارض قد مالوا الى الرخاء والتقاعد عن الحرب فأمر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعون . ولعله اراد بذلك ان لا يتوطنوا في بلد اذ ربما مست الحاجة الى تجنيدهم لنجدة اخوانهم في بلاد أخرى او لحماية بعض الامصار فلا يثقل عليهم ذلك

اما تنظيم الجند فئة خاصة دون سائر فئات المسلمين فقد بدأ بايام عمر عند تدوين الدواوين كما سيأتي وتم في أيام بني أمية . ويظهر ان التجنيد الالزامي بدأ في أواسط هذه الدولة وكان الناس من قبل يذهبون الى الحرب جهاداً في سبيل الدين فيصيبون الغنائم والفيء فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان (سنة ٣٥ هـ) اشتغلوا

بالحرب فيما بينهم مدة وكل طائفة تندفع الى ذلك دفاعاً عن رأيها واعتقادها بانها تدرأ عن الحق . فلما أفضى الامر الى بني أمية وصار المسلمون دولة واحدة وضعفت قوة الاحزاب بتغلب العنصر الاموي لم يعد الناس يرون ما يدفعهم الى الحرب طوعاً فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء الى التجنيد بالالزام . ولعل أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف على عهد عبدالملك بن مروان . وكانت الدولة الاموية قد بلغت ذروة مجدها وكثر المسلمون ومالوا الى العمل في الارض واطلق لهم السراح . وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب في أيام معاوية فغلبهم بدهائه وعطائه . فلما تولى ابنه يزيد ثم معاوية الثاني ثم مروان بن الحكم ولم يكن فيهم من يملك القلوب أو الاعناق تجرأ الجند على التقاعد . فتولى عبد الملك الخلافة والجند على ما تقدم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله . فشكا ذلك الى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له « يا أمير المؤمنين ان في شرطتي رجلاً لو قلده أمير المؤمنين عسكره لارحلهم برحيله وانزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف » فاطاعه عبد الملك وقلد الحجاج أمر العسكر . وكان شديداً عاتياً فلم يعد أحد يتخلف عن الرحيل والنزول الا اعوان روح بن زنباع . فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام . فقال لهم « ما منعكم ان ترحلوا برحيل أمير المؤمنين » فقالوا له « انزل يا ابن اللخناء فكل معنا » فقال « هيهات ذهب ما هنا لك » ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وأمر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار . فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً فقال له « مالك » فقال « يا أمير المؤمنين الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي ضرب عبيدي واحرق فساطيطي » قال « علي به » فلما دخل عليه قال « ما حملك على ما فعلت » قال « ما انا فعلته يا أمير المؤمنين » قال « ومن فعله » قال « انت والله فعلته انما يدي يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين ان يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدمني له » فاخلف الخليفة لروح بن زنباع ما ذهب له وتقدم الحجاج في منزلته وكان ذلك أول ما عرف من كفايته

فيشبه ان يكون ذلك اول تاريخ التجنيد الالزامي. ثم صار سنة واصبح الجند الاسلامي فئتين المرتزقة والمتطوعة وكلاهما عرب يرجعون في انسابهم أما الى قحطان وهم اليمنية او الى عدنان وهم المضرية وفيهم جماعة من الموالي او العبيد

﴿ جند الاعاجم في الاسلام ﴾ فلما تولى بنو العباس واحتاجوا الى موازرة الاعاجم في تأييد سلطانهم دخل في جند العرب جماعات منهم . واول من دخل في الجند الاسلامي منهم آل خراسان لانهم هم الذين نصروا العباسيين في دعوتهم وسلموا اليهم أزمة الخلافة بقيادة أبي مسلم الخراساني . فكانت فرق الجند في أيام المنصور ثلاثاً اليمنية والمضرية والخراسانية. ثم أضيف اليها فرقة رابعة هي فرقة الحرس الخاص اتخذها الخلفاء خوفاً مما كانوا ينصبونه لهم من الحبائل و يقيمون عليهم من الثورات . ومن غريب هذه الاعمال ان الامر الذي اراد الخلفاء ان يحفظوا سلطانهم به كان علة خروج ذلك السلطان منهم

ولما افضت الخلافة الى المعتصم بالله (سنة ٢١٨ هـ) كانت العناصر الاجنبية قد تمكنت من الدولة وزاد الخلفاء خوفاً على أنفسهم . فخاف المعتصم من جنده على نفسه فاصطنع قوماً من اهل الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) واستخدمهم في بلاطه وسماهم المغاربة ولعل فيهم بعض اهل المغرب . وجمع خلقاً من اشروسنة وسمرقند وفرغانة ابتاعهم من اسواق بغداد تدريجاً وجند منهم جنداً سماه جند الفراغنة ثم سموا الاتراك . وقد كانوا أشد خطراً على الدولة العباسية من سائر فرق الجند وآل الامر بهم الى الاستبداد في أهل الدولة واحتقار الجند العربي الاصلي واساءة سائر اهل بغداد . حتى كثيراً ما كانوا يركبون الدواب في شوارع بغداد و يركضونها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي . فتأذى الناس وشكوا أمرهم الى المعتصم فلم ير سبيلاً الى ملافاة ذلك الا باخراج جنده من بغداد فبنى لهم سامرّا (سنة ٢٢١ هـ) وأقام معهم فيها

وكانت خلافة المعتصم بدء نفور العرب من خلفائهم وشكواهم منهم . وكانوا يعبرون بالجند يومئذ عن الاتراك وغيرهم من الاعاجم و بالحربية عن جند العرب

وكلهم مشاة . ثم المتطوعة وهم الذين يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم و يغلب ان يكون المتطوعة في الجهاد خارج حدود المملكة الاسلامية . وكان من فرق الجند عند الخلفاء النشابون الذين يرمون النشاب والنفاطون الذين يرمون النفط لاحراق حصون الاعداء والمنجنيقيون رماة المنجنيق وهم مثل طبجية هذه الايام والعيارون وهم رماة الحجارة من المخالي . وكان للجند عندهم اطباء وصيادلة يرافقونه في الحرب والسلم كما تفعل الدول المتمدنة اليوم

ثم نشأت فرق أخرى من جند الاتراك وجعلوا يتنازعون النفوذ في الدولة وكان في جملة تلك الفرق فرقة الشاكرية نشأت في أيام المهتدي واستفحل أمرها في أيام المستعين بالله . ونشأ في أثناء ذلك ضرب من الحرس الخاص في بلاط الخلفاء يسمونهم الغلمان الحجرية . وكان في دولة الفواطم بمصر فرقة منهم وتحول قسم كبير من جند المشاة العرب الى فرقة عرفت بالرجال المصافية . ثم تشكلت فرقة عرفت بالفرقة الساجية نسبة الى ابن الساج أحد عمال المقتدر بالله . وهناك فرق أخرى من الاتراك وغيرهم نقرأ أسماءهم عرضاً في تاريخ الدولة العباسية كالبلالية والسعدية وغيرهما وكانت كل فرقة تستعمل نفوذها في الدولة على ما يبلغ اليه جهدها . وكثيراً ما كانت تقوم الفتن فيما بينها او بينها وبين حرس الخلفاء حتى آل الامر الى خروج الاحكام من العرب على الاجمال ونسي أمر قريش والعرب كما سيأتي وصارت الاحكام الى الاتراك ونحوهم فنشأت منهم الدول المشهورة

ديوان الجند

تأسس ديوان الجند في المدينة أسسه عمر بن الخطاب ودوّن فيه اسماء الرجال وفرض اعطياتهم . ولم يكن هذا الديوان يومئذ يعرف بديوان الجند ولكنه كان يسمى « الديوان » فقط . وكان يشمل أسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ومقدار اعطياتهم تبعاً للنسب النبوي والسابقة في الاسلام . وكان لكل مسلم راتب يتناوله هو ورواتب لعائلته وأولاده . فكأنه ديوان المسلمين باعتبار ان المسلمين كانوا كلهم جنداً في ذلك الحين . وظل العطاء باعتبار النسب والسابقة حتى انقرض أهل السوابق

وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها فترتب الجند باعتبار الشجاعة والبلاء في الحرب

وكان عندهم لاختيار الجند من بين الناس شروط . منها ان من أراد الانتظام في الجند يقدم طلباً الى صاحب ديوان الجند وهو ينظر في أهليته للجندية ولا يكون أهلاً لها الا اذا كان حرًّا بالغاً مسلماً سليماً مقداماً . فاذا استوفى هذه الشروط قيد دون اسمه في دفاتر الجيش مع نسبه وقده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره لئلا تتفق الاسماء

أما ترتيب الجنود في الديوان فظلوا يراعون فيه ما وضعه عمر من السابقة والنسب فيترتب الجند أولاً باعتبار القبائل والاجناس حتى تتميز كل قبيلة من غيرها وكل جنس من غيره . فلا يخلو الجند من ان يكونوا عرباً او عجماً فان كانوا عرباً تترتب قبائلهم باعتبار القربى من النبي فيبدأ بالترتيب بأصل النسب النبوي ثم بما يتفرع عنه . فالعرب مثلاً عدنان وقحطان فيقدمون عدنان على قحطان لان النبوة فيهم . وعدنان يجمع ربيعة ومضر فتقدم مضر على ربيعة لان النبوة فيهم ومضر تجمع قريشاً وغير قريش فتقدم قريش لان النبوة فيهم . وقريش تجمع بني هاشم وبني امية وغيرهم فيقدم بنو هاشم لان النبوة فيهم . فكان بنو هاشم قطب الترتيب ثم بمن يليهم من اقرب الانساب كما تقدم . وان كانوا عجماً لا يجتمعون على نسب فكانوا يجمعونهم على الجنس كالترك والهند او على البلد كالخراسانيين والفراغنة والمغاربة . ثم اذا كان لهؤلاء الاعاجم سابقة ترتبوا عليها في الديوان والاّ فيترتبون بالقرب من ولي الامر فان تساووا في ذلك ترتبوا بالسبق الى طاعته

وكان لديوان الجند فروع بعضها للمراسلة وبعضها للعطاء وبعضها للنفقات او لغير ذلك مما كان يختلف باختلاف الاحوال والازمان

اعطيات الجند

ويراد باعطيات الجند رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات معينة من العام . وكانت تلك الاعطيات في أيام النبي غير محدودة فتتبع ما يقع في أيديهم من الغنائم أو الفيء فكان

يفرد خمسهُ للنبي ويفرق الاربعة الاخماس الباقية في الصحابة على السواء بلا تمييز في السابقة أو النسب • وجرى على ذلك أبو بكر • فلما تولى عمر ووضع الديوان ميز الناس في العطاء باعتبار النسب والسابقة فرتبهم طبقات وميز كلاً منهم براتب باعتبار نسبه من النبي أو سابقته في الاسلام أو غير ذلك على ما تراه في هذه الجريدة وهي عبارة عن رواتب الجند السنوية في صدر الاسلام

	درهم
لكل من المهاجرين والانصار الذين شهدوا واقعة بدر الكبرى	٥٫٠٠٠
« « « لم يشهدوا بدراً	٤٫٠٠٠
« « أزواج النبي	١٢٫٠٠٠
العباس عم النبي	١٢٫٠٠٠
الحسن والحسين	٥٫٠٠٠
عبدالله بن عمر بن الخطاب ابن الخليفة	٣٫٠٠٠
كل من أبناء المهاجرين والانصار	٢٫٠٠٠
كل واحد من اهل مكة	٨٠٠
« « « سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم	٣٠٠—٥٠٠
نساء المهاجرين والانصار	٢٠٠—٦٠٠

تلك هي أعطيات المسلمين أو رواتب الجند على عهد عمر مع اختلاف طفيف ببعض الروايات • فاذا اعتبرت مقدار هذه الرواتب وقابلتها برواتب هذه الايام رأيت الفرق عظيماً • فاذا قدرنا الدرهم بفرنك وهي قيمته على وجه التقريب كان راتب أعظم رجال الاسلام لا يزيد على خمسة آلاف فرنك اي نحو مئتي جنيه في السنة واذا اعتبرنا المسلمين كلهم جنداً كان المهاجرون والانصار ضباط ذلك الجند ومنهم عمر نفسه • واما الانفار فهم الذين عبرنا عنهم «بسائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم» • ورواتب هؤلاء اقل كثيراً من رواتب أولئك • فانها تختلف من ثلثماية الى خمسماية درهم باختلاف بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها في الاسلام • وبناءً عليه تكون رواتب ضباط الجند الاسلامي على عهد عمر من اربعة آلاف الى خمسة آلاف درهم في العام ورواتب العساكر من ثلثماية الى خمسماية درهم • غير ما كان يدفع لنسائهم وأولادهم وما فرضه لكل منهم من الحنطة وهو جريبان لكل واحد في الشهر والجريب ٣٫٦٠٠ ذراع مربع ويراد به ما ينبت في تلك المساحة • وخلاصة ذلك ان رواتب صغار الجند في أوائل

الاسلام كانت تزيد على رواتب انفار اجناد هذه الايام وبعكس ذلك رواتب ضباطهم

وظلت أعطيات الجند على هذا القدر في أيام الراشدين • فلما طمع بنو أمية بالملك واحتاج معاوية الى استنجاد العرب فكان في جملة ما استخدمه في سبيل استجادهم المال فزاد في أعطيات الجند وكان جنده ستين الفاً ينفق عليه ستين مليون درهم في العام فيلحق كل رجل الف درهم وذلك أكثر من ضعفي ما فرضه عمر

وكان في مقدمة القبائل التي أخذت بيده وحاربت عنه وأيدت دعوته قبائل اليمن وهي انما فعلت ذلك رغبة في العطاء • لان الرغبة في الحرب لمجرد الجهاد كانت قد خمدت بذهاب عصر الراشدين وانقضاء دهشة النبوة • فجعل معاوية اليمنية فرقة قائمة بنفسها وعدتهم الفا فارس وفرض لهم عطاء مضاعفاً • وجعلهم جنداً مستقلاً لايختلطون بسواهم وكان يستشير امراءهم ويقربهم منه • فاستفحل امر اليمنية حتى عرضوا بذكر فضلهم على دولة بني أمية وانهم لو شاؤا لاخرجوا المضرية من الشام (وفيهم بنو أمية) فندم معاوية على اختصاصهم بذلك الامتياز وقرب منه القيسية واعطاهم مثل عطائهم وصار يغزي البحر باليمنية والبر بالقيسية • فشق ذلك على اليمنية لان القيسية من مضر فعاتبوه فجمع بين القبيلين واغزاهم معاً

ولم يكن معاوية يعتمد على المال في استرضاء الجند فقط بل كل يستخدمه في اصطناع الاحزاب وتخفيف ويلات المتعصبين عليه • فكان كثيراً ما يأمر عماله بزيادة اعطيات اناس يعرف انهم على غرض علي • وعماله لا ينفذون اوامره لقصور ادراكهم عن غرضه • ومن هذا القبيل ان اهل الكوفة كانوا من اشد الناس تعصباً لعلي فامر معاوية عامله عليها النعمان بن بشير ان يزيد في اعطيات اهلها عشرة دنانير فأبى النعمان ان ينفذها لهم فلم ينفعه ذلك

وظل هذا شأن العطاء ايام يزيد ومروان وعبد الملك • وكان عبد الملك يبالغ في الانفاق تأييداً لاحزابه في مقاومة دعاة الخلافة في أيامه فان الحجاج سير الجند الى رتبيل باذن عبد الملك وكان عددهم أربعين الفاً انفق عليهم مليوني درهم سوى اعطياتهم فضلاً عما اعطاه لكبارهم • ولما تولى الوليد بن يزيد زاد العطاء عشرة دراهم يوم خلافته ولعله فعل ذلك ارضاءً للجند لما كان هو فيه من الاعوجاج والترف • وفي أواخر دولة بني امية قلت الرواتب حتى صارت في آخرها خمسماية درهم

فلما آلت الخلافة الى بني العباس جعل السفاح رزق الجندي ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة) فكأنه أرجعه الى ما كان عليه في اوائل بني أمية وكان للفارس ضعفا هذا الراتب لينفق نصفه على فرسه • ويظهر ان الرواتب لم ترتق بارتقاء الدولة العباسية بل هي أخذت بالتناقص فصارت في ايام المأمون عشرين درهماً في الشهر للماشي واربعين للراكب • فكان جيش عيسى بن محمد بن ابي خالد عام ٢٠١ هـ ١٢٥ الف فارس فاعطى الفارس اربعين درهماً والراجل عشرين • وزد على ذلك ان قيمة الذهب كانت قد ارتفعت عما كانت عليه في اوائل الاسلام وكان الدينار في ايام عمر يساوي عشرة دراهم فاصبح في ايام المأمون يساوي ١٥ درهماً

فرأيت مما تقدم ان الرواتب زادت في دولة بني امية عما كانت عليه في ايام الراشدين ثم نقصت في ايام بني عباس • والسبب في ذلك ان بني امية زادوها ترغيباً لقبائل العرب في خدمتهم لتأييد سلطانهم كما تقدم • واما في ايام بني العباس فكان العرب قد انتشروا في انحاء البلاد واختلطوا بالاعاجم وعمل العباسيون على الاستكثار من هؤلاء لانهم ساعدوهم على انشاء دولتهم • فأصبحت الدولة العباسية مخيرة في استخدام من شاءت من الفئتين في جندها • وكان الاعاجم يرضون بالراتب القليل ومع ذلك فهو اضعاف ما كان يدفعه الروم لاجنادهم اذا صح ما نقله ابن خرذاذبه فقد ذكر ان راتب الجندي عندهم كان يختلف من ١٨ الى ١٢ ديناراً في السنة وكانوا لا يستولون على رواتبهم الاَّ مرة كل ثلاث سنوات أو أربع • واما رواتب جند العرب فقد كانت تدفع في أوقاتها اما مسانهة او مشاهرة او اقساطاً على اشهر • الاَّ في اواخر الدولة العباسية فقد كانت تتأخر وتتراكم ويفوز بالخلافة من تمكن من ارضاء الجند شأن الدول في ادوار انحطاطها

وما زال العطاء يدفع نقداً الى ايام الدولة السلجوقية فصار يعطى اقطاعاً • واول من فعل ذلك نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق (توفي سنة ٤٨٥ هـ) وكان رجلاً عظيماً وزر للدولة السلجوقية وادخل فيها اصلاحات جمة • وهو اول من انشأ المدارس في بغداد وكان له فيها المدرسة التي تعرف باسمه (المدرسة النظامية) وكان وزيراً لالب ارسلان ثم لابنه ملك شاه المشهور • فصار امر الدولة كله لنظام الملك وليس للسلطان الاَّ التخت والصيد • فاقام على ذلك عشرين سنة وكان عاقلاً حسن القصد ورأى الدولة السلجوقية قد اتسع نطاقها فاحبَّ ان يحفظها بالاقطاع فحولها الى اقطاعات سلمها الى الجند لاعتقاده ان تسليم الارض الى المقطعين يضمن عمارتها لاعتناء مقطعيها بامرها • بخلاف

ما اذا شمل جميع اعمال المملكة ديوان واحد فان الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد. ففعل نظام الملك ذلك وعمرت المملكة وكثرت الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك والسلاطين الى اوائل القرن الماضي وسيأتي الكلام في الاقطاع

عدد الجند

قلنا ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام كلهم جنداً فعددهم يومئذ هو عدد الجند الاسلامي . فالجند كان في السنة الاولى للهجرة لا يزيد على بضع عشرات يقيمون في المدينة . ثم ازدادوا بمن اعتنق الاسلام من قبائل العرب . وفي حديث خرجه البخاري ان النبي « قال اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام فكتبنا له الف وخمساية »

وفي غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وهي آخر الغزوات بلغ عدد المسلمين ثلاثين الفاً ومعهم عشرة آلاف فرس . فذلك عدد جند العرب في اواخر ايام النبي ثم تزايد عددهم في ايام أبي بكر وعمر حتى زادوا على مئة وخمسين الفاً . وتضاعف ذلك العدد في أواخر ايام الراشدين

وفي اوائل بني أمية بلغ عدد من في البصرة والكوفة من الرجال فقط ١٤٠,٠٠٠ منهم ٨٠ الفاً في البصرة و ٦٠ الفاً في الكوفة ومعهم من العيال ٢٠٠,٠٠٠ بين نساء وأولاد . وكان في مصر أربعون الفاً ماعدا العيال وكان جند الشام نحو ذلك عدا من في فارس وغيرها

وكان للخلفاء في صدر الاسلام عناية في احصاء المسلمين اقتداء بما فعله النبي فجعلوا على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول « هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل » فيقال « ولد لفلان غلام ولفلان جارية » فيكتب اسماءهم . ويقال « نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله » ويسميه وعياله فاذا فرغ من ذلك عاد الى الديوان وأثبت الاسماء فيه

وكانوا يجددون التدوين (الاحصاء) كل مدة في كل ولاية على حدة واول تدوين في مصر مثلاً دونه عمرو بن العاص ثم دون عبد العزيز بن مروان (تولى

امارة مصر من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ) ثم دون قرة بن شريك (سنة ٩٠ — ٩٦ هـ) ثم بشر بن صفوان (سنة ١٠١ هـ) وآخر احصاء احصوا به العرب في الامصار على ما تقدم كان في خلافة هشام بن عبدالملك (سنة ١٠٥—١٢٧ هـ) ولكن تلك الاحصاآت لم تصل الينا لانها ضاعت في جملة ما ضاع من آثار بني أمية

فلما تولاها بنو العباس اهملوا أمر العرب و بذلوا عنايتهم في اصطناع الاعاجم من الفرس والترك وغيرهما كما قدمنا . حتى اذا بويع المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ بعث الى عماله في الامصار ان يسقطوا من في دواوينهم من العرب و يقطعوا العطاء عنهم فشق ذلك على العرب وثاروا ولكنهم لم ينالوا وطرًا . فانقرضت دولة العرب من ذلك الحين وصار جند الدولة العجم والموالي . ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزاعي الشاعر المشهور في الصميرة فلما جاءه نعي المعتصم وقيام الواثق أنشد هذين البيتين :

الحمد لله لاصبر ولا جلد ولا عزاء اذا اهل البلا رقدوا

خليفة مات لم يحزن له احد وآخر قام لم يفرح به أحد

وأما عدد الجند في أثناء دولة بني أمية و بني العباس فما لا يتيسر الوقوف عليه ولكننا نستدل من عدد ما كانوا يجندونه الى الحرب انه كان كثيرًا . فلما حمل يزيد ابن المهلب على جرجان وطبرستان جرد اليهما ١٢٠٫٠٠٠ من الجند المرتزقة سوى الموالي والمتطوعة . وحمل الرشيد على هرقلة بجند عدده ١٣٥٫٠٠٠ من المرتزقة ما عدا الاتباع والمتطوعة . وكان جند محمد بن طفج مؤسس الدولة الاخشيدية بمصر (سنة ٣٢٣—٣٣٤هـ) ٤٠٠٫٠٠٠ جندي وثمانية آلاف مملوك يحرسه منهم الفان كل ليلة على التناوب . وروى ابن خلدون ان المعتصم نازل عمورية في جند عدده ٩٠٠٫٠٠٠ ولا غرابة في ذلك اذا اعتبرنا عدد الحامية في الثغور الدانية والقاصية شرقًا وغربًا فضلاً عن المصطنعين والموالي والخاصة . فقد أحصيت خاصة المأمون من بني العباس وحدهم فبلغوا ٣٣ الفًا

رتب الجند واصنافهم

لم يكن للعرب في الجاهلية جند فلم تكن له عندهم رتب . ولكنهم كانوا يولون على القبيلة الامير فاذا احتاج الامير الى من ينوب عنه على فصيلة أرسلها الى غزو أو نحوها ولى رجلاً كانوا يسمونه المنكب وتحت المنكب العريف والمنكب يكون على خمسة عرفاء والعريف يكون على نفير أو نفر

وظل العرب في اوائل الاسلام على نحو ما كانوا عليه في الجاهلية فقسموا الجند الى عرفاء تحت كل عريف عشرة رجال وسلموا القيادة الى اناس من اهل السابقة وكذلك كان نظامهم في اثناء الفتوح . ثم جعلت العرفاء أسباعاً وجعلوا مائة عريف بعضهم على ثلاثين اوار بعين رجلاً و بعضهم على ٢٠ حسب طبقات الجند من حيث السابقة ونحوها . وكان على العرفاء امراء يقال لهم امراء الاسباع هم يتولون تفريق العطاء في العرفاء والعرفاء يفرقونه في الجند

وقلما حدث تغيير في رتب الجند في ايام بني أمية . اما في الدولة العباسية فكانت رتب الجند ان على كل عشرة رجال « عريف » وعلى كل خميس « خليفة » وعلى كل مائة « قائد » ثم تنوع الترتيب فصار العريف على عشرة وعلى كل عشرة عرفاء (او ١٠٠ نفر) « نقيب » وعلى كل عشرة نقباء (او ١٠٠٠ رجل) « قائد » وعلى كل عشرة قواد (او ١٠٠٠٠ رجل) امير . ولا يخلو الامر من وقوع التبديل في هذا النظام بالنظر الى الدول

ولا بد من ان يكون لكل رتبة علامة تميزها عن سواها كما يتميز الضباط اليوم بعضهم عن بعض وعن العساكر . ولكننا لم نعثر على شيء صريح بهذا الشأن وقد تقدم لنا كلام بهذا الموضوع في بحثنا عن الطراز . ومن هذا القبيل ما كانوا يسمون به الخيل لتمتاز خيول الدولة عن سواها وكان لكل دولة سمة خاصة . وسمة خيل بني أمية لفظ (عده) كانوا يطبعونها على الخيول كياً بالنار كما كان العرب يفعلون بابلهم في عصور جاهليتهم . فقد كان عندهم لكل قبيلة ميسم يميز ابلها عن ابل غيرها . ووسم الدواب شائع في الدول المتمدنة اليوم

استعراض الجند

استعراض الجند قديم في الدول المتمدنة قبل الاسلام فقد كان الاسكندر يعرض جنده بنفسه ويتفقدهم ويتفقد سلاحهم وخيولهم ولما ظهر الاسلام كان الفرس يعرضون جنودهم في مواقيت معينة من السنة. وكان رسمهم في ذلك ان يمر الفارس الذي هو في الطبقة الاولى على حصانه ومعه الغلام بجنيبه والدرع والمغفر والكفوف الزرد والرانات والتجافيف للخيل ويسمى بركستوان والترس والرمح والسيف والدبوس والسكين الكبيرة والحبل والمخالي والسكك الحديد والمقاود وكبة خيوط ومخصف ومقص ومطرقة وكاز ومسل وابر وخيوط وزناد وطرطور ولباد وقوسان موتوران ووتران زائدان لخوف الانقطاع وجعبتان للنشاب احداهما معه والاخرى مع غلامه

ولما تمدن العرب وجندوا الجنود اتخذوا هذه العادة على نحو ما كانت عند الفرس ولكن يظهر انهم كانوا يستعرضون رجالهم قبل تمصير الامصار وتجنيد الجنود. فان النبي نفسه كان يستعرض أصحابه وقد جاء في السير انه استعرضهم يوم بدر الكبرى (سنة ٢ هـ) فجعلهم صفوفاً وأخذ يعدل صفوفهم وفي يده سهم بلا ريش فمر برجل اسمه سواد كان مستنثلاً من الصف فطعنه النبي في بطنه وقال له «استو ياسواد بن غزية» و بعد ان عدل الصفوف عاد الى العريش الذي كانوا نصبوه له هناك

وكان الخلفاء الراشدون يعرضون الجند على نحو ذلك ثم بنو أمية. وكان الحجاج اذا عرض الجند يسأل عن رجل رجل من هو وما هي قبيلته وعن حاله وسلاحه

وكان الاستعراض في الدولة العباسية أقرب الى هيأة الفرس لان العباسيين اقتبسوه منهم. فكان الخليفة أو وزيره يجلس لعرض الجند وربما جلس الخليفة وعليه الدرع والخوذة كانه في استعداد للحرب فينادي المنادي باسماء القواد فيمرون أولا فيتفقد افراسهم وعدتهم فاذا رأى كل شيء حسناً تاماً صرف لهم ارزاقهم وهي جائزة يمنحونها يوم العرض. وقد يستنكف القائد الكبير ان ينتفع بتلك الجائزة فيهبها لبعض اتباعه. ومن أمثلة ذلك ما كان يفعله عمرو بن الليث على عهد الخليفة المعتمد (سنة ٢٧١ هـ) فانه نال حظوة لدى الخليفة وتمكن من قوانين

المملكة وتولى النظر في الجند وكان ينفق لهم مرة كل ثلاثة أشهر ويحضر بنفسه على ذلك وكان عارض الجيش يقعد والاموال بين يديه والجند كلهم حاضرون وينادي المنادي اولا باسم عمرو بن الليث فتقدم دابته الى العارض بجميع آلة الفارس فيفتقدها ويأمر بوزن ثلثمائة درهم باسم عمرو فتحمل اليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول «الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق» ثم يضعها في خفه فتكون لمن ينزع خفه . ثم يدعى بعد ذلك باصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ولدوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها فمن أخل باحضار شيء منها حرموه رزقه . فاعترض يوماً فارس كانت له دابة في غاية الهزال فقال له عمرو «ياهذا تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها وتهزل دابتك التي عليها تحارب وبها تجد الارزاق امض فليس لك عندي شيء» فقال له الجندي «جعلت لك الفدا لو اعترضتُ امرأتي لاستسمنتَ دابتي» فضحك عمرو وامر باعطائه وقال استبدل بدابتك

مساكن الجند

كان المسلمون في صدر الاسلام (وهم الجند) اذا فتحوا بلدًا جعلوا مساكنهم في بعض ضواحيه وكانوا لايقيمون في مكان بينه وبين المدينة بحر أو نهر عملاً بوصية عمر بن الخطاب كما تقدم . ولذلك فلم يقم جند مصر في الاسكندرية عاصمة الديار المصرية بل أقاموا في الخيام قرب حصن بابل في بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط . ولم يقم جند العراق في المدائن عاصمة كسرى بل أقاموا على ضفاف الفرات مما يلي بادية الشام في البصرة والكوفة . وفعل نحو ذلك غيرهم في سائر الاقاليم التي فتحت في صدر الاسلام فأقاموا في ضواحي البلاد المفتوحة لمجرد حمايتها كما قدمنا في كلامنا عن ولايات الاعمال . ولكنهم كانوا ينتقلون للحرب يومئذ بنسائهم وأولادهم فاذا فتحوا بلدًا اقاموا فيه جميعاً . فأصبحت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال مدنًا عامرة

ولما تمدن العرب صاروا يذهبون الى الحرب بلا نسائهم لكنهم ظلوا على انشاء المعسكرات خارج المدن . وكثيرًا ما كانت هذه المعسكرات تتحول الى مدن بتوالي

الاجيال كما حصل في الفسطاط والكوفة والبصرة — كانت الفسطاط مضرب خيام حول فسطاط عمرو بن العاص ثم عمرت وصارت مدينة سميت الفسطاط . وبعد عمرانها بقرن وبعض القرن لما قام العباسيون للمطالبة بالخلافة فر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ولجأ الى مصر فتعقبه العباسيون بقيادة صالح بن علي وعسكروا بضواحي الفسطاط وسموا مقامهم «العسكر» أي المعسكر ثم بنى الناس هناك وصار المكان مدينة مثل الفسطاط اسمها العسكر . وبعد ذلك بقرن وبعض القرن سنة ٢٥٧ هـ تولى مصر أحمد بن طولون واكثر من الجند والحاشية والآلات فضاقت الفسطاط دونه فأنشأ معسكرًا بجوار جبل المقطم وبنى لنفسه فيه قصرًا وميدانًا وتقدم الى غلمانه واتباعه ان يبنوا فبنوا حتى اتصل البناء بالفسطاط وصار المكان مدينة سميت القطائع . وفعل مثل ذلك جوهر قائد الفاطميين لما جاء لفتح مصر بعد قرن وبعض القرن سنة ٣٦٥هـ فانه أنزل جنده بسفح المقطم خارج القطائع والفسطاط . ولما فتح البلاد أنشأ في ذلك المعسكر مدينة القاهرة الباقية الى الآن . ويقال نحو ذلك في سائر المدن الاسلامية فان المنصور انما بني بغداد حصنًا له ولجنده وكذلك فعل ابنه المهدي ببناء العسكر خارجها . وقس عليه غيره من المعسكرات الاسلامية فانهم كانوا ينشئونها خارج المدن بعيدًا عن بيوت الناس . ولذلك فلما أنزل الحجاج جنده في بيوت أهل الكوفه بعد واقعة الجماجم نقم عليه اهلها وعدوا ذلك عتوًّا منه وظلمًا . وخصوصًا لان الامراء الذين جاؤُا بعده كانوا كثيرًا مايعملون عمله لاسيما في بلاد العجم وفي ذلك اجحاف بحقوق الناس

اللواء او الراية

﴿ تاريخ الالوية ﴾ اللواء والراية شيء واحد وربما كان اللواء أصغر من الراية او ان الراية تسمى لواء اذا عقدت للحرب وهي الاعلام او البنود أو البيارق في اصطلاح هذه الايام . والراية قديمة في التاريخ اتخذها المصريون القدماء ومن عاصرهم أو أخذ عنهم وكانت شائعة في العرب الجاهلية قبيل الاسلام وكان لكل قبيلة راية تجتمع تحتها

وللراية شأن كبير في الحروب لان الناس انما يؤتون من قبل راياتهم اذا زالت زالوا . وقد رأيت في كلامنا عن حكومة الجاهلية انه كان في جملة مناصب قريش منصب اللواء ويسمونه « العقاب» باسم رايتهم يومئذ . وكانوا اذا خرجوا الى حرب أخرجوا الراية فاذا اجتمع رأيهم على أحد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها وكان مرة من بني أمية ومرة من بني عبد الدار . والظاهر انهم سموا رايتهم « العقاب » اقتباساً من الروم لان العقاب او النسر شارة الرومان يرسمونها على اعلامهم وينقشونها على ابنيتهم فاقتبسها العرب منهم

وفي السيرة الحلبية ان المسلمين في غزوة بدر الكبرى كانت لهم ثلاث رايات أحداها بيضاء دفعها النبي الى مصعب بن عمير والاخريان سوداوان احداهما حملها علي ابن أبي طالب ويقال لها العقاب صنعت من مرط لعائشة (والمرط كساء من صوف او خز تضعه المرأة على رأسها أو تؤتزر به) والاخرى مع رجل من الانصار . وان أبا سفيان كان يحمل راية الرؤساء في تلك الواقعة واسمها ايضاً راية العقاب . فالظاهر ان العقاب كان اسماً لصنف من الرايات تقلدوا الرومان بها وليس اسم واحدة منها

ولما جاء الاسلام وانتشر العرب في انحاء الشام وفارس ومصر وتعددت دولهم وقبائلهم كثرت ضروب الالوية عندهم وتنوعت اشكالها وتعددت الوانها واطالوها وسموها بأسماء مختلفة . عقد أبو مسلم الخراساني عند قيامه بالدعوة العباسية لواء فقد بعث به اليه ابراهيم الامام يدعى « الظل » على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً . وعقد راية كان قد بعث بها اليه اسمها « السحاب » على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ارهاباً للناس . ولما عقد المتوكل البيعة لبنيه سنة ٢٣٥ هـ عقد لكل واحد منهم لوائين أحدهما اسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل . ولما ولى المأمون الفضل بن سهل على المشرق كله وسلم اليه رئاسة الحرب والقلم وسماه ذا الرئاستين عقد له لواء على سنان ذي شعبتين . وجملة القول ان اشكال الالوية تعددت بتوالي الازمان وتفاخر الخلفاء والسلاطين بتعدادها . فقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمي لما خرج الى فتح الشام ٥٠٠ راية و ٥٠٠ بوق . وربما نقشوا على الرايات اسماء الخلفاء أو

السلاطين أو الامراء الذين يتولون قيادة الجند كما كتب ابن بجكم على رايته « الرائقي » نسبة الى ابن رايق

﴿ الوانها ﴾ لا نعرف ما كانت الوان الرايات في الجاهلية سوى راية العقاب فقد تقدم انها كانت سوداء وكذلك كانت راية النبي . وذكر صاحب آثار الاول انه كانت له أيضاً الوية بيضاء . اما الرايات الاسلامية فقد كانت الوانها تختلف باختلاف الدول . فكانت أعلام بني أمية حمراء . وكل من دعا الى الدولة العلوية فعلمه ابيض . ومن دعا الى بني العباس فعلمه اسود والسواد شعار العباسيين على الاطلاق اتخذوه حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونعياً على بني أمية في قتلهم ولهذا سموا المسودة . ولما افترق الهاشميون وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضاً وسموا المبيضة . والظاهر ان شعار دعاة بني هاشم من الشيعة كان الخضرة لان المأمون لما بايع لعلي بن موسى بولايه العهد امر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضر حتى اذا رجع عن البيعة عاد الى السواد

وأما ملوك البربر في المغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا في راياتهم بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة . وأما دول الاتراك في المشرق فكانوا يتخذون راية واحدة للسلطان في رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر وهي شعار السلطان عندهم ثم تعددت الرايات ويسمونها سناجق واحدها سنجق وهي الراية في لسانهم

﴿ عقد اللواء ﴾ كان الخلفاء في صدر الاسلام اذا وجهوا جيشاً الى حرب عقدوا له الالوية وسلموها الى الامراء لكل أمير راية قبيلته ويدعو لهم بالنصر ويوصيهم بالصبر والجلاد . وكان عمر بن الخطاب اذا عقد لواء يقول وهو يعقده « بسم الله و بالله وعلى عون الله امضوا بتأييد الله وما النصر الا من عند الله ولزوم الحق والصبر فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرماً ولا

امرأة ولا وليدًا وتوفوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند شن الغارات » وكان لكل خليفة اسلوب في الدعاء والوصاية والمرجع واحد فيها كلها . وكانوا يعقدون الالوية أيضاً للعمال اذا ولوهم الامصار وخصوصاً في أوائل الاسلام لان العامل هو قائد الجند . وكانوا يعقدونها على حساب النجوم فيختارون احد الاقترانات على زعمهم . وكان العباسيون اذا عقدوا لواء لقائد جند او صاحب ثغر يخرج الى بعثه او عمله من دار الخليفة او من دارة في مواكب من أصحاب الرايات والطبول حتى لا يميز بين موكب العامل وموكب الخليفة الا بكثرة الالوية وقلتها أو بما اختص به الخليفة من الالوان لرايته

وكان للدولة الفاطمية بمصر دار يقال لها « خزانة البنود » كانوا يختزنون فيها الاعلام والرايات والدرق كانوا ينفقون عليها ٨٠,٠٠٠ دينار كل سنة ظلوا على ذلك قرناً كاملا وكل ما صنع من الاعلام بقي متراكماً فيها وفيه الاسلحة بانواعها والسروج واللجوم وفيها المفضض والمذهب . ثم احترقت الخزانة فأحترق كل ما كان فيها من هذه الامتعة والآلات ما يقدر بثمانية ملايين دينار . ولم يستطيعوا اخراج غير القليل منها وفي جملة ذلك لواء كانوا يسمونه لواء الحمد

الموسيقى

واتخاذ الموسيقى في الجند قديم والاصل في اتخاذه اثارة حماسيات الجند في اثناء الحرب او شغل اذهانهم عن الافتكار بالاخطار التي يتوقعونها . ومن هذا القبيل الغناء او النشيد امام الجند فانه من قبيل الموسيقى . وكان العرب في جاهليتهم لا يعرفون من هذه الآلات غير الطبل وكان المسلمون في صدر الاسلام يتجافون عن اتخاذ الابواق والطبول تنزهاً عن غلظة الملك ورفضاً لاحواله . فلما انقلبت الخلافة ملكاً وتبجبحوا زهرة الدنيا ولابسهم الموالي من الفرس والروم اهل الدول السالفة وأروهم ما كان اولئك يتحلون به من مذاهب البذخ والترف كان في جملة ما اقتبسوه منهم الموسيقى وأذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويهاً بالملك وأهله ثم جعلوا يستكثرون منها . وهي قاصرة على الطبل والبوق وربما كان في الجند مئات من الابواق والطبول

السلاح

لم يكن عند العرب في جاهليتهم من السلاح غير السيف والرمح والقوس والترس وكانت لهم عناية كبرى في استخدامها لانهم كانوا يحمون بها اعراضهم ويستجلبون بها معائشهم وخصوصاً القوس

﴿ القوس ﴾ كان لهم بها مهارة عظمى لحدة أبصارهم من عيش البادية ولانهم احوج اليها من سائر الاسلحة • فقد كانوا يستخدمونها في صيد الغزلان فضلا عن الحرب والطعان وبلغ من مهارتهم في النزع بالقوس ما يكاد يفوق طور التصديق حتى لو أراد احدهم أن يرمي احدى عيني الغزال دون العين الاخرى لرماها ولذلك سموا مهرة الرمي « رماة الحدق » • وكان أحدهم يعلق ضباً بشجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من اعضائه حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها

فلما جاء الاسلام كانت مهارتهم هذه من جملة ما ساعدهم على غلبة الروم لان هؤلاء لم يكونوا يحسنون رميها وقد بينا ذلك في كلامنا عن الفتوح الاسلامية • ولم يكن قواد المسلمين يجهلون فضل النبال في نصرتهم فكانوا يحرضون رجالهم على اتقان الرمي بها وكان النبي يقول « اركبوا وارموا وان ترموا أحبُّ اليَّ من ان تركبوا » ومن اقواله « كل لهو المؤمن في ثلاث تأديبه فرسه ورميه عن كبد قوسه وملاعبته امرأته فانه حق ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامي في سبيل الله » ومن اقواله وهو قائم على المنبر « اعدوا ما استطعتم من قوة • الا ان القوة الرمي • الا ان القوة الرمي • الا ان القوة الرمي »

وكان الخلفاء والقواد بعد النبي يستحثون رجالهم على اتقان الرماية كما يحرضونهم على العناية بخيولهم لان العرب اهل فروسية وخيول العرب مشهورة بخفتها وسرعتها وسهولة قيادها • وكان القواد يوصون رجالهم ان يعتنوا بافراسهم مثل عنايتهم بنسائهم وقد تقدم لنا كلام في ذلك

وتفنن المسلمون بالرمي في العصور الوسطى حتى اصطنعوا من الاقواس آلات مركبة ولعلهم أخذوا بعضها عن الفرس كالمجراة التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر وهي عبارة عن انبوب من حديد او خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً كما تقذف الرصاصة بالبندقية اليوم وتكون الاسهم قصيرة ولكن العرب قلما استخدموا المجراة

﴿ السيف ﴾ وكان العرب يعدون السيوف اشرف الاسلحة وكانوا يستجلبونها من الخارج واشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والشامية والخراسانية وتعرف كلها بالسيوف العتيقة • وكان لكل منها شكل مخصوص او علامة يمتاز بها • فاليمانية العتق مثلاً التي صنعت في الجاهلية كانت تمتاز بثقبين في سنبل السيلان (والسيلان أصل مقبض السيف) وثقب السنبل من احدى وجهتيه اوسع من الوجهة الاخرى او الوجهتان متساويتان ووسطه اضيق • وكان من السيوف اليمانية سيوف يقال لها المحفورة وشطبها شبيه بالانهار وقد حفر بمبرد مدوّر • ومنها ذات حفر مربع ومنها ذات شطب وقلما تسلم اليمانية من العروق • وقد تنقش عليها تماثيل او يكتب عليها او يصور عليها صورة • غير ان هذه السيوف اكثر قطعها في اللين فاذا صادفت الحديد او اليابس تقصفت وكانت اسياف الروم امتن منها لانهم كانوا يجيدون سقايتها حتى تبري الحديد • ولذلك كان العرب اذا اصابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره واطروهُ • وقد اشتهر في اوائل الاسلام سيف ذي الفقار وهو لعلي بن أبي طالب وسيف الصمصامة لعمرو بن معدي كرب وغيرهما • ولعلهما في الاصل من أسياف الروم • ولذي الفقار شأن كبير في تاريخ الاسلام توارثه آل أبي طالب ثم اخذه المهدي العباسي ثم صار الى الهادي فالرشيد ويقال انه سمي ذا الفقار لانه كان به ثماني عشرة فقرة

﴿ الرماح ﴾ اكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيل ولكنهم لم يكونوا يأمنون له خوف انكساره • ومن وصاياهم في استخدام الرمح في الحرب قول صاحب آثار الدول في طرائق حركات الرمح وتصرفاته قال : واللعب به في الميادين وبين يدي الملوك غير التحرك به في الحروب منها المواجهة وهي ان تحمل على مبارزك وقد أخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين اذني فرسك وتقصده مستوياً حتى تقرب منه فان رايته قد طرح رمحه يمنة فاطرح رمحك يسرة وان طرحه يسرة فاطرح رمحك يمنة واجتهد ان تبدأ بالحمل عليه وانت مسدد وتحول الرمح يمنة او يسرة كي تدهشه فلا يدري من اين تجيئه فاذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذي لا يكون رمحه فيه • واذا اردت ان تبتدىء بالخروج فخذ اسفل الرمح بيدك اليمنى وراسه الى الهواء وهو على عاتقك الايمن وتحمل على قوتك وانت كذلك وان شئت قربت منه حتى لايدري من اي وجه يلقاك ••• وان خرجت الى فارسين وتفرقا فاحمل على الادنى واذا كانا قريبين فأر احدهما انك

تريد رفيقه واحمل عليه ولا تتم حملتك ثم اعدل على الآخر واصدقه الحملة • وان حذقا ورايتهما يفترقان عليك فتطرف ولا تتوسط واحمل على الادنى اليك فان تساويا فادهش الاضعف واحمل على الاقوى فان تساووا وكانوا جماعة فامتد امامهم حتى يتبعوك ثم كر على الادنى منك فاطعنه • وان دخلت مضيقاً فتلقاك فارس برمح فاياك والمصادمة بل انزل الى الارض واطعنه • وان كان خلفك فارس وقدامك فارس في مضيق فانزل وتحيل واقصد اقربهما اليك وتترس من الآخر بدابتك ... الخ

(ش ١٦) الترس الغرناطي

وكانت اسنة الرماح عندهم تختلف شكلاً بين المشعب والعريض والزفيع والمعوج والمستوي والمموج وغير ذلك

﴿ الترس ﴾ وكان الترس عند العرب على اصناف كل منها يصلح لشيء فمنها المسطح والمستطيل المحفر الوسط والمقبب المنحني الاطراف • ولكل ترس فائدة فالمقتب المنحني الاطراف لا يتقى به الرمح لانه متى طعن ثبت الرمح فيه وانما يتقى به النشاب والحجارة والسيف • والترس المستطيل يتقى به النشاب لان راسه يستر راس الفارس وطوله يقيه لانه ينظر باحدى عينيه من التحضير ولا يكشف

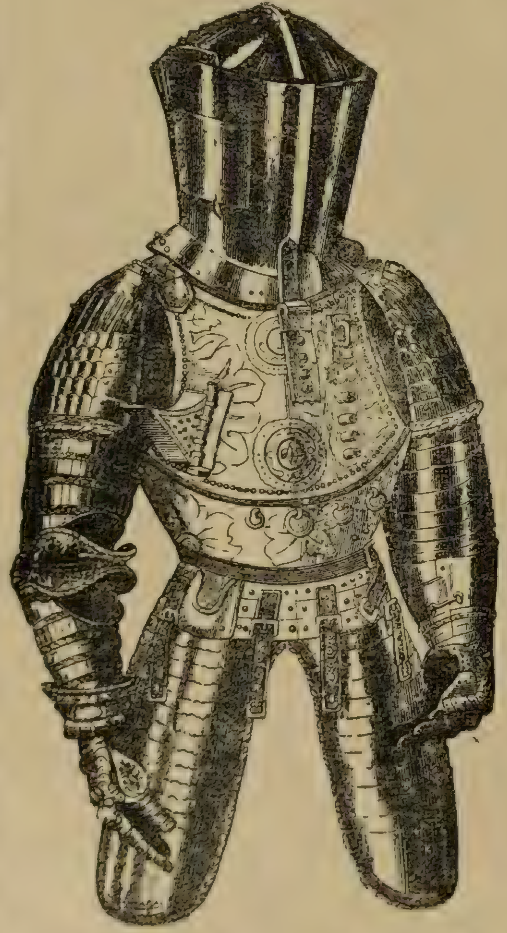

(ش ١٧) درع أبي عبدالله آخر ملوك الأندلس المسلمين

راسه والمسطح يتقى به الرمح • قد يشترك رجلان في الطعان فيترس احدهما للآخر

وقد تفنن المسلمون في اصطناع الاتراس ونقشوا عليها الآيات والحكم والاشعار وتميزت اتراس كل بلاد بشكل خاص ومنها الترس الدمشقي والترس العراقي والترس الغرناطي وغيرها

(ش ١٨) خوذة ابي عبد الله آخر ملوك الاندلس

﴿ الدرع ﴾ الادراع كثيرة عند العرب ومنها الحديد والفولاذ والكتان ويسمون درع الكتان « دلاص » ولم يكن يقتني الادراع من العرب غالباً الا الفرسان وهي من صنع الروم او الفرس على الغالب • وعندهم ادراع مشهورة باسماء معينة مثل درع خالد بن جعفر فقد كانوا يسمونها ذات الازمة لانها كانت لها عرى تعلق بها اذا اراد لابسها ان يشمرها

وكانت الدرع مؤلفة من الجزء الذي يقي الصدر وهو الجوشن والبيضة والخوذة والمغفر للراس ومنها اجزاء للساعدين والساقين والكفين تلك كانت اسلحة العرب في اوائل الاسلام ثم اضافوا اليها شيئاً من اسلحة الاعاجم كالخنجر والطبر والفاس وغيرها وتفننوا في صنعها تبعاً للزمان والمكان • فترى السيف الدمشقي

(ش ١٩) خوذة احد سلاطين المماليك بمصر

يختلف عن السيف العراقي والدرع المصرية تختلف عن الدرع الاندلسية كما يتضح لك الفرق من النظر الى الشكلين ١٨ و١٩ والاول صورة خوذة اندلسية والثاني خوذة مصرية • وقس على ذلك سائر اشكال الاسلحة مما يطول شرحه

آلات الحصار

لم يكن للعرب آلات للحصار لانهم لم يكونوا يحاصرون وانما كانت منازلهم الخيام مطلوقة لا يحميها سور ولا خندق. وأول خندق بناه العرب خندق المدينة يوم حرب الاحزاب (سنة ٥ هـ) اشار به سلمان الفارسي كما قدمنا. فلما اختلطوا بالاعاجم كان في جملة ما اقتبسوه منهم آلات الحصار واهمها المنجنيق والدبابة والكبش والنار اليونانية

﴿ المنجنيق ﴾ هو آلة قذافة استخدمها الفينيقيون قديماً وعنهم أخذها اليونان والاسرائيليون. وورد ذكرها غير مرة في سفر المكابيين وانتشرت بواسطة اليونان في سائر دول الارض فاستخدمها الفرس وعنهم أخذها العرب بعد الاسلام

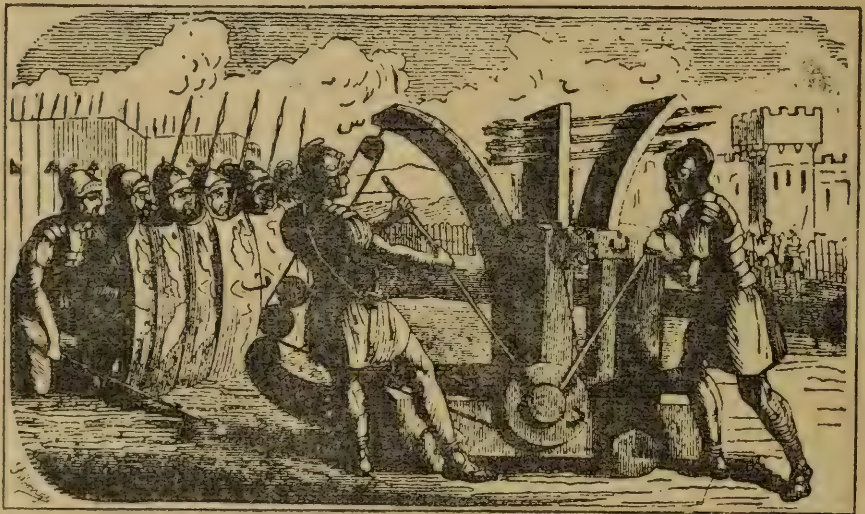

(ش ٢٠) منجنيق روماني لرمي السهام

والمشهور ان العرب لم يستخدموا هذه الآلة الا في اواسط القرن الاول للهجرة بعد مخالطتهم الروم والفرس. ولكننا رأينا في السيرة الحلبية انهم استخدموها في حصار الطائف ارشدهم اليها سلمان الفارسي في جملة ما أرشدهم اليه من فنون الحرب الفارسية ويقال انه صنعه لهم بيده. وذكر صاحب هذه السيرة أيضاً ان المسلمين لما فتحوا حصن الصعب في خيبر وجدوا فيه منجنيقات ودبابات

والمنجنيق أصناف كثيرة منها الكبير والصغير ومنها ما يشد بلوالب واقواس او

ما يدار شبه المقلاع · وهي تستخدم اما لرمي السهام او الحجارة او قدر النفط او العقارب او نحوها من آلات الاذى · فان كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص وان كانت من السوائل كالنفط ونحوه اتخذوا لها كفة كالكاس علقوها بسلاسل

وفي الشكل العشرين صورة منجنيق روماني كانوا يرمون به السهام فترى السهام مشكوكة في القائمتين (ب و ج) ورؤوسها متجهة نحو العدو · وترى الرجلين يديران البكرة (د) وهي تدير البكرة المسننة (ن) ويلف عليها حبل ممتد من طرف القائمة (ا) بالبكرة (س) والبكرتين (ف) بحيث تشد طرف القائمة (ا) نحو الوراء وهي مصنوعة من قطع متصلة بجلد او حديد حتى تصير مرنة كالاقواس بحيث اذا اطلقت بعد شدها ارتدت على اطراف السهام بعنف فترسلها الى مسافة بعيدة

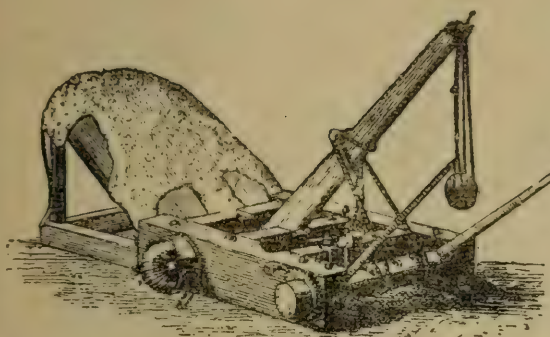
(ش ٢١) منجنيق لرمي الحجارة او النفط

وفي الشكل ٢١ صورة منجنيق لرمي الحجارة · وهو عبارة عن عمود في رأسه معلق شبه المقلاع يوضع فيه الحجر ويشد العمود بالامراس نحو الوراء وهو متصل من اسفله بقوس مرن فاذا شد العمود جيداً ثم اطلق بغتة وقع على السطح المايل بعنف وانطلق الحجر من المقلاع الى مسافة بعيدة · وهناك أشكال أخرى للمنجنيق تندرج تحت هذين

وكانوا يستخدمون المنجنيق لهدم الحصون بالحجارة الضخمة أو لرمي الاعداء بالنبال او لاحراق اماكن العدو بالنفط ونحوه فيرسلون به نفطاً مولعاً بالنار يقذفونه بواسطة كفة من الزرد يحملون بها الاوعية المملوءة بالنفط كالقدور ونحوها بمنجنيق من شكل ٢١

وكانت المجانيق تتفاوت في اقدارها وكثيراً ما كانوا يسمون كلاً منها باسم يدل على بعض أوصافه على نحو ما يسمون السفن والمدافع الكبرى في هذه الايام · فقد

كان عند الحجاج بن يوسف منجنيق اسمه «العروس» كان يمد به خمسماية رجل ارسله محمد بن القاسم لمحاربة ملك الهند سنة ٨٩ هـ وهدم به صنماً من أصنامهم

(ش ٢٢) دبابة اشورية يهدمون بها سوراً

﴿ الدبابة ﴾ هي آلة سائرة تتخذ من الخشب الثخين المتلزز وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجل مستديرة وتحرك فتنجر. وقد يجعلونها برجاً من خشب بمثل هذا التدبير ويدفعها الرجال فتندفع على البكر ويصعد الرجال في اعلاها ويستعلون على السور وينزلون فوقه كما سيجي. وهي أقدم من المنجنيق استخدمها المصريون القدماء والاشوريون فاليونان فالرومان والفرس فالمسلمون. وهي عبارة عن قلعة سائرة على العجل فيهجمون بها على الاسوار لمحاربة المحاصرين من أعلى السور

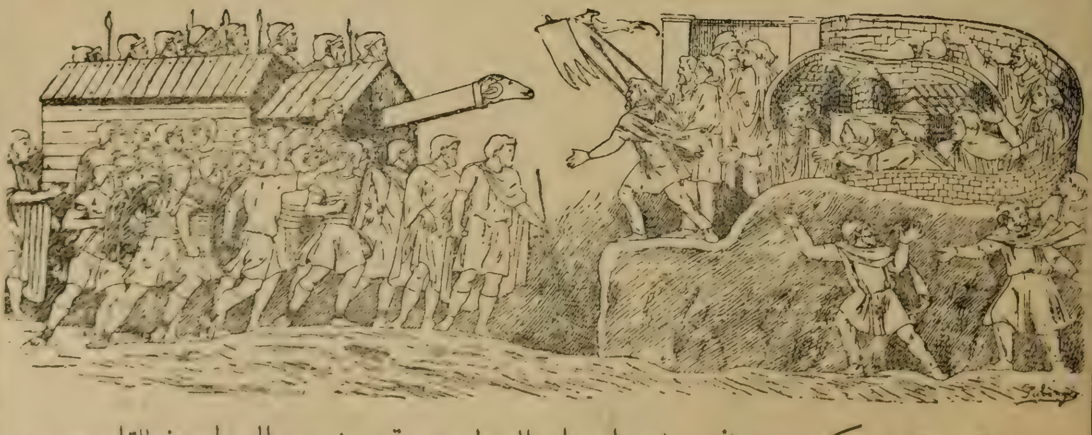

(ش ٢٣) كبش روماني يهاجم اسوار البرطيين وقد خرج البرطيون للتسليم

وقد يستخدمون الدبابة لهدم الاسوار فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ويجعلون رأسها محدداً يصدمون به الاسوار حتى تتهدم

﴿ الكبش ﴾ وهو كالدبابة لكن رأسه في مقدمه مثل رأس الكبش ويتحصن الرجال في داخله (ش ٢٣) ويستخدمون الكبش لهدم الاسوار . والرأس المذكور متصل في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها فيتعاون الرجل من داخل الدبابة وورائها على ضرب السور بها حتى يخرقوه (ش ٢٤)

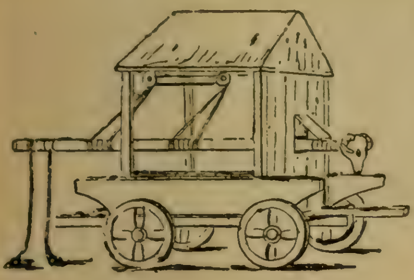
(ش ٢٤) رأس الكبش

وفي الشكل ٢٣ صورة كبش روماني يهاجم اسوار البرطين وقد خاف البرطيون وأتوا بأعلامهم يلتمسون الامان ويسلمون

واستخدم المسلمون الدبابة والكبش في كثير من حروبهم لتسلق الاسوار وهدمها او خرقها . وكانوا يجعلون في الجيش عدة دبابات وأكثرها صغير الحجم تسع الواحدة بضعة رجال تتفرق على الاسوار. واستخدم الخليفة المعتصم بالله الدبابات في فتح عمورية فعمل منها دبابات كبيرة تسع كل واحدة عشرة رجال

وكيفية استخدام الدبابات في تسلق الاسوار انهم كانوا يركبون الدبابة ويدحرجونها الى السور . فان كان هناك خندق يمنعهم من الوصول اليه طرحوا الاخشاب على الخندق مثل الجسور . فاذا كان الخندق عريضاً طرحوا فيه الحطب والزرجون والتراب وغيره مما يحملونه معهم في الدبابة لهذه الغاية حتى يمتلىء الخندق . كل ذلك واهل الدبابة يحمون العمال بالجفان . ثم يجرون الدبابة الى السور وينقبونه ويدعمونه بالاخشاب ثم يخرقونه ويلتصقون بالسور. فاذا لم يدركوا سطحه صعدوا اليه بالسلالم ونزلوا منه الى المدينة اذ استطاعوا الى ذلك سبيلا والا تحاربوا

﴿ النار اليونانية ﴾ ومما اقتبسه العرب من الروم النار اليونانية وهي في الاصل من اختراع المشارقة . فقد كان هؤلاء يستخدمون في حروبهم مزيجاً سريع الاشتعال

(ش ٢٥) عرب يستخدمون النار اليونانية

لم يعرفه اهل اوربا الا في القرن السابع للميلاد . والمظنون ان رجلاً من اهل الشام اسمه كالينكوس نقله اليهم . وكان الروم يومئذ في ابان حاجتهم اليه ليردوا به هجمات العرب عن القسطنطينية وغيرها من مدنهم في اوربا واسيا وقد فازوا بغرضهم منه لان العرب حاصروا القسطنطينية مرارًا ولم يستطيعوا فتحها . وبالغ الروم في كتمان اسماء المواد التي يتألف منها ذلك المزيج . فظل أمر هذه النار مكتوماً حتى اطلع عليها العرب فاذا هي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها في مقدم السفينة . فيقذفون منها السائل مشتعلاً أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة او قطع من الكتان الملتوت بالنفط فيقع على السفن أو البيوت فيحرقها . والظاهر ان المقذوفات التي احترقت بها الكعبة في حصار الحصين بن نمير لعبدالله بن الزبير سنة ٦٤ هـ انما كانت من هذه النار

وفي المكتبة الاهلية بباريس مسودة خطية قديمة عليها صور رجال من العرب بعضهم على الخيول والبعض مشاة وفي أيديهم خرق مبسوسة بالنار اليونانية يرمون بها على الاعداء (ش ٢٥) وكانوا يسمون النار اليونانية النفط القاذف

﴿ اختراع البارود ﴾ وهناك اختراع ذو بال ينسب فضله الى الافرنج وهو للعرب . نعني به اختراع البارود فالمشهور عند الافرنج ان مخترع البارود رجل اسمه شوارتز سنة ١٣٢٠ م (٧١٩ هـ) ولكن راهباً انكليزياً اسمه روجر باكن من أهل القرن الثالث عشر اشار الى مزيج من قبيل البارود كان شائعاً في أيامه . والصحيح

ان العرب اسبق الناس الى استخدام البارود واذا لم يكونوا اخترعوه فلا أقل من انهم اوصلوه الى ما عرف به في الاجيال الوسطى . فقد ذكر كوندي المستشرق الاسباني المتوفى سنة ١٨٢٠ ان أهل مراكش استخدموا الاسلحة النارية في محاربتهم سرقوسة سنة ١١١٨ للميلاد

وزد على ذلك ان تواريخ العرب تشير الى استخدام هذه الاسلحة في القرن الثالث عشر الميلاد في حرب المسلمين في المغرب . ونرى ذلك صريحاً في كلام ابن خلدون عن قدوم أبي يوسف سلطان مراكش لفتح سجلماسة واستخراجها من بني عبد الواد سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) قال :

« ولما فتح السلطان ابو يوسف بلاد المغرب وانتظمت امصاره ومعاقله في طاعته وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم ومحا رسمهم وافتتح طنجة وطوع سبتة مرفأ الجواز الى العدوة وثغر المغرب — سما أمله الى بلاد القبلة فوجه عزمه الى افتتاح سجلماسة من ايدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وادالة دعوته فيها من دعوتهم . فنهض اليها في العساكر والحشود في رجب من سنة ثنتين وسبعين فنازلها وقد حشد اليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها . فأقام عليها حولاً كريتاً يغاديها القتال ويراوحها الى ان سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليها . فبادروا الى اقتحام البلد فدخلوه عنوة من تلك الفرجة »

وفي هذا القول شاهد صريح على ان البارود كان معروفاً عند العرب وكانوا يستخدمونه في حروبهم قبل الزمن الذي يقول الافرنج ان شوارتز اكتشفه فيه بنحو نصف قرن . وقد وصف العرب تركيب البارود في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد بما يشبه تركيبه الآن

وفي مكتبة بطرسبورج مسودة عربية قديمة فيها صورة رجلين من العرب يشتغلان

في الاسلحة النارية (ش ٢٦) أحدهما الى اليمين يحمل ما يشبه البندقية وفيها القنبلة والبارود داخلها وقد أدناها من لهيب امامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة

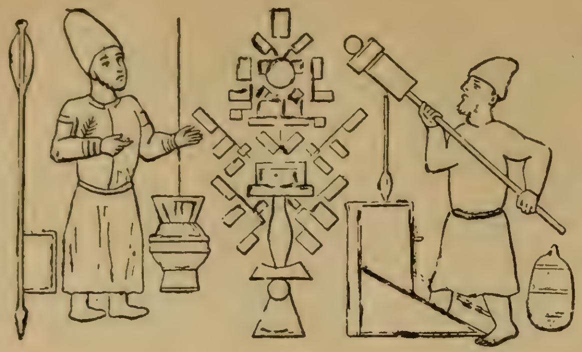

(ش ٢٦) اختراع العرب للاسلحة النارية

وهناك أيضاً صورة فارس (ش ٢٧) يحمل قناة ملفوفة بقماش ذات اهداب لتلت بالنفط وترمى على الاعداء حين الاقتضاء وبجانبي الفارس رجلان ماشيان وعلى بدنيهما وبدنه وبدن فرسه نسيج ذو اهداب يستخدم للنفط عند الحاجة

(ش ٢٧) ادوات النفط

نظام الجند فى الحرب

قلنا في كلامنا عن تاريخ الجند ان نظامه كان عند الامم المتمدنة الصفوف والكتائب وأما العرب في جاهليتهم فقد كانوا على غير نظام وكانت حروبهم من النوع الذي يعبرون عنه بالكر والفر واسمه يدل عليه . وذلك انهم كانوا اذا هموا بالقتال كروا على عدوهم فاذا احسوا بضعف فروا ثم يعودون فيكرون وهكذا بلا نظام ولا قاعدة . فلما ظهر الاسلام كان في جملة اوامره ترتيب الناس صفوفاً في الحرب وهو الآية « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كانهم بنيان مرصوص اي يشد بعضهم بعضاً في الثبات » وفي الحديث « المؤمن المؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » وبناء على ذلك كانت حروب المسلمين في ايام النبي صفوفاً وهو ما يعبرون عنه بالزحف . فكانوا يسوّون كما تسوى الصفوف للصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدو

قدماً واحدة

فحاربوا البدو بنظام لا يعرفونه وقد كان ذلك من جملة اسباب نصرتهم على قبائل العرب اهل الكر والفر — واعتبر ذلك في تراجم الفاتحين العظام كالاسكندر والسلطان سليم العثماني و بونابرت وغيرهم فانهم انما تغلبوا على العالم بنظام جديد ادخلوه في جنودهم او باسلحة جديدة تفردوا بها دون اعدائهم

وكان اهل الكر والفر يمنعون رجالهم عن الفرار بابلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيصفونها وراءهم فتكون فيئاً لهم و يسمونها المجبوذة وهي التي تثبت أقدامهم في الحرب . اما المسلمون فكانوا مع ثباتهم بالزحف يجعلون وراءهم الابل والنساء والولدان والاحمال فيزيدهم ذلك استماتة في الحرب وصبراً على القتال

كان الجند في ايام النبي يترتب صفاً أو صفين تبعاً للكثرة والقلة . فلما تكاثر المسلمون في ايام الخلفاء الراشدين صاروا يجعلونه صفوفاً يرتبونها باعتبار اسلحتها والاحوال المحيطة بها واليك وصية علي بن ابي طالب لجنده يوم واقعة صفين المشهورة (سنة ٣٧ هـ) فانها تحتوي خلاصة نظام الجند في الحرب ايام الراشدين قال :

« فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الاضراس فانه انبى للسيوف عن الهام والتووا على اطراف الرماح فانه أصون للاسنة وغضوا الابصار فانه أربط للجاش وأسكن للقلوب واخفتوا الاصوات فانه أطرد للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الا بايدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر »

﴿ الكراديس ﴾ ثم تكاثر جند العرب واختلطوا بالاعاجم في ايام بني أمية فعمدوا الى « التعبية » وهي ترتيب الكتائب كراديس كما بيناه في تاريخ الجند . وذلك ان الروم كانوا اذا انتشبت الحرب قسموا جنودهم الى اقسام يسمونها كراديس Κοορτις (كورتيس) في اليونانية ومعناها الكتلة او الكتيبة و يسوون كل كردوس كتيبة بصفوفها فيجعلون الملك او القائد العام وحاشيته وراياته وشعاره كتيبة تقوم في الوسط و يسمونها القلب وامامها كتيبة يغلب ان تكون من الفرسان

وهي المقدمة . ويقيمون كتيبة أخرى عن يمين كتيبة الملك يسمونها الميمنة وأخرى الى يساره يسمونها الميسرة وكتيبة وراءه يسمونها ساقة الجيش على هذه الصورة :

	المقدمة	
الميمنة	قلب الجيش	الميسرة
	الساقة	

وترى التعبية على هذه الكيفية خمسة اجزاء ومنها تسمية الجيش بالخميس . فاذا ترتب الجيش على هذه الصورة زحف على العدو زحفاً وربما جعلوا وراءهم ما يثبتهم في زحفهم كما كان يفعل الفرس . فانهم كانوا يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها ابراجاً من الخشب امثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويضعونها وراءهم في حومة الحرب كانها حصون فتقوى بها نفوسهم . وربما جعلوا ملجأهم الاسرة فينصبون للملك سريره في حومة الحرب وراء المقاتلة ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فيئاً للمقاتلة وملجأهم . وكثيراً ما كانت العجم تحارب بالكر والفر وتجعل مثل ذلك الملجأ وراء جندها مما لا يقع تحت حصر . فاضطر العرب في كثير من وقائعهم مع الفرس والروم في صدر الاسلام ان يحاربو بالكراديس كما فعل خالد بن الوليد في واقعة اليرموك سنة ١٣ هـ فعبى تعبية لم تعب العرب مثلها قبلها فجعل جيشه ٣٦ كردوساً الى الاربعين وجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنه كراديس وأقام عليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن ابي سفيان الخ . وكذلك فعل سعد بن ابي وقاص في القادسية سنة ١٤ هـ

ولكن يظهر انهم انما فعلوا ذلك اضطراراً لمحاربة الروم بمثل نظامهم . ولم يجعلوا التعبية قاعدة حروبهم الا سنة ١٢٨ هـ على عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فانه أبطل الصفوف ونظم الكراديس فحارب بها الضحاك الخارجي ثم الخبيري . ولما

بطلت الصفوف تنوسي الزحف ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما دخل الدولة من الترف ولم يعودوا يحملون نساءهم واولادهم معهم الى الحرب

على ان بعض دعاة الخلافة من اهل البيت اعتبروا العدول عن الصف الى الكراديس بدعة في الاسلام فظلوا على الزحف صفوفاً ولو ادى بهم الى الخطر . كما فعل ابراهيم بن عبدالله بن الحسن بن علي بن ابي طالب لما بعث المنصور عيسى بن موسى لمحاربته فالتقيا باخمرا على ١٦ فرسخاً من الكوفة . فأشار عليه بعض اصحابه ان يجعل جنده كراديس « لان الكراديس اثبت في الحرب فاذا انهزم كردوس ثبت كردوس اما الصف اذا انهزم بعضه تداعى سائره » فقال ابراهيم وسائر من معه « لا نصف الا صف اهل الاسلام » يعني الآية « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله ... الخ » فدارت الدائرة على ابراهيم

وبعد رسوخ المسلمين في المدنية تفننوا في تعبية الجيوش بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم او دراستها . وتعددت ضروب التعبية عندهم حتى صارت سبع تعبيات وان كانوا لا يستعملونها كلها ولكنهم ادخلوها في فنونهم الحربية : التعبية الاولى ان ترتب الجيوش بشكل الهلال قالوا ان الفرس المتقدمين ذكروه وهو نوعان الهلال المرسل او الحاد وهو البسيط مثل هلال السماء ◡ . والهلال المركب وهو ان يكون الى جانبي الهلال شبه هلالين كانهما جناحان وهي التعبية الثانية . والتعبية الثالثة المربع المستطيل . والتعبية الرابعة الهلال المقلوب ⌓ . والخامسة ان ينظم الجيش في شكل المعين او المربع المنحرف . والسادسة المثلث والسابعة الدائرة المزدوجة وهي دائرتان احداهما داخل الاخرى . وكانوا يعمدون الى هذا الضرب من التعبية اذا كان جندهم قليلاً وجند عدوهم كثير وهو يشبه آخر ما بلغ اليه المتمدنون من التفنن في التعبية نعني به مربع بونابرت الذي دوخ به الممالك وهو عمدة الجنود المنظمة الى اليوم . فكان المسلمون اذا عبوا الجيش الى الحرب نظموه اما كراديس او مربعات او مثلثات أو جعلوا بعضه كراديس وبعضه مربعاً او هلالياً او معيناً او مثلثاً على ما تقتضيه الاحوال

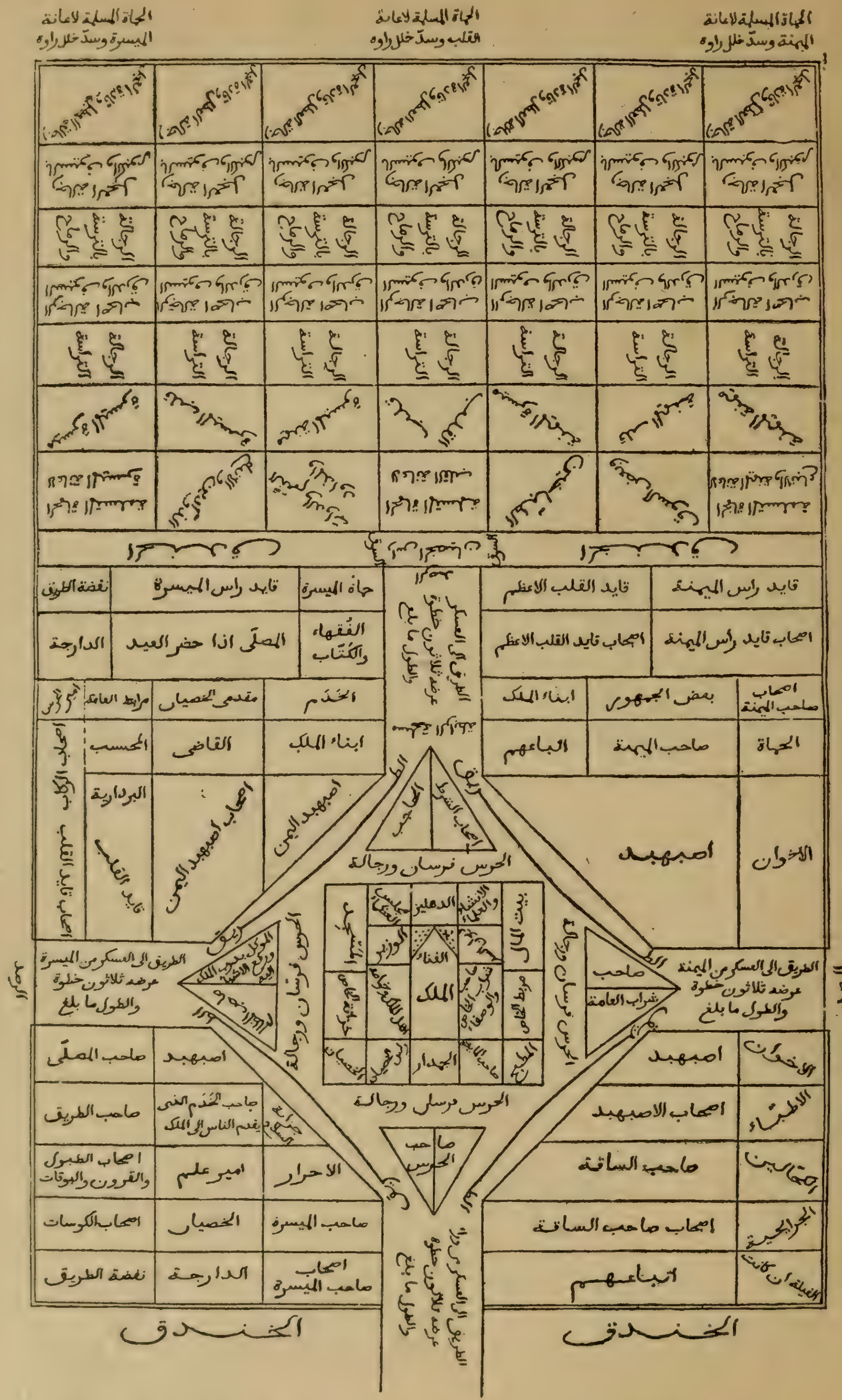

(ش٢٨) معسكر اسلامي كامل في ارقى ما بلغ اليه نظام الجند عندهم

﴿ المعسكر ﴾ أما تنظيم المعسكر فلم يكن له علم خاص في اوائل الاسلام بل كان العرب يجرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا في جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط وحوله فساطيط الامراء والخاصة. واذا كانت النساء والاولاد معهم جعلوهم وراء المعسكر. ولما ابطلوا حمل العيال معهم كما تقدم جعلوا يقلدون الروم والفرس في مضاربهم وتفننوا في ذلك على ما اقتضته الاحوال . فلما تعددت فرق الجند وكثرت الحاشية والمماليك والخدمة صار المعسكر اشبه ببلد فيه فضلاً عن اصناف الجند الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالين وأصحاب الطبول والاتباع وغيرهم كما ترى في الشكل ٢٨ وهو ارقى ما بلغ اليه نظام المعسكر في الاسلام

مناداة الجند وشعاره

﴿ مناداة الجند ﴾ وكانوا في اوائل الاسلام اذا تهيأ الجيش للقتال نادى قواده « النفير النفير » وهي علامة الهجوم عندهم تقابل نداء قواد الجند الآن في مصر « هجوم حاضر أل » ثم « هجوم » . واذا ارادوا ارجاعهم قالوا « الرجعة الرجعة » وهي مثل قولهم اليوم « جَرْ يَه » . وكانوا اذا أرادوا ان يركب الفرسان للحرب نادوا « الخيل الخيل » ويقال لمثل ذلك في الجيش المصري « بِين مايه حاضر أل » ثم « بِين » . واذا ارادوا ان يترجلوا قالوا « الارض الارض » ومثلها في مصر « إِين مايه حاضر أل » ثم « إِين »

ولما تمدن المسلمون وتعددت اجزاء جندهم وتنوعت حركاتهم جعلوا لكل حركة نداء خاصاً يدل لفظه على المراد به وهذه اسماؤُها (١) الميل (٢) الانقلاب (٣) الانفتال (٤) تسوية الانفتال (٥) استدارة صغرى (٦) استدارة كبرى (٧) تقاطر (٨) اقتران (٩) رجوع الى الاستقبال (١٠) استدارة مطلقة (١١) اضعاف (١٢) اتباع الميمنة (١٣) اتباع الميسرة (١٤) جيش منحرف (١٥) جيش مستقيم (١٦) جيش مورب (١٧) رض (١٨) تقدم (١٩) حشو (٢٠) رادفة (٢١) ترتيب بعد ترتيب

فكانوا اذا أراد قائد الجند ان يميل جنده الى جهة او يتخذ شكلاً خاصاً من

هذه الاشكال او حركة من هذه الحركات ناداه بكلمة من هذه الكلمات . وهم قد تدربوا على المراد من كل منها فيعملون كما يشاء على مثال الحركات العسكرية في جنود هذه الايام . ثم اختصروا ذلك كله في كلمتين هما «هوجوًّا» و «هوبرًّا» واستعانوا على اتمام المراد بالاشارات . ولذلك فكان على الجند ان يراعوا الرئيس باعينهم حتى اذا مال الى جهة مالوا معه . وفسروا هذين اللفظين بان المراد بهوجوًّا ان تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضاً وعكس ذلك هوبرًّا

﴿ شعار الجند ﴾ كان للعرب في جاهليتهم الفاظ يتعارفون بها في أثناء الحرب يسمونها الشعار وليست هي الفاظاً معينة ولكنهم كانوا يصطلحون عليها على مقتضى الاحوال . فقد كان شعار الاحزاب في غزوة احد «يا للعزى يا لهبل» وكان شعار تنوخ في الحيرة «يا آل عباد الله» وجعل النبي لكل من المهاجرين والانصار شعاراً فكان شعار المهاجرين «يا بني عبدالرحمن» وشعار الاوس «يا بني عبيدالله» وشعار الخزرج «يا بني عبدالله» وسمى خيله «خيل الله» . وكان المسلمون بعد ذلك يجعلون لجنودهم شعاراً يتعارفون به على نحو ما تقدم

الثغور والعواصم

ويراد بها حدود المملكة الاسلامية برًّا وبحراً . فقد رأيت في ما تقدم ان العرب لما جاؤا لفتح الشام انما بدأوا ببرها من جهة حوران مما يلي الصحراء . لان قوات الروم كان معظمها في مدن السواحل . فجعلوا فتوحهم تمتد من البر نحو البحر ومن العرب وأهل البلاد الاصليين الى الروم . فبعد ان فتحوا دمشق ساروا نحو السواحل وفي مقدمتهم يزيد بن أبي سفيان واخوه معاوية وكان ذلك في أيام أبي عبيدة على دمشق فجاؤا بيروت وصيدا وجبيل ففتحوها فتحاً يسيراً ثم عاد الروم بعدئذ فاسترجعوها لان قواتهم في البحر كانت كبيرة . وما زالت في ايدي الروم حتى تولى الخليفة عثمان ومعاوية عامله على الشام ففتحوا طرابلس وغيرها . وكانت لمعاوية رغبة في غزو البحر وعثمان يخافه كما كان عمر يخافه من قبل . وما زال معاوية يلح على عثمان حتى اذن له فسلمت ثغور الشام عندئذ للمسلمين فجعل الناس ينتقلون اليها من كل ناحية فعمرت بهم

وكانت ثغور الشام في ايام الخلفاء الراشدين انطاكية وغيرها من السواحل التي سماها الرشيد عواصم • فكان المسلمون يغزون ما وراءها وكان للروم بقية في بعض المسالح بين الاسكندرونة وطرسوس فلما تولى بنو أمية أتموا فتحها • وزادت عمراناً في أيام بني العباس وجعلوا فيها الحامية والسلاح لدفع غارات الروم لانهم كانوا لاينفكون عن مناوأة العرب • فبنى العرب حصوناً هناك ورمموا الحصون التي كان الروم قد بنوها وجعلوا لاهلها عطاءً كبيراً وامروهم بالغزو

وفعلوا نحو ذلك في حدود المملكة الاسلامية من جهة البر فاتخذوا مدناً حصينة جعلوها ثغوراً يقيمون فيها الجند والسلاح في قلاع لدفع العدو او لغزو بلاده

وبناءً على ذلك فان تخوم المملكة الاسلامية بعضها يحاذي الروم وبعضها يحاذي الفرس والذي يحاذي الروم بعضه من جهة البحر وبعضه من جهة البر والبعض الآخر يتصل اليه بالبر والبحر معاً

والحدود البحرية هي على الاطلاق ثغور الشام ومصر فاذا عددنا الثغور الشامية من الشمال كان أولها طرسوس فاذنة فالمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس وارتفاعها اى دخلها نحو ١٠٠،٠٠٠ دينار تنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها من نفقات الحامية والترميم والمخائض والحصون وغير ذلك لايرد منها شيء الى بيت المال بل قد ينفق عليها بيت المال رواتب الجنود • وثغور مصر منها رفح والعريش ودمياط والاسكندرية

ويلي ثغور الشام من الشمال الثغور التي سموها الجزرية نسبة الى جزيرة العراق واولها مرعش ثم الحدث ثم حصون متتابعة الى ثغر شميشاط ثم ملطية • وارتفاع هذه الثغور مع ملطية ٧٠،٠٠٠ دينار يصرف منها في مصالحها ٤٠،٠٠٠ ويبقى ٣٠،٠٠٠ ويحتاج لنفقة الاولياء والصعاليك ١٧٠،٠٠٠ دينار تضاف الى تلك البقية فيكون المجموع مئتي الف دينار سوى نفقات المغازي • والثغور المذكورة هي الواسطة التي منها كانت تقع المغازي • وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج • ناهيك بالثغور التي تحاذي بلاد الهند في الشرق مما يطول شرحه

﴿ الغزوات ﴾ فالثغور المذكورة هي حدود المملكة الاسلامية وهي التي عزلها هارون الرشيد سنة ١٧٠ هـ عن الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم • وكان المسلمون يخرجون منها كل سنة للغزو في البحر والبر جهاداً في سبيل الاسلام • وكان الجهاد

فرضاً على المسلمين يحرضهم الخلفاء عليه كما رأيت في قول ابي بكر يوم تولى الخلافة « لايدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعهُ قوم الا ضربهم الله بالذل » اما غزو البحر فقد كانت مراكبهم تجتمع في سواحل الشام ومصر حتى تلتقي في جزيرة قبرس وعددها ما بين ٨٠ — ١٠٠ مركب • ويسمى ما يجتمع منها هناك الاسطول وكان يتولى قيادة الاسطول صاحب مراكب الثغور الشامية • وكانت تبلغ النفقة على هذه المراكب اذا غزت في مصر والشام مئة الف دينار

وكانت غزواتهم تعين باعتبار الفصول فمنها غزوة صيفية أو شتوية او ربيعية فكانت الربيعية تقع في العاشر من شهر ايار (مايو) اي بعد ان يكون المسلمون قد أربعوا دوابهم وحسنت احوال خيولهم فيقيمون في الغزوة ثلاثين يوماً اي الى العاشر من يونيو. فكأنهم يجدون الكلأ حينئذ في بلاد الروم ممكناً فترتبع دوابهم ربيعاً ثانياً • ثم يقفلون فيقيمون ٢٥ يوماً اي الى ٥ تموز (يوليو) حتى تقوى الخيول فيجتمعون لغزو الصائفة اي الصيف ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً وكانوا في بعض السنين يغزون صائفتين يسمونهما الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى

اما في الشتاء فغزواتهم قليلة ولا يبعدون فيها اكثر من عشرين ليلة ويكون ذلك في آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى اوائل اذار (مارس) ثم يرجعون ويربعون دوابهم

فترى مما تقدم ان الخلفاء لم يقتصروا على حفظ ممالكهم بل جعلوا غزو الممالك الملاصقة لهم فرضاً واجباً عليهم وهو من قبيل الجهاد في سبيل الله كما قدمنا • وكان من اكثر الخلفاء رغبة في ذلك بنو العباس فانهم لما استتب لهم الامر ودانت لهم المملكة الاسلامية تحولوا الى الغزو فكانوا في اوائل دولتهم يرسلون بعض القواد لغزو الروم كل سنة كما يرسلون من يحج بالناس • ثم صار يغزون بانفسهم فقد غزا المهدي سنة ١٦٣ ﻫ الروم بنفسه وسير ابنه الرشيد سنة ١٦٥ ﻫ لغزوهم ومعه ٩٥,٩٣٠ رجلاً فاوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا خليج القسطنطينية بعد ان مروا بمسالح الروم في طريقهم فاسترضاهم صاحبها بمال مقداره ١٩٣,٤٥٠ ديناراً و ٢١,١٤٠,٨٠٠ درهم

فلما وصل الرشيد الى القسطنطينية خافهُ اهلها وكان على كرسي القسطنطينية الامبراطورة ايريني فصالحته على فدية مقدارها سبعون الف دينار تدفعها له كل سنة وان تقيم له الادلاء والاسواق في الطريق • وطول الهدنة ثلاث سنين وبلغ مقدار

ما غنمه المسلمون في اثناء تلك الغزوة غير ما تقدم ٥,٦٤٣ راس من السبي وعشرين الف راس من الدواب ومئة الف راس غنم وبقر وقتلوا من الروم في تلك الغزوة وحدها ٥٤ الف نفس ما عدا الاسارى ومن ذلك يتبين لك ما كان يزيد المسلمين رغبة في الغزو

الاساطيل

﴿ ركوب البحر ﴾ لم يركب العرب البحر قبل الاسلام الا ما كان من سفائن حمير وسبا في أيام التبابعة لانهم كانوا أهل تجارة في البر والبحر . وأما عرب الحجاز فانهم كانوا يخافون البحر ولا يجسرون على ركوبه وذلك شأن البدو الى هذا اليوم . فلما ظهر الاسلام وخفقت اعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبهم فيها فتاقت أنفسهم للغزو في البحر . وأول من ركب البحر منهم العلاء ابن الحضرمي وكان عاملاً على البحرين في أيام عمر بن الخطاب فأحب ان يفتح سواحل فارس وبينه وبينها خليج فارس فعبر عليها في المراكب ولم يستأذن عمر ولم يفلح في غزوته . فشق ذلك على عمر فجعل قصاصه ان يكون تحت امرة سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة يومئذ . وشدد عمر في منع المسلمين من ركوب البحر وكان معاوية قد تولى جند دمشق والاردن وهو رجل المطامع البعيدة فراق له ركوب بحر الروم لغزو ما وراءه فبعث الى عمر يستأذنه فأبى فألح عليه ورغبه في الكسب فكتب عمر الى عمرو بن العاص أمير مصر يطلب اليه ان يصف له البحر فأجابه « يا أمير المؤمنين اني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير . ليس الا السماء والماء . ان ركد احزن القلوب وان ثار أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه دود على عود . ان مال غرق وان نجا برق » فلما جاءه الكتاب بعث الى معاوية يقول « والذي بعث محمداً بالحق لاأحمل فيه مسلماً أبداً »

فلما كانت خلافة عثمان أطاع معاوية لشدة الحاحه ولكنه شرط عليه ان يجعل الغزو في البحر اختيارياً فمن اختار ركوبه حمله وأعانه فركب معاوية في البحر الى قبرس سنة ٢٨ هـ فصالحه أهلها على ٧,٢٠٠ دينار يدفعونها له كل سنة وهي أول

غزاة غزاها المسلمون في البحر . وراق لهم النصر فازدادوا رغبة في غزوه فجعلوا ذلك في أوقات معينة من الصيف والشتاء كما تقدم

﴿ الاساطيل في الاسلام ﴾ ولم يكن للعرب معرفة في الملاحة فاستخدموا اولاً من كان في حوزتهم من الروم وفيهم أهل الصناعة والنواتية فأنشأوا لهم السفن والشواني وشحنوها بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لغزو ماوراء البحر وسموا مجموع السفن اسطولاً وهو لفظ يوناني (Στολος) عربوه . وجعلوا مقر أساطيلهم بحر الروم خاصة واشترك في ملاحة البحر منهم أهل الشام وافريقية والاندلس وأنشأوا دور الصناعة (الترسانة) في تلك البلاد لانشاء السفن وأعداد معداتها . وأول دار للصناعة في الاسلام بنيت في تونس على عهد عبد الملك بن مروان فأمر عامله على افريقية حسان بن النعمان بذلك ففعل وانشأ السفن وجهزها بالعدة والسلاح و بعث فيها المقاتلة لغزو صقلية (سيسيليا) فلم يتيسر لهم فتحها الا في ايام الاغالبة ففتحها أسد بن الفرات على عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب . وفتح ايضاً قوصرة فازداد المسلمون رغبة في غزو البحر فبالغوا في انشاء الاساطيل في افريقية والاندلس فبلغ عدد سفن أسطول الاندلس في أيام عبد الرحمن الناصر في أواسط القرن الرابع للهجرة مئتي سفينة وكان أسطول افريقية نحو ذلك . وأشهر مرافىء الاندلس بجاية والمرية . وكانت دور الصناعة قد تعددت هناك . وكل دار تبني اسطولاً عليه قائد و رئيس فالقائد يدبر امر سلاحه وحربه ومقاتلته والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاذيف . فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو او غرض آخر عسكرت بمرفئها المعلوم وجعلوا النظر فيها كلها لامير واحد من أعلى طبقات المملكة

وأما مصر فقد انشئت فيها دور الصناعة في أواخر القرن الاول للهجرة كما سيأتي . وأول من أنشأ الاسطول فيها عنبسة بن اسحق أميرها من قبل الخليفة المتوكل على الله العباسي وسبب ذلك ان الروم نزلوا دمياط سنة ٢٣٨ هـ وملكوها وقتلوا وسبوا فعظم الامر على أمير مصر فأمر بانشاء الشواني للاسطول وجعل للبحر غزاة مثل غزاة البر وجعل أرزاقهم من أرزاقهم . فاجتهد الناس في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع

المحاربة وانتخب له القواد العارفين وشحنه بالرجال والسلاح وأرسله لغزو الروم في جملة أساطيل افريقية والاندلس والشام فكانت الحروب بين المسلمين والروم سجالاً يأسر بعضهم بعضاً فاحتاج الخلفاء الى افتداء أسراهم بالمال فوضعوا ما يسمونه الفداء

(ش ٢٩) اسطول عربي يحارب الروم وهم يرمونه بالنار اليونانية

وأول من افتدى أسرى المسلمين بالمال هرون الرشيد العباسي سنة ١٨٩ ﻫ وكان الفداء قبله يقع بالمبادلة النفر بالنفر . وأشهر الافدية ١٣ وكلها في أيام بني العباس آخرها جرى في أيام المطيع لله سنة ٣٣٥ ﻫ وبلغ عدد الذين افتداهم الخلفاء في هذه المدة نحو ٥٠,٠٠٠ نفس . وكان الفداء يقع غالباً في اللامش من سواحل بحر الروم

قريباً من طرسوس ويحضر الفداء جمهور من المسلمين والروم فيقضون في الافتداء بضعة عشر يوماً الى بضع عشرات . وشهد الفداء الاول نحو ٥٠٠,٠٠٠ نفس من المسلمين بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة حتى أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء . وجاءت مراكب الروم الحربية باحسن ما يكون من الزي ومعهم الاساري وكان عدد الذي فودوا فيه ٣,٧٠٠ نفس وفي ذلك يقول مروان بن ابي حفصة يخاطب الرشيد من أبيات :

وفكت بك الاسرى التي شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين اعيى المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها

ولما دخلت مصر في حوزة العبيديين (الفاطميين) ملوك أفريقيا بذلوا عنايتهم في انشاء الاساطيل في الاسكندرية ودمياط ومصر وبلغت الجنود البحرية في ايامهم خمسة آلاف لهم الرواتب المعينة . منهم عشرة قواد جامكية كل واحد منهم من ١٠ الى ٢٠ دينار ومنهم أقل من ذلك الى دينارين وهي أقلها . ولهم اقطاعات كانوا يسمونها أبواب الغزاة وكانوا ينتخبون احد هؤلاء القواد رئيساً للاسطول فاذا ساروا الى الغزو كان هو آمرهم وناهيهم . ومع هذا الرئيس أمير كبير من أمراء الدولة . وأما النفقة على غزاة الاساطيل فكان الخليفة يتولى تفريقها بنفسه بحضور الوزير مبالغة في اكرام رجال البحر ورفع منزلتهم . وبلغت المراكب في ايام المعز لدين الله أول الفاطميين ٦٠٠ قطعة ثم نقصت بعده حتى اصبحت مئة قطعة

وكانوا يحتفلون في اخراج الاسطول الى الغزو احتفالاً شائقاً يحضره الخليفة فيجلس في منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الاسطول فتجيء القواد بالمراكب الى هناك وهي مزينة باسلحتها وبنودها وفيها المنجنيقات فيرمي بها فتنحدر المراكب وتقلع وتفعل ما تفعله لو كانت في حرب وهو ما يعبرون عنه اليوم بالمناورة . ثم يحضر الرئيس والمقدم بين يدي الخليفة فيودعهما ويدعو لهما ويعطي المقدم ١٠٠ دينار والرئيس ٢٠ ديناراً . ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم

من الغزو . وفي أيام صلاح الدين انشىء للاساطيل ديوان خاص سموه ديوان الاسطول وعينوا الاموال للنفقة عليه

وكان للاساطيل تأثير كبير في توسعة المملكة الاسلامية لانهم فتحوا بها أشهر جزر بحر الروم ومنها سردانية (سردينيا) وصقلية (سيسيليا) ومالطة وأقريطش (كريد) وقبرص وغيرها . وفتحوا كثيراً من سواحل هذا البحر مما يلي أوربا وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة وعليها العساكر الاسلامية تجيز البحر من صقلية الى بر ايطاليا في الشمال فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم . وخصوصاً في ايام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة الفاطميين . فانحاز الافرنج باساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي من هذا البحر وملك المسلمون سائره بمراكبهم وأساطيلهم وصاروا سلاطين البحر كما كانوا سلاطين البر . وضعف أمر الافرنج الى ان أدرك الدولة العبيدية بمصر والاموية بالاندلس الفشل وطرقها لاعتلال بحكم ناموس التاريخ وأفاق الافرنج وعادوا الى استرجاع بلادهم . فاسترجعوها وسطوا على بلاد المسلمين نفسها وكان ما كان من الحروب الصليبية على ما هو مشهور

وكان المسلمون قد أهملوا أمر الاساطيل وقل تجنيدهم لها وبطل ديوانها وبعد ان كان جند البحر عندهم يلقبون بالمجاهدين في سبيل الله والغزاة في اعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس اصبح لفظ « أسطولي » بمصر لقب اهانة وصارت خدمة الاساطيل عاراً عندهم . وظل ذلك شأنهم حتى ظهر الملك الظاهر بيبرس البندقداري سلطان المماليك الشهير فأعاد شأن الاساطيل ولكنها لم تعد الى ما كانت عليه في عز الاسلام

انحط شأن الاساطيل في مصر والشام وبقي في الاندلس وأفريقيا وبقيت دولة المغرب مختصة بها . وظل ذلك شأنهم الى أواخر دولتهم . وكان عدد أساطيلهم في العدوتين (أوربا وأفريقيا) على ما رواه ابن خلدون مئة أسطول . وفي أثناء ذلك نبغ احمد الصقلي قائد اساطيل المغرب في القرن السادس للهجرة . وانتهت أساطيل

المسلمين في ايامه الى مالم تبلغه قبله ولا بعده . ثم انحطت بانحطاط الدولة حتى انقضت بانقضاء الاسلام في الاندلس

﴿ دار الصناعة ﴾ يراد بدار الصناعة عندهم ما نعبر عنه اليوم بالترسانة او الترسخانة وهما منقولتان عن تلك • لان الافرنج لما فتحوا بلاد العرب كان في جملة ما اقتبسوه عنهم صناعة المراكب كما اقتبسها العرب من اسلافهم وسمى الاسبان دار الصناعة Darcinah واخذتها عنهم سائر لغات أوربا فتقلبت بالنحت حتى صارت ارسنال Arsenal وأخذها العرب عن الاسبان Tarsanah بطريق التركية فظنوها تركية فعربوها ترس خانة او ترسانة وهي اولى ان تسمى دار الصناعة • ويقال نحو ذلك في تخلف لفظ « أميرال » Amiral الافرنجية عن « امير البحر » العربية

وكانت دور الصناعة في بلاد الاسلام كثيرة في الاندلس وافريقيا في الشام ومصر واول دار بنيت لهذه الغاية بمصر انشئت في جزيرة الروضة تجاه الفسطاط في القرن الاول للهجرة • ثم عني أحمد بن طولون في توسيعها وتحسينها ثم نقلت الى الفسطاط في أيام الاخشيد في أول القرن الرابع للهجرة حتى لايكون بينها وبين الفسطاط بحر • ثم أنشأ الفاطميون داراً للصناعة في المقس بقرب مدينتهم (القاهرة) وكانت تصنع في هذه الدور المراكب على أنواعها ومنها النيلية والحربية • فالنيلية كانوا ينشئونها لتمر في النيل من أعلى الصعيد الى مصاب النيل تحمل الغلال وغيرها • والحربية هي مراكب الحرب لحمل المقاتلة للجهاد وهي التي يقال لمجموعها الاسطول

﴿ اشكال السفن ومعداتها ﴾ وكانت المراكب الحربية أنواعاً تتفاوت شكلاً وجرماً وقوة • منها « الشونة » وهي مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها ابراجاً وقلاعاً للدفاع • و« الحراقة » كانوا يحملون فيها منجنيقات يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء ويسمون المنجنيق عرادة • و« الطرادة » سفينة صغيرة سريعة الجري • و« العشاريات » مراكب يساربها في النيل • وهناك سفن اخرى لاغراض أخرى مثل الشلندات والمسطحات وغيرها • وكانوا يبنون سفنهم على امثلة سفن اليونان والرومان لانهم أخذوا هذه الصناعة عنهم وعدلوها

وكان من معدات السفن الحربية عندهم الزرد والخود والدرق والتراس والرماح والقسي والكلاليب والباسليقات وهي سلاسل في رؤسها رمانة حديد • والعرادات . وكانوا

يجعلون في اعلى السواري صناديق مفتوحة من اعلاها يسمونها التوابيت يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجار صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق فيرمون العدو بالاحجار وهم مستورون بالصناديق • وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشعال • او جرار النورة وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ يرمون بها في مراكب الاعداء فتعمي الرجال بغبارها وقد تلتهب عليهم اذا تبددت • او يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب أوقدور الصابون اللين فانه يزلق اقدامهم • وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود او اللبود المبلولة بالخل او الماء والشب والنطرون لدفع اذى النفط • وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون او الخطمى المعجون بالخل فان هذه المواد تقاوم فعل النفط

وكان من احتياطاتهم في اثناء الحرب انهم اذا جن الليل لايشعلون في مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكاً • واذا ارادوا المبالغة في الاختفاء سدلوا على المراكب قلوعاً زرقاً كيلا تظهر من بعد

وكانوا يجعلون في مقادم المراكب اداة كالفاس يسمونها « اللجام » وهي حديدة طويلة محددة الراس جدًّا واسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من اسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها « الاسطام » فيصير اللجام كانه سنان رمح بارز من مقدم المركب فيحتالون في طعن المراكب به • فاذا أصاب جانب المركب بقوة خرقه حتى يخشى غرقه بما ينصب فيه من الماء فيطلب أصحابه الامان

واما الكلاليب ففائدتها انهم اذا دنوا من احد مراكب العدو القوا الكلاليب عليه فيوقفونه ثم يشدونه اليهم ويرمون عليه الالواح كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلون • واذا كان العدو قوياً ابطل فعل الكلاليب بفاس ثقيل من فولاذ يضربون به الكلاليب فتنقطع

بيت المال

البحث في بيت المال يشمل النظر في كل مايتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة واعشار واخماس وجزية وغير ذلك . وتعريف بيت المال « ان كل ما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال . وكل حق وجب صرفه في مصالح المسلمين فهو حق على بيت المال » والاموال التي يستحقها المسلمون ثلاثة أقسام الصدقة والغنيمة والفيء ولكل منها أحكام سيأتي بيانها . والاموال المستحقة على بيت المال ارزاق الجند واثمان الكراع والسلاح وغير ذلك مما ينفق في سبيل المصلحة العامة

الصدقة

الصدقة الزكاة يفرق الاسم ويتفق المسمى . وهي تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم وقد ذكرنا أصلها في ماتقدم . وللصدقة ديوان في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات والبلدان ويستقل ولي صدقة في كل بلد بالاستيلاء على أموال الصدقة من أغنياء ذلك البلد وتفريقها على فقرائه

ومصادر الزكاة أربعة زكاة الماشية وزكاة الذهب والفضة وزكاء الاثمار وزكاة الزروع

فزكاة الماشية تؤخذ على الابل والبقر والغنم ولها أحكام وضعها النبي نفسه يستدل على ذلك من كتاب كتبه أبو بكر الى أنس بن مالك لما وجهه الى البحرين وهاك نصه « بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى عليه وسلم على المسلمين والتي أمر الله بها رسوله فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ومن سئل فوقها فلا يعط : في أربع وعشرين من الابل فما دونها من الغنم من كل خمس شاة . اذا بلغت خمساً وعشرين الى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى . فاذا بلغت ستاً وثلاثين الى خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثى . فاذا بلغت ستاً

وأربعين الى ستين ففيها حقة طروقة الجمل . فاذا بلغت واحدة وستين الى خمس وسبعين ففيها جذعة . فاذا بلغت ستا وسبعين الى تسعين ففيها بنتا لبون . فاذا بلغت احدى وتسعين الى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل . فاذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنت لبون . وفي كل خمسين حقة . ومن لم يكن معه الا أربع من الابل فليس فيها صدقة الا أن يشاء ربها . فاذا بلغت خمساً من الابل ففيها شاة . وفي صدقة الغنم في سائمتها اذا كانت أربعين الى عشرين ومائة شاة . فاذا زادت على مائة الى مائتين شاتان . فاذا زادت على مائتين الى ثلثمائة ففيها ثلاث . فاذا زادت على ثلثمائة ففي كل مائة شاة . فاذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة الا أن يشاء ربها . وفي الرقة ربع العشر فان لم تكن الا تسعين ومائة فليس فيها شيء الا أن يشاء ربها » وللفقهاء تفاصيل في ذلك لا محل لها هنا . وأما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة عليها

وزكاة الفضة ليس فيما دون ٢٠٠ درهم صدقة . وأما المائتان فعليها خمسة دراهم كل سنة وذلك على تعديل $\frac{1}{2}$ ٢ في المئة أي ١ — ٤٠ وعلى هذا التعديل تؤخذ زكاة الذهب عن كل عشرين مثقالاً منه نصف مثقال وليس على ما دون العشرين مثقالاً زكاة . واذا زادت على العشرين تضاعفت زكاتها على هذا القياس . ويعد من قبيل الفضة والذهب أموال التجارة ونحوها

وأما الاثمار فزكاتها تختلف باختلاف نوع سقايتها . فاذا كانت مما يسقى سيحاً أي ان الماء يأتيه من المطر أو الانهر بلا تعب او حمل فزكاتها العشر . واذا كانت مما يسقى بالتعب والرجال فنصف العشر . وفي كل حال لا تستحق الزكاة على الاثمار الا اذا بلغت خمسة أوسق فما فوق . والوسق ستون صاعاً والصاع خمسة أرطال وثلث بالعراقي . ويدخل في حكم الاثمار النخل والكرم ونحوها

وأما الزروع ويريدون بها الحبوب بأنواعها كالحنطة والارز واللوبيا والحمص وغيرها فلا تؤخذ عليها زكاة الا بعد أن تبلغ خمسة أوسق أيضاً وحكمها في الزكاة مثل حكم الاثمار

وأما الجهات التي تصرف فيها أموال الزكاة فقد جاء ذكرها صريحاً في القرآن وهو « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » . وبناء عليه كانوا يقسمون أموال الزكاة ثمانية اسهم يدفعون سهماً الى الفقراء وهم الذين لاشيء لهم . والثاني للمساكين وهم الذين لهم ما لا يكفيهم وهم أرفق حالاً من الفقراء . وكانوا يجعلون نصيب كل واحد من هؤلاء بالنظر الى حاله أو مايكفيه على مايتراءى لولي الصدقات على شرط ان لايزيد مايأخذه الواحد على ٢٠٠ درهم لانه اذا أخذ أكثر من ذلك وجبت عليه الزكاة . ويظهر مما رواه القاضي ابو يوسف في كتاب الخراج عن عمر بن الخطاب في هذا الموضوع ان لفظ « المساكين » يشمل فقراء أهل الذمة (النصارى واليهود) وأما « الفقراء » فيطلق على المسلمين فقط . والسهم الثالث يعطى للعاملين عليها وهم القائمون بجبايتها وتفريقها وفيهم الامين والمباشر والمتبوع والتابع فيأخذون أجورهم فاذا زاد سهمهم على مايستحق لهم رد الباقي على السهام الباقية . والسهم الرابع يفرق للمؤلفة قلوبهم وهم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم اما لكف اذاهم عن المسلمين اولرغبتهم في الاسلام أولترغيب قومهم وعشائرهم فيه كما تقدم . واذا كان أحد المؤلفة قلوبهم غير مسلم لا يدفع له من الزكاة بل يدفع له من الغنائم او الفيء . والسهم الخامس ينفق في شراء العبيد وعتقهم . والسادس للغارمين وهم المديونون فيعطى لهم مايقضون به ديونهم . والسهم السابع في سبيل الله يعطى للغزاة وأهل الجهاد نفقة مايحتاجون اليه في حروبهم . والثامن لابناء السبيل وهم المسافرون الذين لايجدون نفقة سفرهم

ويمتاز عمال الصدقات عن سائر عمال المال الآخرين ان عامل الصدقة يجوز له ان يقسم ماجباه بغير اذن الا اذا نهي عن ذلك عمداً . بخلاف أموال الفيء أو الغنيمة فان عمالها ليس لهم ان يتصرفوا بالمال الا بأمر الخليفة أو من يقوم مقامه من الولاة او الوزراء

الغنيمة

الغنيمة ما يكسبه المسلمون بالقتال وتشتمل على أربعة أقسام : اسرى وسبي وارضين وأموال . فالاسرى هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الاسر . وفي الشريعة الاسلامية شروط وأحكام اختلف الائمة في تحديدها مما لامحل له هنا . وفي جملتها قبول الفدية وهي مال يفتدى به الاسير فالمال المأخوذ على هذه الصورة يضاف الى باقي الغنيمة . وأما السبي فهم النساء والاطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين فلا يجوز قتلهم وانما هم يفرقون في جملة الغنائم ويجوز قبول الفدية عنهم

والارض التي تؤخذ في الحرب اما ان تكون قد ملكت عنوة واخرج أهلها منها قهراً أو ان يخرجوا منها خوفاً بلا حرب او ان تدخل في حكم المسلمين صلحاً على شروط فهي من قبيل الفيء . وباختلاف هذه الاحوال وما يشترك بينها اختلفت أنواع الضرائب عليها كالخراج والعشور ونحوهما

أما الاموال المنقولة فهي ما يمكن نقله كالماشية والمال وهي تفرق في المقاتلة . وكانت تفرق في أول الاسلام بلا قاعدة فكان النبي يقسمها على ما يراه . وأول غنائمهم غنائم بدر في السنة الثانية للهجرة فتنازع المهاجرون والانصار في اقتسامها ففرقها النبي فيهم على السواء وهو كواحد منهم . ثم جاء الامر بالتخميس في الآية « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وأول غنيمة خمست على هذه الصورة غنيمة غزوة بني قينقاع بتلك السنة فقسمت أموالها الى خمسة أقسام تفرقت أربعة منها في المقاتلة . والخمس الخامس وهو خمس النبي قسم الى خمسة أسهم . السهم الاول ينفقه على نفسه وأزواجه وفي مصالح المسلمين . والثاني يفرق على ذوي القربى وهم بنو هاشم رهط النبي وبنو عبد المطلب وبنو عبد مناف خاصة ولا حق لاحد سواهم من قريش . والثالث لليتامى من ذوي الحاجات ويستوي فيه حكم الغلام والجارية . والرابع يفرق في المساكين الذين لايجدون ما يكفيهم . والسهم الخامس لابناء السبيل وهم المسافرون الذين لايجدون ما ينفقون

ويعد من قبيل الاموال أيضاً الاسلاب وهي ثياب القتلى واسلحتهم فهذه كانوا يفرقونها على القاتلين فيأخذ كل رجل اسلاب الذي قتله

وأما الاراضي التي كانت تقع في ايديهم عنوة أو صلحاً فقد أراد بعضهم في صدر الاسلام ان يجعلها غنيمة تقسم بين الفاتحين مثل قسمة أموال الغنيمة . فأبى عمر ابن الخطاب عليهم ذلك كما يتبين من كتاب كتبه الى سعد بن أبي وقاص بعد فتح العراق ونصه « اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم الارض بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم . فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به من العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر . واترك الارضين والانهار بعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين . فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء »

فاعترض عليه بعضهم بان الارض حق لهم لانهم فتحوها باسيافهم . فجادلهم واقنعهم بان يضع الخراج عليها والجزية على أهلها ويكون كلاهما فيئاً للمسلمين على ممر الاجيال . وبناء عليه وضع عمر الجزية والخراج على أرض العراق وغيرها من البلاد المفتوحة ودون ذلك في السجلات على مثال ما كان الفرس والروم يدونون وهو ما يعبرون عنه بتدوين الدواوين كما تقدم

الفيء

هو سائر ما بقي من أموال بيت المال . وفي الشرع « الفيء كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا بايجاف خيل ولا ركاب » ويدخل فيه الجزية والخراج والاعشار وغيرها . وكان للنبي خمس الفيء يقسم كما يقسم خمسه من الغنائم فاصبحت حصته بعد موته من الفيء أيضاً من حق بيت المال . وكانت الاربعة الاخماس الباقية من الفيء تقسم في صدر الاسلام على الجيش وهم المهاجرون والانصار يفرق فيهم على السواء حتى وضع عمر الديوان وقدر أرزاق الجند على ما ذكرناه فاصبح الفيء يوضع في بيت المال وينفق منه على الجند وغيرهم حقوقهم المعينة

وقد رأيت فيما تقدم ان اهل الصدقات هم غير أهل الفيء والغنيمة . فلا تصرف

الصدقات في أهل الفيء ولا يصرف الفيء في أهل الصدقات . فان الفيء والغنيمة لاهل الهجرة والحرب المجاهدين في سبيل الاسلام . وأهل الصدقات ليسو من المقاتلة ولا هجرة لهم وكان اسم الهجرة يطلق في الصدر الاول على من هاجر من وطنه الى المدينة لطلب الاسلام . وكانت كل قبيلة أسلمت وهاجرت بأسرها تدعى « البررة » وكل قبيلة هاجر بعضها تدعى « الخيرة » . فكان المهاجرون بررة وخيرة . ثم سقط حكم الهجرة بعد الفتح وصار المسلمون مهاجرين واعراباً . لان أهل الصدقة كانوا يسمون على عهد النبي اعراباً ويسمى أهل الفيء المهاجرين ومن ذلك قول الشاعر :

قد لفها الليل بعصلبي أروع خراج من الدربي
مهاجر ليس باعرابي

وكان الخلفاء في صدر الاسلام يدققون في التمييز بينهما فاذا أراد الخليفة ان يعطي طالباً لا يعطيه من مال الفيء الا اذا كان العطاء عائداً الى مصلحة المسلمين العامة . والا فانه تعطيه من مال الصدقة . ويروون عن عمر بن الخطاب غير حكاية تدل على شدة تمسكه بهذه القاعدة . منها ان اعرابياً أتاه فقال :

يا عمر الخير جزيت الجنة ٭ اكس بنياتي وأمهنه
وكن لنا من الزمان جنة ٭ اقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر « ان لم افعل يكون ماذا » قال :

اذن أبا حفص لأذهبنه

قال « واذا ذهبت يكون ماذا » فقال :

يكون عن حالي لتسألنه ٭ يوم يكون لا عطايا هنه
وموقف المسئول ينهينه ٭ اما الى نار وأما جنه

فبكى عمر حتى خضبت لحيته بدموعه وقال « يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره . أنا والله لا املك غيره » فجعل ما وصل به الاعرابي من ماله لا من مال المسلمين لان صلته لم تعد تنفع على غيره فخرجت من المصالح العامة

وكان مما نقمه الناس على عثمان انه جعل الصلات من مال الفيء ولم ير الفرق بين الامرين . ولما مضى زمن الهجرة وصار الاسلام دولة جوزوا صرف كل واحد من المالين في كل واحد من الفريقين حسب الاقتضاء . وازدادت موارد الفيء باتساع المملكة الاسلامية وتعددت أبوابها وصاروا يعبرون عن الفيء بجباية الاعمال وهو ما يجبى من أصناف الاموال كالجزية والخراج والصدقات واعشار السفن واخماس المعادن والمراعي وغلة دار الضرب والمراصد والضياع والمستغلات الخ . وقد تقدم الكلام في الصدقات وسنذكر اهم ما بقي من مصادر الفيء

الجزية

الجزية والخراج متشابهان بانهما يؤخذان من غير المسلمين وهما من جملة اموال الفيء ويجبيان باوقات معينة كل سنة ولكنهما يختلفان بان الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالاسلام واما الخراج فلا يسقط

(تاريخ الجزية) والجزية ليست من محدثات الاسلام بل هي قديمة من اول عهد التمدن القديم . وقد وضعها يونان أثينا على سكان سواحل اسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين وفينيقية يومئذ من اعمال الفرس . فهان على سكان تلك السواحل دفع المال في مقابل حماية الرؤوس . والرومان وضعوا الجزية على الامم التي اخضعوها وكانت اكثر كثيراً مما وضعه المسلمون بعدئذٍ . فان الرومان لما فتحوا غاليا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من اهلها جزية يختلف مقدارها ما بين ٩ جنيهات و ١٥ جنيهاً في السنة او نحو سبعة اضعاف جزية المسلمين . ولم تكن الجزية كبيرة بهذا المقدار في كل البلاد التي افتتحها الرومان ولكنهم يعللون كبرها في غاليا ونحوها انها كانت تؤخذ من الاشراف عنهم وعن عبيدهم وخدامهم . وكان الفرس ايضاً يجبون الجزية من رعاياهم — ويرى صديقنا العلامة الهندي الشهير الشيخ شبلي النعماني ان لفظ الجزية فارسي الاصل وانه في الفارسية « كزيت » وقد فصل قوله في رسالة نشرها في الانكليزية عام ١٨٩٤ — ويؤيد ذلك ما اورده ابن الاثير في كلامه عما فعله كسرى انوشروان في الخراج والجند قال « والزموا الناس الجزية ما خلا العظماء واهل البيوتات والجند والمرازبة والكتاب ومن في خدمة الملك كل انسان على

قدره اثنى عشر درهماً وثمانية دراهم وستة دراهم وأربعة دراهم » فالظاهر ان العرب اخذوها عن الفرس لفظاً ومعنىً فعربوا لفظها حتى صار (جزية) وعدلوا في كيفية جمعها كما رايت • وقد رفعوها عن المسلمين كما فعل كسرى ايضاً لان المسلمين عندهم هم الجند والعظماء واهل البيوتات الذين استثناهم كسرى من الجزية

﴿ مقدار الجزية ﴾ اما الجزية التي وضعها المسلمون فقد كان النبي يقدرها بحسب الاحوال وعلى مقتضى التراضي الذي كان يقع بين المسلمين واعدائهم • فلما صالح اهل نجران تراضوا على جزية مقدارها ٢,٠٠٠ حلة في صفر و ١,٠٠٠ في رجب ثمن كل حلة اوقية والاوقية اربعون درهماً • وصالح اهل اذرح على ماية دينار كل رجب • وصالح اهل مقنا على ربع اخشابهم وغزولهم وكراعهم ودروعهم وثمارهم • وصالح غيرهم من يهود جزيرة العرب على نحو ذلك

وما زالت الجزية بلا تعيين الى آخر أيام أبي بكر • فلما تولى عمر وكثرت الفتوح عين مقدارها فكتب الى امراء الاجناد يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من جرَّت عليه الموسى وان يجعلوها على اهل الفضة كل رجل اربعين درهماً وعلى اهل الذهب اربعة دنانير وعليهم من ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت مديان حنطة وثلاثة اقساط زيتاً كل شهر لكل انسان في الشام والجزيرة • ثم تعدلت فتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم فوضعوا على الظاهر الغنى ٤٨ درهماً تدفع اقساطاً ٤ دراهم في كل شهر • وعلى أوسط الحال ٢٤ درهماً كل شهر درهمان • وعلى الفقير ١٢ درهماً كل شهر درهم ولا يؤخذ شيء من النساء والصبيان ولا من اهل العاهات ولا من الرهبان الذين لا يخالطون الناس • الا البلاد التي عقدت شروط الجزية عليها باتفاق خاص كما عقد صلح مصر مع عمرو بن العاص على ان يدفع القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيءٌ وعليهم اضافة من ينزل عليهم من المسلمين ثلاثة ايام وغير ذلك

وكثيراً ما كانوا يقدرون الجزية باعتبار ما يبقى في ايدي الناس من دخلهم بعد نفقاتهم كما وقع لاهل الجزيرة بالعراق فقد كان الذي فتحها عين جزيتها ديناراً على كل راس فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك فبعث الى عامله هناك فاحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بايديهم • وحسب ما يكسب العامل سنته كلها وطرح من ذلك

نفقته في طعامه وادمه وكسوته وطرح ايام الاعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك اربعة دنانير لكل واحد فالزمهم دفعها وجعل الناس طبقة واحدة

والجزية تضرب كما قلنا على غير المسلمين فمن اسلم سقطت عنه الاّ في ايام عبدالملك بن مروان فان الحجاج وضعها على من اسلم من اهل الذمة • وخاطب عبد الملك اخاه عبد العزيز عامله على مصر يومئذٍ ان يضعها على من اسلم فشاور عبد العزيز بن حجيرة احد خاصته فاعظم الامر وقال « اعيذ بالله ان تكون اول من سن ذلك بمصر فوالله ان اهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من اسلم منهم » فتركهم فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقي الشهير ابطل ذلك من العراق ولم توضع الجزية على مسلم بعد ذلك

وتقبل الجزية من غير المسلمين اياً كانوا الاّ اذا كانوا من العرب عبدة الاوثان او من المرتدين فهولاء لا يقبل منهم الا الاسلام او السيف • اما النصارى واليهود والمجوس وعبدة الاوثان من العجم فيقبل منهم الاسلام او الجزية او السيف

والقصد من ذلك توحيد امة العرب • فاباد النبي الوثنية من جزيرة العرب بحياته ولما تولى عمر اخرج من كان باقياً فيها من النصارى واليهود • وقد قلنا ان الجزية لاتوضع الا على من بلغ الحلم من الاصحاء ومعنى ذلك انها بدل من القتل او القتال اي ان دافعها لايقتل ولايدعى الى قتال • ويشبهها من هذا القبيل مايدفعه نصارى المملكة العثمانية من الضريبة المعروفة بالعسكرية وهي تدفع في مقابل اعفاء النصارى من الجندية

الخراج

﴿ تاريخه ﴾ الخراج مايوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها وهو أقدم انواع الضرائب . والاصل في وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الارض ملكاً للسلطان او الملك وهذا الاعتقاد قديم جدًّا . وفي التوراة أقوال صريحة في كيفية دخول الارض في ملك الفراعنة وردت في حكاية المجاعة الشهيرة في الفصل السابع والاربعين من سفر التكوين لما جاع المصريون في أثناء القحط فباعوا يوسف كل ما اقتنوه من فضة وذهب وماشية ولم يبق لهم الا الارض فباعوه اياها بالخبز

وهكذا كان شأن الارض في كل الممالك القديمة . فالارض للملك والاهالي انما

يتمتعون بريعها . وللحكومة حصة من ذلك الريع وهو الخراج . ومن عادات التتر ان الانسان يستأثر بملك الماشية وأما الارض فانكروا حق تملكها على الافراد . وكان الجرمان القدماء لا يعترفون بملك الارض الا لحكامهم أو رؤسائهم . فكان رئيس القبيلة يوزع أراضيها على افرادها . وفي السنة التالية توزع عليهم بالتناوب بحيث ان القطعة الواحدة لا يستغلها الرجل الواحد سنتين متواليتين . ومثل هذه العادة لا تزال الى اليوم شائعة في بعض شعوب الصقالبة

وعلى هذا المبدأ كان الرومان يضعون الضرائب على اراضي مملكتهم وفي جملتها مصر والشام وغيرها مما فتحه المسلمون من بلادهم . وكان لهم في كل ولاية ديوان خاص بالخراج تدون فيه اعماله ودخله وخرجه وله كتاب وجباة وعمال من أهالي البلاد او من الحكام . وكان نحو ذلك حال الفرس في العراق وفارس لان الفرس اقتبسوا كثيرًا من قوانين اليونان والرومان

فلما ظهر المسلمون وفتحوا الشام ومصر والعراق وغيرها أقروا الدواوين على ما كانت عليه من قبل ولم يغيروا فيها شيئًا . وظل كتاب الدواوين من أهل البلاد أنفسهم من النصارى والمجوس كما كانوا في عهد الدول السابقة . فكان عمال ديوان الخراج في مصر الاقباط ويكتبون ديوانهم بالقبطية وعمال ديوان الشام الروم وكانوا يكتبونه بالرومية وديوان العراق يكتبه الفرس بالفارسية . والعرب يراقبون أعمال الدواوين ويستولون على جبايتها كأنهم لم يريدوا بفتح البلاد امتلاكها لرغبتهم يومئذ في الدين عن الدنيا . فلما صار الامر الى بني أمية وانتقل المسلمون من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحساب غيروا الدواوين الى لسانهم وسلموا أمورها الى رجال من المسلمين . وأول من فعل ذلك منهم عبد الملك بن مروان (نحو سنة ٨١ هـ) فصارت الدواوين عربية من ذلك الحين . وربما كان عبد الملك البادئ بذلك التغيير ثم أتمه من جاء بعده لان ديوان مصر تمَّ نقله الى العربية على عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ وأما الحجاز فقد كان ديوانه في المدينة على ما وضعه عمر بن الخطاب كما ذكرناه

في محله . وهو أشبه ان يكون ديوان الجند أو ديوان الاعمال والجبايات لانه دوّن فيه أسماء الصحابة وعين اعطياتهم وطبقاتهم وضبط مايرد على المدينة من بقايا الخراج والجزية بعد دفع نفقات الجند في مصر والشام والعراق

وكان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في أمر الخراج ويراقبون سير الجباية فلما أفضى الامر الى الدولة العباسية وضعوا ديوانًا مركزياً للخراج يشمل ما تحته من دواوين الاعمال — وضعه السفاح وعهد أمره الى خالد بن برمك جد البرامكة وكان ذلك أول خطوة بتداخل البرامكة في شؤون الدولة وتصرفهم بأموالها . وكان في جملة تصرفهم فيها انهم كانوا يضمنون مبلغ الخراج لاولادهم وأهلهم كما ضمن يحيي بن برمك في أيام المهدي خراج فارس وانكسر عليه المال . وأصبح ديوان الخراج في أيدي الوزراء مثل غيره من الدواوين حتى اذا ضعف أمر الدولة العباسية وصارت أمورها الى الامراء فأبطلت الدواوين في أيام الراضي بالله

﴿ تقدير الخراج ﴾ قلنا فيما تقدم ان العرب اقروا الخراج ودواوينه وسائر أحواله على ما كان عليه في أيام الدول السابقة (الروم والفرس) ويؤخذ مما ذكره المقريزي ان جباية خراجهم كانت بالتعديل وهو مايعبرون عنه بالمقاسمة — اذا عمرت القرى وكثر أهلها زيد خراجهم وان قل أهلها وخربت نقصوه

وكانت جباية الشام على نحو ذلك أيضاً . وأما الفرس فكانوا يأخذون خراج أرضهم بالمقاسمة حتى مسحه قباذ بن فيروز قبل الاسلام وجعله بالمساحة فضرب على الجريب الواحد درهماً وقفيزاً (الجريب ٣,٦٠٠ ذراع مربع) مهما يكن حاله من الخصب أو الجدب فلما فتح المسلمون البلاد عدلوا في الخراج على ما اقتضته الاحوال في سائر البلاد . ولهم قوانين عامة في الارضين : فالارض في الاسلام أربعة أقسام (١) أرض استأنف المسلمون إحياءها فهي أرض عشر للامام عشرها وتعد من قبيل احياء الموات (٢) أرضٌ أسلم أهلها عليها فهم أحق بها وهي أيضاً أرض عشر (٣) ارض ملكها المسلمون عنوة فهي غنيمة لهم وتعد أيضاً من أرض العشر (٤) أرض صولح أهلها عليها وهي الارض المختصة بالخراج وخراجها لا يبطل ولو أسلم أهلها .

وقدر الخراج على هذه الارض يعتبر بما تحتمله . فلما فتحت العراق وضع عمر على سواده مثل ما كان الفرس قد وضعوه عليه وهو عن كل جريب من الارض قفيز ودرهم والقفيز عشر الجريب أي ٣٦٠ ذراعاً مربعاً . وضرب عمر على ناحية أخرى بطريقة أخرى فجعل مقدار الخراج تابعاً لنوع المحصول فأمر عثمان بن حنيف بالمساحة فمسح ووضع على كل جريب من الكرم والشجر الملتف عشرة دراهم ومن النخل ثمانية دراهم ومن قصب السكر ستة دراهم ومن الرطبة خمسة دراهم ومن القمح أربعة دراهم ومن الشعير درهمين فقبل عمر بذلك

وظلت أرض العراق بالمساحة أو التوظيف او الوظيفة الى أيام المنصور العباسي فعدل الى المقاسمة لان السعر نقص فلم تكن الغلات تفي بخراجها وخرب السواد فجعله مقاسمة اذا زادت الغلة زاد الخراج . وتقدير خراج المقاسمة مفوض الى الخليفة لكنه لا يزيد على نصف الغلة ولا يقل عن خمسها

﴿ ملكية الارض ﴾ أما ملكية الارض فظلت كما كانت عليه في أول الاسلام أي ان الارض ملك للامام . وان الناس يستغلونها وللحكومة حق من غلتهم ماعدا بعض الاراضي الممتازة مما يسمونه الاواسي أو الرزقة او نحوهما مما لا محل لتفصيله هنا . حتى دخل القرن التاسع عشر وحصلت الاصلاحات السياسية في المملكة العثمانية وفي جملتها مصر فانها لما دخلت في حوزة محمد علي باشا الكبير في أوائل القرن الماضي رأى ببعد نظره ان الاحوال لا تستقيم والفلاح لا يعمل في أرضه الا اذا كانت ملكاً له . وكانت لما تولاها محمد علي قد أصبحت التزامات يلتزمها بعض وجهاء الناس وأهل الغني والنفوذ ويستخدمون الفلاحين فيها ويستغلونها فيدفعون مال الحكومة ويستأثرون بما بقي . فقسم محمد علي مصر الى مديريات والمديريات الى مراكز أو أقسام وهذه الى نواحي وعين فيها موظفين لادارة أمورها وجباة لجمع الضرائب وأبطل الالتزامات ووزع أراضي كل ناحية بين أهالي تلك الناحية نفسها بحيث ان كل فلاح قادر على الشغل ناله قسم من الارض بقدر قسم الآخر

فلما تولى سعيد باشا أصدر لائحته الشهيرة المؤرخة في ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨

فتمم ملكية الارض للاهالي وجعلها ارثاً شرعياً في ذرياتهم وأصبحت الارض المصرية ملكاً للمصريين من ذلك الحين . وجرى نحو ذلك في سائر الممالك المحروسة لان الباب العالي صادق على لائحة سعيد باشا بخط همايوني في هذا المعنى

﴿ ارتفاع الخراج ﴾ ويراد به مقدار ما يجتمع من خراج البلاد في كل عام . وهو أمر يعسر تعيينه لاختلافه باختلاف الزمان والمكان . ولان مؤرخي العرب كثيرًا ما يجمعون بين الجزية والخراج في تقدير الخراج فيقولون ارتفاع الخراج ويريدون به الخراج والجزية جميعاً . والجزية أقل من الخراج واقل ثباتاً منه لما يدخل من أهل الذمة في دين الاسلام بتوالي الازمان . وربما أدخلوا في الخراج أيضاً العشور ونحوها ونحن ذاكرون في ما يلي أمثلة من جباية أعمال المملكة الاسلامية في عصر بني أمية

فالسواد بلغ ارتفاع خراجه في أيام عمر بن الخطاب (سنة ٢٠ هـ) ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم . وفي أيام عبيد الله بن زياد (نحو سنة ٦٢ هـ) ١٣٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم . وفي أيام الحجاج بن يوسف (سنة ٨٥ هـ) ١٨٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم . وجباه عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠٠ هـ) ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم . وكان ابن هبيرة بعده يجبيه ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم سوى طعام الجند وارزاق المقاتلة . ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه الى دار الخلافة ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم الى ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ وينفق على من معه من جند الشام ١٦,٠٠٠,٠٠٠ وعلى البريد ٤,٠٠٠,٠٠٠ وعلى الطوارق ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم ويبقى عنده للنفقة على بيوت الاحداث والعواتق ١٠,٠٠٠,٠٠٠ فكان مجموع جباية السواد على ايامه نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم

أما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار . ولكن يظهر من عبارة المقريزي انها مبلغ الجزية وحدها على الجماجم على فريضة دينارين دينارين من كل رجل قال : وجباها بعده عبد الله بن سعد بن أبي سرح ١٤ مليونًا . وقل خراجها في أيام بني أمية . حتى اذا كانت أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥—١٢٧هـ) فانتبه لها فبعث الى عامله على خراجها وامره ان يمسحها فخرج بنفسه فمسح العامر والغامر

مما يركبه ماء النيل فوجد مساحة ذلك ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فدان [1] سوى ارتفاع الجرف ووسخ الارض فعدلها فعقدت معه ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار وكان السعر راخياً. وجباها اسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبدالملك (سنة ٩٧ هـ) ١٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم . واختلف مقدار الجباية بمصر بعد ذلك وضعف أمرها خصوصاً لما افضى الامر الى بني العباس وبعد مركز الخلافة عن وادي النيل حتى انحط خراجها الى ٨٠٠,٠٠٠ دينار. فلما تولاها ابن طولون (٢٥٧هـ) استقصى عمارتها فبلغت جبايتها ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار مع رخص الاسعار. فقد كان القمح كل عشرة أرادب بدينار . وظل خراجها نحو ذلك في سائر أيام بني العباس

وأما الشام فقد بلغ خراجها في أيام عبد الملك بن مروان ١,٧٢٠,٠٠٠ دينار منها ١٨٠،٠٠٠ من الاردن و٣٥٠،٠٠٠ من فلسطين و٤٠٠،٠٠٠ من دمشق و٨٠٠،٠٠٠ من حمص وقنسرين والعواصم

﴿ تضمين الخراج ﴾ تضمين الخراج نوعان:

(١) تضمينه للعمال أي الولاة الذين يتولون الامصار وهو باطل في الشرع الاسلامي لان العامل مؤتمن يستوفي ما وجب ويؤدي ما حصل . فهو كالوكيل الذي اذا أدى الامانة لم يضمن نقصاناً ولم يملك زيادة . وكان الصحابة في صدر الاسلام يشددون في منع هذا التضمين . حكي عن ابن عباس ان رجلاً أتاه يتقبل منه الابلة بمئة الف درهم فضربه مئة سوط وصلبه حياً تعزيراً وأدباً . ولما صارت الخلافة الاسلامية ملكاً اغضوا عن هذا الامر وصار الخلفاء يضمنون الخراج لعمالهم أحياناً فيعطون بخراج أعمالهم مالاً معيناً ثم يجبون البلاد ويستولون على ما يفضل مهما كان مقداره . كما فعل يحيى بن برمك وغيره وتطرقوا بعده الى تضمين القضاء والحسبة والشرطة كما سترى

(٢) تضمين الخراج للملتزمين وهم اناس من اهل الغنى او النفوذ كانوا يتقبلون الاراضي اي يضمنونها من متولي الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة فيضمن الواحد قرية أو بلداً او كورة فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي

(١) راجع ملاحظاتنا على هذه المساحة في باب المملكة الاسلامية واحصائها

وضمانة الاراضي او التزامها على هذه الصورة ليس من مخترعات الاسلام بل هو قديم من أيام اليونان وقد شاع في المملكة الرومانية وكان في جملة ما اقتبسه العرب منهم

وظل ضمان الاراضي على هذه الصورة شائعاً في المملكة الاسلامية الى عهد قريب وقد مرت عليه ادوار تقلب فيها على أشكال وضروب ومن هذا القبيل ضمان الاعشار في المملكة العثمانية الى اليوم

﴿ توابع الخراج ﴾ وكان من موارد الاموال في الاسلام غير خراج الاراضي وعشورها والصدقات والجزية اعشار السفن واخماس المعادن والمراعي وغلة دار الضرب والمراصد والضياع واثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام وغيرها مما يعد من قبيل الخراج

اما اعشار السفن فكانوا يضربونها على السفن التي تمر ببعض الثغور فيأخذون عشراً مما تحمله اما عيناً او نقداً • فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التي تمر بسواحلهم قادمة من الهند تحمل الاعواد المختلفة والمسك والكافور والعنبر والصندل والصيني فيأخذون الضريبة عيناً • وقد بلغت اعشار السفن في أيام الواثق بالله مالاً كثيراً

وكان الاندلسيون يضربون على السفن التي تمر ببوغاز جبل طارق في ذهابها وايابها فكان الافرنج او غيرهم اذا مروا بسفنهم أدوا الضريبة في مدينة هي اقصى بلاد الاندلس جنوباً يقال لها طريف واسمها الآن طريفة (Tarifa) ويزعم الافرنج في كلمة « Tariff » التي تدل عندهم على الضرائب او الرسوم التي تؤخذ على البضائع في دخولها البلاد وخروجها او الكتاب المتضمن بيان مايؤخذ او على لائحة الاثمان — انها تحريف طريف المشار اليها لانهم كانوا يسمون ما يدفعونه من رسوم السفن « رسوم طريف » ثم اهمل اللفظ الاول وبقي اللفظ الثاني • مع ان لفظ « تعريفة » في العربية يدل على نحو معناها الافرنجي فيجوز ان اللفظ الافرنجي منقول عن لفظ تعريفة العربي او تحريف طريف كما يقولون

واما اخماس المعادن فهي ما كانوا يضربونه على ما يستخرج من باطن الارض من معدن او نحوه • وهي نوعان معادن ظاهرة ومعادن باطنة فالمعادن الظاهرة كالكحل والملح والقار والنفط • فهذه المعادن كالماء الجاري من العيون مباحة في الشرع الاسلامي لايجوز احتكارها والناس فيها سواء يأخذه من ورد اليه • واما الباطنة فهي

ماكان جوهرها مستكناً فيها لايوصل اليه الاَّ بالعمل كمعادن الذهب والفضة والصفر والحديد والرصاص • فهذه المعادن كانوا يقطعونها لاناس يستخرجون ما فيها على ان يؤدوا الخمس لبيت المال

وغلة دار الضرب هي مايخصص لبيت المال من دار الضرب باعتبار شيء في المئة كما ذكرنا في كلامنا عن دار الضرب من هذا الكتاب • وقد بلغت غلة دار الضرب في عهد بني مروان بالاندلس ٢٠٠,٠٠٠ دينار في السنة

ومن انواع الضرائب التي كانت تؤخذ في الاسلام المكوس واحدها مكس وهو ضريبة تضرب على اصناف التجارة من قبيل ما يعرف اليوم بالكمرك او الفردة او نحوهما • وكان المكس او المقس شائعاً في الجاهلية فكان يؤخذ من تجار القبط والفرس في المدينة عشر متاجرهم فلما ظهر الاسلام اقرهُ عمر بن الخطاب وكانت هذه الضريبة لاتوخذ من التاجر الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد اخرى • فالشامي اذا طاف بلاد الشام كلها بتجارته لايؤخذ منه عشر او مكس • واما اذا انتقل الى مصر او العراق فيؤخذ منه المكس • وكان المكس على ما فرضه عمر ثلاث درجات : فيؤخذ من اهل الذمة (النصارى واليهود) نصف العشر اي من كل عشرين درهماً درهم ومن المسلم ربع العشر اي من كل ٤٠ درهماً درهم • وليس في ما دون المائتين شيء ويؤخذ من العربان الذين ليسوا من الرعايا العشر كاملاً ولم يرج المكس في الاسلام لان اهل الورع كانوا يكرهونه وقس على ذلك ما بقي من انواع الضرائب

﴿ الاقطاع ﴾ ومما يلحق بالخراج ايضاً مال القطائع والاقطاع قديم في الدول واصله ان الملك اذا فتح بلاداً واراد استبقاءها واستغلالها فرقها على قواده في مقابل حربهم واتعابهم كأنها اجرة لهم ويؤيد ذلك ان اصل لفظ الاقطاع في الافرنجية معناه الاجرة والقواد يفرقون تلك الارض في ضباطهم وهؤلاء يفرقونها في العساكر او من يقوم مقامهم ويشترط الملك على قواده عند اعطائهم هذه الهبات ان يكونوا امناء له في الحرب والسلم فاذا خان احدهم ونكث رجعت الارض الى واهبها واذا كان الخائن جندياً صغيراً رجعت الى ضابطه او كان ضابطاً رجعت الى قائدهِ وهكذا حتى ترجع الى الملك فكان من عواقب هذا المبدا ان تبقى الارض في أيدي الملوك بشروط واساليب وضعوها لذلك لا محل لاستيفائها هنا وبمقتضاها يكون الملك ورعيته وجنده يداً واحدة

في الدفاع عن البلاد لاشتراك مصالحهم وتبادلها فيها وانتشر مذهب الاقطاع في ممالك اوربا وساعد اهلها على طرد الرومانيين من بلادهم

اما في الاسلام فالاقطاع كان على كيفية أخرى . ويؤخذ مما كتبه الامام أبو يوسف ان الاراضي التي تقع في أيدي المسلمين ولم يكن لها مالك يطالب بها كالارض التي تكون لحاكم البلاد قبل فتحها او تكون لرجل قتل في الحرب او ان تكون من مغيض ماء او نحو ذلك — فهذه الاصناف من الارض كان الخلفاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن شاؤا على ان يؤدي عشر مالها لبيت المال او اكثر او اقل على ما يتراءى للخليفة فبلغ خراج الارض التي دخلت تحت هذه الشروط من ارض السواد في أيام عمر ٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم وجرى على نحو ذلك من جاء بعده من الخلفاء والامراء فبلغت غلتها في ايام عثمان ٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم فلما كان عام الجماجم سنة ٨٢ هـ في فتنة عبد الرحمن بن الاشعث احرق الديوان فاستولى كل قوم على ما كان في أيديهم

وكان بنو أمية وبنو العباس يقطعون الاراضي لبعض خواصهم واهلهم فلا يأخذون عليها خراجاً . فتؤخذ اعطيات الجند وسائر النفقات من مال الخراج ويحمل ما فضل الى بيت المال والقطائع تبقى في أيدي أصحابها

فلما خرجت السلطة من الخلفاء وافضت الى السلاطين السلجوقية جعلوا الاقطاع عاماً على يد نظام الملك كما تقدم في الكلام عن أعطيات الجند واقتدى به سائر السلاطين بعده وفي جملتهم الاكراد دولة بني ايوب بمصر فان السلطان صلاح الدين جعل البلاد كلها اقطاعاً لامرائه وجنده وخصوصاً مصر . ثم تعدلت الاقطاع بعد ذلك وتبدلت فصارت بعض الارض اقطاعاً وبعضها مباعاً وبعضها موقوفاً . ووصف المقريزي ارض مصر في أيامه (في القرن التاسع للهجرة) فقال انها تقسم الى سبعة اقسام : قسم يجري في ديوان السلطان . وقسم أقطع للامراء والاجناد . وقسم جعل وقفاً محبساً على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى ذراري واقفي تلك الارض . وقسم يقال له الاحباس وهي اراضي في ايدي قوم يأكلونها عن قيامهم بمصالح مسجد او نحوه . وقسم صار ملكاً يباع ويشرى ويورث ويوهب لانه مشترى من بيت المال . وقسم لا يزرع للعجز عن زراعته وقسم لا يشمله ماء النيل فهو قفر

والاقطاع ضربان اقطاع استغلال واقطاع تمليك وهما يختلفان باختلاف نوع الارض

من العمران والخصب وحالها من الحرب والصلح والفتح ورأي الخليفة في كل ذلك

وسنفصل الكلام في مقدار جباية الدولة في ايام العباسيين وعلاقة ذلك بثروة المملكة في كلامنا عن ثروة المملكة الاسلامية في الجزء الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله

البريد

يراد بالبريد في الدول الاسلامية غير ما يراد به الآن . فقد كان صاحب البريد او صاحب الخبر أشبه برئيس البوليس السري أو رقيب أصحاب الاعمال . أو هو عبارة عن جاسوس الخليفة أو الامير أوعينه الباصرة واذنه السامعة ينقل اليه اخبار عماله او مساعي اعدائه . فالبريد من هذا القبيل أشبه بقلم المخابرات في نظارة الحربية

وكان الخلفاء لايولون البريد الا ثقاتهم من أهل التعقل والدراية لان على ما ينقلونه من الاخبار تتوقف علاقات الخلفاء بعمالهم أو بمعاصريهم . وكان كسرى لايولي البريد الا أولاده

﴿ مصلحة البريد ﴾ ومصلحة البريد قديمة كانت عند الفرس والروم . واول من اتخذها من المسلمين معاوية بن أبي سفيان اقتداء بما كان قبله في الشام أو بما أشار عليه به عماله في العراق . وكان الغرض منه في أول وضعه سرعة ايصال الاخبار بين الخليفة في الشام وعماله في مصر والعراق وفارس . ثم توسعوا فيه حتى جعلوه عيناً للخليفة على عماله وسائر رجال بطانته . فان طاهراً لما قطع الخطبة للمأمون على منبر خراسان عاتبه صاحب البريد فاعتذر انه سهو وقع منه وتقدم اليه ان لايكتب الى الخليفة به . وتكرر ذلك منه ثلاث مرات وطاهر يتقدم اليه ان لايكتب . فقال له صاحب البريد « ان كتب التجار لاتنقطع من بغداد وان اتصل هذا الخبر بامير المؤمنين من غيرنا لم آمن ان يكون سبب زوال نعمتي » فقال اكتب اليه . فكتب

وكان البريد واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ينقل أوامر الخلفاء الى ولاتهم واخبار الولاة الى خلفائهم . وكان اصحاب البريد رقباء أو مفتشين من قبل الدولة يرفعون

التقارير عن احوال الجند أو المال او غير ذلك من أمور المملكة . فاذا تكدرت العلائق بين العامل (الوالي) والخليفة وأراد العامل ان يستقل او يتمرد قطع البريد عن الخليفة كما فعل المأمون لما سمع وهو وال في خراسان ان أخاه الامين نقض بيعته وبايع ابنه موسى بولاية العهد بعده فانه أسقط اسم الامين من الطراز وقطع البريد عنه

وكان بنو العباس اكثر الناس عناية في أمر البريد وبالغوا في استخدامه حتى نسب الى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على احوال ولاته ونوابه ورعيته وربما تطلعوا به على أحوال العوام وآحاد الناس . وقد رتب بعض الخلفاء ذلك جهاراً فمين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهي اليه ما يجري في مجلسه فلا يحسن الوزير لاحد ولا يجتمع به أحد من الناس الا بحضور ذلك الشخص . وكذلك فعل مع القاضي والنائب وجميع ولاة الاعمال . وكان ابو جعفر المنصور يقول « ما احوجني ان يكون على بابي اربعة نفر لايكون على بابي اعف منهم وهم أركان الدولة ولا يصلح الملك الا بهم . اما احدهم فقاض لاتأخذه فى الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية » ثم عض المنصور على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة « آه . . آه » قيل « ما هو يا أمير المؤمنين » قال « صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة »

فاصحاب الاخبار هنا بمعنى جواسيس هذه الايام ولم يكن بين صاحب البريد والخليفة أو السلطان او الامير واسطة . فاذا جاء صاحب البريد بخبر لا يطلع أحداً عليه قبل انهائه الى الخليفة ليكون هو الذي يشيعه او يكتمه حسبما يراه

وكثيراً ما كان الملوك أو الامراء يجعلون بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سرًّا فلا يعتمد احدهم كتاب صاحب بريده الا اذا كانت فيه تلك العلامة ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه اذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه . كما فعل أبو مسلم الخراساني لما دعاه المنصور اليه من خراسان الى بغداد وخاف أبو مسلم عاقبة تلك الدعوة فاستخلف ابا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له « اقم حتى يأتيك كتابي فان اتاك مختوماً بنصف خاتم فانا ختمته وان أتاك بالخاتم

كله فلم أختمه » فلما جاء أبو مسلم الى المنصور في المدائن وكان ما كان من قتله كتب المنصور الى أبي نصر عن لسان أبي مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وان يقدم وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم · فلما رأى ابو نصر الخاتم تاماً علم ان أبا مسلم لم يكتب

ومصلحة البريد ولاية جليلة خطيرة يحتاج صاحبها الى عمال عديدين والى نفقات طائلة للتوسعة عليهم حتى يظلوا على أمانتهم · وكان في جملة واجبات صاحب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والسراق وطرق الاعداء وانسلال الجواسيس في البر والبحر · واليه كانت ترد كتب اصحاب الثغور وولاة الاطراف وهو يوصلها في اسرع ما يمكن من اختصار الطرق واختيار المراكب

﴿ طرق البريد ﴾ وكان للبريد طرق تتشعب من مركز الخلافة الى اطراف المملكة حتى تتصل بطرق الممالك الاخرى · وتنقسم كل طريق الى محطات اومواقف في افراس او هجن فيستبدل عمال البريد أفراسهم بافراس مستريحة في كل موقف التماساً للسرعة وكان الغالب في العرب، ان يتخذوا الجمال لبريدهم واما الفرس فكانوا يستخدمون الخيل · وبلغ عدد سكك البريد في ابان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة ونفقات الدواب واثمانها وارزاق رجالها ١٥٩,١٠٠ دينار في السنة وقد رأيت في كلامنا عن خراج السواد في أيام بني أمية انه كان ينفق على البريد أربعة ملايين درهم اي نحو ضعفي ذلك · وهو يؤيد ما قلناه غير مرة عن بذل بني أمية الاموال في سبيل تأييد سلطانهم

وكان قطار البريد يتألف من دابة فاكثر حتى تبلغ أربعين أو خمسين دابة وكثيراً ما كانوا يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس الى الخليفة او الامير التماساً لسرعة قدومهم · وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق ونوع المراكب بين ان تكون ابلاً أو خيلاً · وكانوا يعلقون في اعناق الدواب جلاجل أو سلاسل اذا تحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بقعقعة البريد · وقد ترسل البرد على السفن في البحار

ومن طرق المخابرة بالبريد غير نقل الخرائط على الدواب أو في البحار ارسالهم السعاة وهم رجال خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في مرحلة

وأهل البراري أنشط لذلك . وأول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة أنشأهم في بغداد لاعلام أخيه ركن الدولة بالاحوال سريعاً . ونبغ في ايامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخر مرعوش فاقا سائر السعاة . وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفاً وأربعين فرسخاً اي نحو ١٤٠ ميلاً

ومن وسائل المخابرة بالبريد حمام الزاجل فقد كان له شأن عظيم عندهم و المخابرة به قديمة جداً عند الامم القديمة . ولكن المسلمين كانوا اكثر عناية من سواهم فيه وقد فصلنا ذلك في الهلال السابع من السنة العاشرة

ومن طرق المراسلة عندهم ان تكتب ورقة تعلق بقصبة وتغرس القصبة في باقة حشيش وتلقي في الماء فيعوم الحشيش ولا يزال جارياً بمجرى النهر حتى يراه المرسل اليه . ومنها ان تكتب الاخبار على السهام وترمى الى المكان المراد ارسال الخبر اليه ويغلب ان يكون ذلك في أيام الحصار وانقطاع السبل

ومن عمال البريد ما عدا السعاة الشعوذي وهو رسول الامراء على البريد . والكوهبانية وهم أصحاب الاخبار الذين يرسلون للاستطلاع . ورجال يتولون فض الخرائط بين يدي الخليفة . والخرائط اجربة او اكياس من جلد توضع الكتب فيها وتختم بختم المرسل وتحمل الى المرسل اليه فيفض ختمها بيده او بيد من يتولى ذلك عنه

القضاء

تاريخ القضاء

﴿ القضاء قبل الاسلام ﴾ القضاء — ويراد به منصب الفصل بين الناس في الخصومات — قديم لان الانسان لم يستغن عمن يفصل في قضاياه من أول ازمان وجوده وكان قضاة القبائل عقلاءها وكبارها وهم أيضاً حكامها وأمراؤها . فكان الرجل اذا نبغ في عقله وقوته تولى حكومة قبيلته وحكم في قضاياها وهو حال البدو على فطرتهم . وكذلك كان العرب في جاهليتهم . فقد كانوا يتقاضون الى وجهائهم وعقلائهم واشتهر

من هؤلاء القضاة قبل الاسلام جماعة كبيرة يحكم كل منهم في قبيلته فمن تميم حاجب بن ذرارة والاقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن ومن ثقيف غيلان بن مسلمة ومن قريش هاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم وأبو طالب بن عبد المطلب عم النبي والعاص بن وائل. ومن بني أسد ربيعة بن حذار. ومن كنانة سلمى بن نوفل وغير هؤلاء ممن اشتهر في كل القبائل مثل اكثم بن صيفي وعامر بن الظرب وغيرهما وكان العرب أيضاً يتقاضون الى الكهان والعرافين

﴿ القضاء في الاسلام ﴾ وأما في الاسلام فاول من تولى القضاء النبي صاحب الشريعة الاسلامية نفسه ثم تولاه خلفاؤه. لان القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة. فكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم ولا يجعلونه الى من سواهم حتى اتسع سلطانهم وكثرت مهام منصبهم اضطروا الى استنابة من يقوم عنهم بالقضاء في مركز الخلافة وفي الاعمال. وأول من فعل ذلك منهم عمر بن الخطاب فولى أبا الدرداء معه في المدينة وولى شريحاً بالبصرة وولى أبا موسى الاشعري بالكوفة وكتب اليه كتاباً هو قاعدة الفقه الاسلامي وعليه تدور أحكام القضاة الى اليوم وهو مشهور

أما مصر فالقضاء فيها كان موكولاً الى امرائها وهم الذين كانوا يولون قضاتها وكان عمر بن الخطاب قد أراد ان يولي قاضي مصر كما ولى قضاة المدينة والبصرة والكوفة فكتب الى عمرو بن العاص ان يولي القضاء كعب بن يسار بن ضنة وكان ممن قضى في الجاهلية. فأبى كعب ان يقبل ذلك وقال « قضيت في الجاهلية ولا أعود اليه في الاسلام » فولى عمرو عثمان بن قيس بن ابي العاصي. وما زال أمير مصر هو الذي يولي القضاة حتى أفضت الخلافة الى بني العباس. فأرادوا توطيد سلطانهم على مصر فجعلوا تولية القضاء اليهم. وأول قاض ولاه الخلفاء على مصر مباشرة عبد الله بن لهيعة الحضرمي ولاه أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ ھ ثم صارت تولية قضاة مصر الى الخلفاء وما زالت الى هذا اليوم

وكان القضاة في أول الامر يولون على الاقاليم على كل أقليم قاض. فلما عمرت المملكة واتسعت تعدد القضاة حتى صاروا يولون في المدن الكبرى عدة قضاة كل

قاض في جانب من جوانبها والخليفة هو الذي يولي كلا منهم بنفسه . الى زمن الرشيد وقد اتسعت بغداد في ايامه ونبغ يومئذ القاضي أبو يوسف الشهير وكان الرشيد يكرمه ويجله فدعاه قاضي القضاة وهو اول من دعي بذلك . وكان أبو يوسف عالي الهمة فخدم هذا المنصب خدمة جلى وميز العلماء بلباس خاص بهم وكانوا من قبله يلبسون مثل سائر الناس . وصار قاضي القضاة بعده هو الذي يولي قضاة مدينة بغداد ثم صار يولي قضاة الاقاليم . واقتدى بالعباسيين من عاصرهم وخلفهم من الخلفاء في الاندلس ومصر وصاروا يولون قاضي القضاة وهو يولي القضاة

وكانت وظيفة القاضي في صدر الاسلام محصورة في الفصل بين الخصوم ثم صاروا يتعاطون أمورًا أخرى على ما تقتضيه الاحوال بحسب اشتغال الخلفاء بأمور السياسة. فأضيف الى أعمال القاضي استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين كالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء . ثم امتدت سلطتهم الى النظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح . وتوسع بعض الخلفاء حتى جعل للقضاة قيادة الجهاد في عساكر الصوائف منهم يحيي بن أكثم فقد كان يخرج في أيام المأمون بالصائفة الى أرض الروم وكذلك منذر بن سعيد قاضي عبدالرحمن الناصر الاموي بالاندلس . وولى العزيز بالله الفاطمي القاضي علي بن النعمان القضاء بمصر وأضاف اليه قضاء الشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز والخطابة والامامة والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل

ولما كانت أيام الحاكم بأمر الله تولى القضاء ابو محمد البازوري سنة ٤٤١هـ واضيفت اليه الوزارة وهو أول قاض جمع بينهما ثم أضيفت الى غيره بعده

فترى مما تقدم ان منصب القضاء كان واسعاً جدًّا . ثم انه لم يكن كذلك في كل الاعصر وانما اختلف باختلاف الدول كما قد رأيت . ثم ان الخلفاء كانوا في أوائل الاسلام لايولون القضاء الا أهل عصبيتهم من العرب أو مواليهم بالحلف أو بالرق او بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع اليه . فلما تحولت الخلافة

الاسلامية من الغرض الديني الى الغرض السياسي وصار الامر كله ملكاً أو سلطاناً ضعف هذا الشرط . ثم تحولت أزمة الاحكام الى الاعاجم فانحصرت واجبات القاضي بالتدريج الى الفصل في الخصوم والحكم في الاحوال الشخصية ثم انحصرت في الاحوال الشخصية بالمحاكم الشرعية كما هي اليوم

وكان القضاة يجلسون في المساجد للحكم بين الناس فاذا جاءهم الخصوم حكموا بينهم هناك . وكانوا يعدون القضاء من الاعمال الشاقة الخطرة بالنظر الى الدين لما فيها من تحمل التبعة فيما قد يخطئ به القاضي فيحكم على صاحب الحق فيظلمه وهو مسئول عنه فكثيراً ما كان العلماء ورجال التقوى يأبون ولايته كما رأيت في أمر كعب ابن يسار لما ولاه عمر قضاء مصر . وكما فعل الامام أبو حنيفة النعمان لما أراد أبو جعفر المنصور ان يوليه القضاء فانه قال له « اتق الله ولا ترع في امانتك الا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف اكون مأمون الغضب . ولو أتجه الحكم عليك ثم تهددتني ان تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت ان اغرق ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ولا اصلح لذلك » . وكانوا اذا ولوا القاضي جاؤا به الجامع واحتفلوا هناك بقراءة السجل الصادر له بذلك

وكان قضاة مصر على مذهب الامام الشافعي منذ ظهور هذا المذهب ولكن كان القاضي منهم يستنيب من شاء من قضاة المذاهب الاخرى . وفي سنة ٥٢٥ هـ عين أبو أحمد بن الافضل أربعة قضاة يحكم كل منهم في مذهب من المذاهب الاربعة ثم توالى ذلك على هذا المنوال في أيام المماليك

وأما راتب القاضي فيختلف باختلاف الدول والازمان . فقد رأيت في غير هذا المكان ان عمر بن الخطاب ولى شريحاً قضاء البصرة وفرض له مئة درهم في كل شهر ومؤونته من الحنطة . وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك في سائر أيام الراشدين ثم تصاعدت في أيام بني أمية مثل تصاعد رواتب الجند وسائر العمال . فلما كانت ايام العباسيين أصبح راتب قاضي مصر ثلاثين ديناراً في الشهر . واول من اقتضى هذا الراتب ابن لهيعة الذي ولاه المنصور كما تقدم . ثم تصاعد الراتب تصاعداً عظيماً في ايام

المأمون فبلغ عطاء عيسى بن المنكدر قاضي مصر يومئذ ٤٠٠٠ درهم او نحو ٢٧٠ ديناراً وهو راتب فاحش ربما جعل كذلك لغرض خاص لانه أجيز فوق هذا الراتب بألف دينار . وعاد راتب قاضي مصر بعد ذلك ببضع وعشرين سنة الى الف دينار في السنة . واول من اقتضى هذا الراتب بكار بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر على عهد احد بن طولون سنة ٢٤٥ هـ . وزاد ذلك في الدولة الفاطمية فأصبح راتب القاضي وهو قاضي القضاة يومئذ ١,٢٠٠ دينار في السنة ماعدا المؤونة والهدايا ولعلها استمرت على ذلك في دولة الايوبيين ومن تلاهم

اما بغداد فلم نقف على رواتب قضاتها في ايام العباسيين ولكننا رأينا القضاء دخل في الالتزام فصار القضاة يضمنون دخل القضاء بمال يؤدونه الى الخليفة او السلطان . وأول من ضمن القضاء عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب سنة ٣٥٠ هـ في ايام معز الدولة بن بويه فتقلد سمي قاضي قضاة بغداد والتزم القضاء على ان يؤدي ٢٠٠,٠٠٠ درهم كل سنة . ثم صار ذلك أمراً مألوفاً وصاروا يضمنون الحسبة والشرطة

ديوان المظالم

وهو من توابع القضاء ويشبه ما نسميه اليوم « مجلس الاستئناف » والغرض منه استماع ظلامات الناس من القضاة أو من غيرهم . وكان العرب في جاهليتهم يلتفتون الى هذا الامر فيتحالفون على رد المظالم كما فعلت قريش قبيل الاسلام . وذلك انهم لما كثر فيهم الزعماء وكثر التغالب والتجاذب اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفاً على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم وهو حلف الفضول المشهور الذي عقد في مكة والنبي عمره ٢٥ سنة . وموضوعه ان لا يظلم أحد في مكة الا انصفوه وأخذوا له حقه . ولم يجلس للمظالم احد من الخلفاء الاربعة لان الناس في الصدر الاول كانوا بين من يقوده التناصف الى الحق اويزجره الوعظ عن الظلم . الا علياً فانه احتاج الى النظر في المظالم ولم تكن في الحقيقة كما صارت اليه بعدئذ . على انه لم يفرد لسماع الظلامات يوماً معيناً أو ساعة معينة وانما كان اذا جاءه متظلم أنصفه . ثم أفردوا يوماً خاصاً للنظر في اقوال المتظلمين وتصفح قصصهم . وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان لكنه

كان اذا وقف منها على مشكل واحتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الازدي . فكان ابو ادريس هو المباشر وعبد الملك الآمر . وأول من ندب نفسه لمباشرة المظالم عمر بن عبد العزيز الشهير . ثم أهملت بعده الى أيام الدولة العباسية فجلس لها خلفاء بني العباس . وأول من جلس منهم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم المأمون . وآخر من تولاها منهم المهتدي بالله محمد بن الواثق . وكانوا يسمعون ظلامات الناس وينصفونهم وفيهم من يتظلم من الولاة او من العمال اوجباة الاموال او من كتاب الدواوين في تقصيرهم بشيء من رواتبهم او من أحد ابناء الخلفاء او الامراء او نحوهم من اهل الوجاهة ممن يغتصبون الاموال أو الضياع او من القضاة لانهم لم ينصفوهم في أحكامهم او من أي انسان كان كبيرًا او صغيرًا . فهو أوسع دائرة من مجلس الاستئناف وأطول باعًا وأشد وقعًا واسرع نفوذًا . ومن امثلة ما ردوه من المظالم على هذه الصورة ان عمر بن عبد العزيز خرج ذات يوم الى الصلاة فصادفه رجل من اليمن فاستغاثه فقال « ما ظلامتك » فقال « غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي » فقال « يا مراجم ائتني بدفتر الصوافي » فوجد فيه « اصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان » فقال « اخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته اليه ويطلق له ضعف نفقته »

وحكي عن المأمون انه كان يجلس للمظالم يوم الاحد فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة وتظلمت اليه في ابنه العباس فأوقفه بجانبها ورد ظلامتها . وبعد المهتدي لم يجلس الخلفاء العباسيون للمظالم على انهم كانوا كثيرًا ما يعهدون بهذا المنصب الى وزرائهم كما فعل المأمون ليحيى بن اكثم والمعتصم لاحمد بن أبي داود . فلما غلب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم الى السلاطين

اما في مصر فأول من نظر في المظالم احمد بن طولون لما استقل بحكم مصر ٢٥٧ ه فكان يجلس لذلك يومين في الاسبوع . ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم حتى فتح الفاطميون مصر وبنوا مدينة القاهرة فاهتموا في أمر المظالم وجلس لها أولاً قائدهم جوهر فاتح مصر وكان يوقع على قصص المتظلمين بيده . ثم صار الخلفاء بعده

يعهدون بذلك الى قاضي القضاة او الى بعض عظماء الدولة . فلما ضعف أمر الفاطميين واستبد وزراؤهم في الحكم صارت المظالم الى الوزراء وأشهرهم في ذلك أمير الجيوش . فقد كان يجلس للمظالم بنفسه واقتدى به من جاء بعده وكانوا يجعلون بباب الديوان مناديًا ينادي « يا أرباب الظلامات » فيحضرون اليه فيأمر بانصافهم

﴿ دار العدل ﴾ ولما افضت الحكومة في مصر الى السلاطين الايوبية بنوا دارًا للنظر في المظالم سموها « دار العدل » . وكان قد سبقهم الى بناء مثل هذه الدار في دمشق الملك العادل نور الدين زنكي وهو تركي الاصل . وكان الايوبية يجلسون في دار العدل للنظر في المظالم . وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك . وكانت لهم عناية كبرى في انصاف الناس وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم فلا يقعدون فيه على تخت الملك ولكنهم يجلسون على كرسي بجانبه حتى تلحق ارجلهم للارض . فاذا جلس السلطان على ذلك الكرسي يجلس قضاة القضاة من المذاهب الاربعة على يمينه ووكيل بيت المال وغيرهم من ارباب الوظائف والحرس والخاصة بين يديه وفيهم من يقرأ الظلامات للسلطان فيراجع القضاة او امراء العسكر في ما يرى مراجعتهم فيه ثم يمضي بما يراه

وكانت لسلاطين المسلمين وأمرائهم عناية كبرى في النظر في مظالم الرعية وكانوا يبذلون الجهد في رفعها ولو كان التظلم منهم أو من أولادهم وأمثلة هذه الحوادث كثيرة في تاريخ الاسلام . فتعود الناس ان يرفعوا شكواهم الى خلفائهم وسلاطينهم في أيام معينة وصاروا يحسبون ذلك فرضًا واجبًا . فاذا أمسك الخليفة عن النظر في المظالم يومًا أو بضعة أيام ضجوا وملوا . وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع بعضها للنظر في مظالم الجند وبعضها للنظر في مظالم العمال وبعضها لغير ذلك

﴿ الحسبة ﴾ وهي وظيفة دينية من قبيل القضاء . وصاحب الحسبة (المحتسب) يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدن مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار في الحمل . والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة .

والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها اذا بالغوا في ضربهم التلامذة . وله النظر في الغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين مما يعد من واجبات مصلحة البلدية في هذه الايام . والاصل في الامور التي ذكرناها ان تكون من واجبات القاضي ولكنهم جعلوها وظيفة مستقلة تنزيهاً للقاضي عن استقصاء هذه الامور بنفسه . على انها كثيرًا ما كانت تجعل في جملة اعمال القضاة في عهد الفاطميين بمصر والامويين في الاندلس . فلما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاماً في السياسة اندرجت الحسبة في وظائف الولاية

ولا يتولى الحسبة الا رجل من وجهاء المسلمين لانها خدمة دينية . وكان صاحب الحسبة يولي عنه نواباً في سائر الكور والاعمال وله الجلوس في الجوامع كل يوم ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش . فكان صاحب الحسبة في مصر يجلس في جامعي القاهرة والفسطاط يوماً بعد يوم ويبعث نوابه في الشوارع لتفقد اللحوم والمطبوخات ومراعاة احمال الدواب فلا يؤذنون لاحد ان يحملها فوق طاقتها . ويأمرون السقايين بتغطية الروايا بالاكسية ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلوًا كل دلو أربعون رطلاً وان يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهي زرق . وينذرون معلمي المكاتب بان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل . وكذلك معلمو العوام بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس . ويقفون على من يكون سيء المعاملة فينهونه وينظرون في المكاييل والموازين وللمحتسب النظر في دار العيار

وأما في الاندلس فكانوا يسمون هذه الوظيفة « خطة الاحتساب » ويتولاها قاض . وكانت العادة فيه ان يمشي بنفسه راكباً على الاسواق وأعوانه معه وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الاعوان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار ان يبيع بأكثر أو دون ما حل له المحتسب في الورقة . ولا تكاد تخفى خيانته فان المحتسب يدس عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر المحتسب الوزن فان وجده ناقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس . ولهم في اوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما يتدارس الفقهاء أحكام الفقه

﴿ الشرطة ﴾ والشرطة في الاصل من توابع القضاء لان المراد بها تنفيذ احكام القضاة او فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم واقامة التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة . فكانت الشرطة خادمة للقضاء تساعد القاضي على اثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم . ويتولى صاحبها أيضاً اقامة الحدود على الزنا وشرب المسكر وكثير من الامور الشرعية التي يجلون مقام القاضي عنها

ثم صار النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية في الاندلس والفاطمية بمصر راجعاً الى صاحب الشرطة وافردوها من نظر القاضي . ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم . ثم تفرعت الشرطة في الاندلس الى شرطة كبرى وشرطة صغرى تحكم الكبرى في الخاصة والزعماء وأهل المراتب السلطانية فتضرب على أيديهم في الظلامات وعلى أيدي اقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه . وأما الصغرى فتنحصر في الاحكام على العامة والرعاع . ونصبوا لصاحب الشرطة الكبرى كرسياً بباب دار السلطان وله رجال يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا من تصريفه . وكانت تعد ولايتها ترشيحاً للوزارة أو الحجابة . وكان صاحب الشرطة يسمى عندهم صاحب المدينة أو صاحب الليل . وفي دول السلاطين كانوا يسمون صاحب الشرطة الوالي وفي أفريقية يسمونه الحاكم . فكأن الشرطة نشأت مع القضاء ولكنها لم تنفرد بنفسها وتتميز عنه الا في ايام بني أمية

ديوان الانشاء

﴿ الكتابة ﴾ لم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الكتابة الا نفراً قليلين . ولم تكن كتابتهم بالاحرف العربية المعروفة اليوم وانما كانوا يكتبون بالاحرف العبرانية اقتباساً من اليهود في جملة ما اقتبسوه من الآداب والدين . وكان ممن كتب العربية بالقلم العبراني ورقة بن نوفل ابن خال خديجة زوج النبي . أو بالاحرف النبطية نقلا عمن هاجر اليهم من الانباط في القرون الاولى للميلاد فراراً من سلطان الرومان .

والارجح عندنا ان الحرف العربي الذي تكتب به اللغة العربية اليوم متخلف عن الحرف النبطي الذي نشرنا صورته في أوائل هذا الكتاب وبينه وبين القلم العربي تشابه . وأما الحرف الكوفي فقد تخلف عن القلم الاسطرنجيلي الذي كان يكتب به السريان او الكلدان في العراق واستخدمه العرب في أول الامر لكتابة اللغة العربية فحدث فيه بعض التبديل حتى صار الى ما هو عليه . ومما يؤيد قولنا بانه من العراق وانه حدث بعد الاسلام اسمه . لان الكوفة من المدن التي بناها المسلمون في العراق

ولما ظهر الاسلام لم يكن يكتب بالعربية الا بضعة عشر انساناً وكلهم من الصحابة . وفيهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة وعثمان وأبو سفيان وولداه معاوية ويزيد وغيرهم . فكان علي وعثمان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم ممن كتب للنبي لانه لم يكن يكتب ولا يقرأ . فكتبوا له سور القرآن والكتب التي خاطب بها الملوك يدعوهم الى الاسلام . وكان بعضهم يكتب له في حوائجه والبعض الآخر يكتبون بين الناس في المدينة والبعض الآخر يكتبون بين القوم في مياههم وقبائلهم وفي دور الانصار بين الرجال والنساء . ولما تولى ابو بكر كان عثمان بن عفان كاتبه يكتب له الكتب الى العمال والقواد . وصارت الكتابة منصباً من مناصب الحكومة لا يستغنى عنه . فلما تولى عمر كتب له اولاً زيد بن ثابت ثم غيره فغيره . ولما فتحت الامصار وتدونت الدواوين عين عمر كاتباً لكل ولاية يكتب في ديوانها . وكان الكاتب يكتب في اول الامر لديوان الجند وبيت المال . فتولى عثمان وعلي وانقضت دولة الخلفاء الراشدين والكتابة منحصرة في واحد يضبط حساب الديوان من اعطيات الجند واسمائهم ويكتب المراسلات . وربما كانا اثنين يتولى الثاني كتابة بيت المال

ولما انتقلت الخلافة الى بني أمية وتعددت مصالح الدولة على ما مر بك تعدد الكتاب فصارت الكتابة خمسة أصناف : كاتب الرسائل لمخاطبة العمال والامراء والملوك وغيرهم . وكاتب الخراج يدون حساب الخراج داخله وخارجه . وكاتب الجند يقيد اسماء الاجناد وصفاتهم وطبقاتهم واعطياتهم ونفقات الاسلحة وغير ذلك . وكاتب الشرطة يكتب التقارير عما يقع من احوال العقود والديات وغيرهما . وكاتب قاض

يكتب الشروط والاحكام

﴿ ديوان الانشاء ﴾ وأهم اصناف الكتاب كاتب الرسائل وهو اقدمها وقد يسمى كاتب السر وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع أسراره كما كان عمر لابي بكر وعثمان لعمر . وكان الخلفاء في اول عهد الاسلام لا يولون هذا المنصب الا اقرباءهم او خاصتهم لما فيه من الخطارة . وظلوا على نحو ذلك الى ايام بني العباس فكان كتابهم في اول الامر يستبدون في الامر دونهم . ثم صارت الكتابة الى وزرائهم ولم يكن الوزير يكتب الرسائل او الرقاع بيده ولكنه يمضيها اي يوقع عليها كما يفعل الباشكاتب اليوم والوزير . واول من وقع على الرقاع عندهم يحيي بن جعفر البرمكي لما اطلق يده الرشيد في امور الدولة ومقاليدها . فصار اذا رفع أحد كتاباً في ظلامة او طلب رزق أو نحو ذلك وقع يحيى عليه بيده . وصار الوزراء بعده يوقعون على الرقاع او القصص وربما انفرد بعضهم في ولاية ديوان السر او ديوان الرسائل أو الانشاء

وفي اخريات دولة بني العباس استقلت الكتابة وعهدت الى غير الوزراء وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الانشاء وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الانشاء او صاحب ديوان الانشاء او كاتب السر وكل أمور هذا الديوان الى الوزير . وكانوا يسمونه أيضاً الديوان العزيز وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء بما يشبه نظارة الخارجية او الباب العالي في هذه الايام

﴿ التوقيع ﴾ يريدون بالتوقيع في دوائر الحكومة اليوم « الامضاء » اما في ايام الخلفاء فكان يراد به ما يعلقه الخليفة على القصص او الرقاع (العرضحالات) المعروضة عليه لطلب او شكوى او نحو ذلك فيكتب عليها بما يجب اجراؤه او ما يفيد الجواب على فحواها بما يشبه التأشير او التعليم في دوائر حكومتنا • وهو من واجبات صاحب ديوان الانشاء او من يتعين للتوقيع خاصة • فيجلس الكاتب بين يدي الخليفة او السلطان في مجالس حكمه وفصله • فاذا نظر الخليفة في الرقاع امر الكاتب ان يوقع عليها فيتوخى الكاتب ابلغ ما يستطيعه • وكانوا يختارون للتوقيع كتاباً من اهل العارضة والبلاغة ليستقيم توقيعه • فكان جعفر بن يحيي يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها وكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على اساليب البلاغة وفنونها حتى

قالوا انها كانت تباع كل قصة منها بدينار

وكان الخلفاء في صدر الاسلام هم الذين يوقعون في القصص والرقاع بانفسهم او يامرون كتابهم بتدوينه • والغالب في توقيعهم ان يكون اقتباساً من آية او حديث اوحكمة مشهورة او شعر حكمي • ومن امثلة ذلك ان سعيد بن ابي وقاص عامل العراق كتب الى عمر بن الخطاب كتاباً يستأذنه فيه ببناء دار فوقع عمر في اسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر واذى المطر » ووقع عمر ايضاً لعمرو بن العاص عامله على مصر جواباً على كتاب كتبه اليه « كن لرعيتك كما تحب ان يكون لك اميرك » وتشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم وذكروا انه امر بوجء اعناقهم فوقع في ذلك الكتاب « فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » وارسله اليه • ومن توقيعات علي بن ابي طالب في كتاب جاءه من ابنه الحسن « رأي شيخ خير من جلد غلام » وكتب سلمان الفارسي الى علي يسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة فوقع على كتابه « يحاسبون كما يرزقون » • ومن توقيعات معاوية بن ابي سفيان ان عبد الله بن عامر كتب اليه يسأله ان يقطع مالاً في الطائف فوقع « عش رجباً تر عجباً » وكتب زياد بن ابيه الى معاوية يخبره ان عبد الله بن عباس يطعن في خلافته فوقع في اسفل الكتاب « ان ابا سفيان وابا الفضل كانا في الجاهلية في مسلاخ واحد وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » ووقع عبدالملك ابن مروان في كتاب جاءه من الحجاج يخبره فيه بسوء طاعة اهل العراق وما يقاسي منهم ويستأذنه في قتل اشرافهم « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ومن شؤمه ان يختلف المؤتلفون » ووقع في كتاب جاءه من الاشعث وهو ثائر عليه :

« فما بال من اسعى لاجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري »

وكتب قتيبة بن مسلم الى سليمان بن عبد الملك يتهدده بالخلع فوقع سليمان على الكتاب

« زعم الفرزدق ان سيقتل مربعاً فابشر بطول سلامة يا مربع »

وكتب اليه قتيبة مرة اخرى بالتهديد فوقع في الكتاب « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » • وكتب بعض العمال الى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في مرمة مدينة فوقع في اسفل كتابه « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » وكتب اليه عامله على العراق يخبره بسوء طاعة اهلها فوقع له « ارض لهم ما ترضى لنفسك وخذ بجرائمهم بعد ذلك » وكانت توقيعات عمر بن عبد العزيز كثيرة • ووقع يزيد بن عبد الملك على رقعة

رجل يتظلم من عامل « وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلَبٍ ينقلبون »
ومن توقيعات بني العباس ان بعض اهل الانبار كتبوا الى السفاح يشكون ان منازلهم اخذت منهم وادخلت في البناء الذي امر به ولم يعطوا اثمانها فوقع « هذا بناءٌ اسس على غير تقوى » وامر باعطائهم الاثمان • وشكا أهل الكوفة الى جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم فوقع على كتابهم « كما تكونوا يوئمر عليكم » ووقع على قصة رجل شكا عيلة « سل الله من رزقه » وجاءه من عامله على حمص كتاب فيه خطأ فوقع في اسفله « استبدل بكاتبك والا استبدل بك » • وكتب صاحب ارمينيا الى المهدي يشكو سوء طاعة رعاياه فوقع في الكتاب « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين » وشكا بعضهم اليه اهمال عامله في خراسان فوقع على شكواهم « انا ساهر وانت نائم » وارسله اليه ومن توقيعات هرون الرشيد الى عامله في خراسان « داو جرحك لا يتسع » والى عامله على مصر « احذر ان تخرب خزانتي وخزانة اخي يوسف فيأتيك منه مالا قبل لك به ومن الله اكثر منه » • وكتب ابن هشام الى المأمون يتظلم من امر فوقع على كتابه « من علامة الشريف ان يظلم من فوقه ويظلمه من فوقه فاي الرجلين انت » وقس على ذلك سائر توقيعات الخلفاء

على ان التوقيع لم يكن خاصاً بالخلفاء ولكنه كان شائعاً بين الامراء والكبراء أيضاً مثل زياد ابن أبيه وأبي مسلم الخراساني وجعفر بن يحيى. ولجعفر شهرة طائرة في بلاغة توقيعاته كما تقدم . من ذلك توقيعه لمحبوس « ولكل اجل كتاب » ووقع في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله « لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت » وفي رقعة رجل يستأذن في الحج « من سافر الى الله انجح » وفي كتاب رجل طلب ولاية « لا اولي بعض الظالمين بعضاً » وفي قصة رجل يستمنحه وقد كان منحه مرارًا « دع الضرع يدر لغيرك كما درَّ لك » . وغير ذلك شيء كثير ومثله للفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وغيرهما

وكان لهم ولع غريب في اختصار الكتابة في المراسلات ما يصح ان يتخذ مثال البلاغة . من امثلة ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يستمده بالحنطة والمؤونة من مصر على أثر ما اصاب اهل المدينة من الجهد . فكتب ابن الخطاب

يقول « من عبد الله امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعت أنت ومن معك ان أهلك أنا ومن معي فياغوثاه ثم ياغوثاه » فكتب اليه عمرو « لعبدالله أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص أما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام » وأمثال ذلك كثير في مراسلاتهم فليطلب في كتب الادب

ولم يكن هذا الاختصار قاصراً على المكاتبات بينهم وبين عمالهم ولكنه كان شأنهم في كل مكاتباتهم . من امثال ذلك جواب هرون الرشيد الى نقفور (نيسوفورس) ملك الروم وكان قد كتب اليه كتاباً يتهدده و يطلب اليه ان يرد ما كان اخذه من الخراج من الامبراطورة التي كانت قبله . فلما قرأ الرشيد الكتاب احتدم غيظاً فلم يتمالك عن ان أخذ دواة كتب على ظهر الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه »

ومثل ذلك جواب يوسف بن تاشفين صاحب مراكش على كتاب الاذفونش ملك الافرنج الذي يتهدده فيه . وكان الكتاب طويلاً فلما قرأه يوسف كتب على ظهره « الذي يكون ستراه »

﴿ مكاتبة الخلفاء ﴾ وكان من القواعد المرعية في مكاتبة الخلفاء ان يبدأوا بذكرهم قبل ذكر مخاطبهم ويكلفوا مكاتبيهم ان يراعوا ذلك كما رأيت في ما دار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ويعدون العدول عنه ذنباً لا يغتفر . وقد كان في جملة ما حمل المنصور على قتل أبي مسلم الخراساني مع ما له على دولتهم من الفضل انه كتب مرة الى المنصور و بدأ بنفسه . واذا رأيت في بعض المراسلات ما يخالف هذه القاعدة فانه سهو من النساخ

ولم يزل الامر كذلك الى ان استولى بنو بويه على الامر وغلبوا على الخلفاء واستبدوا عليهم فاحتجب الخلفاء ولم يبق اليهم في ما يكتب عنهم غالباً سوى الولايات وفوض الامر في غالب المكاتبات الى وزرائهم وصارت اذا اقتضت الحال ذكر

الخليفة كني عنه بالمواقف المقدسة والمقامات الشريفة والسدة النبوية والدار العزيزة والمحل الممجد . يعنون بالمواقف الاماكن التي يقف الخليفة فيها ثم انتقلوا الى تعظيم الامراء والوزراء بالتلقيب بالمجلس العالي والحضرة السامية وما اشبه

﴿ الاشارة أو الرمز ﴾ ومن تفننهم في المكاتبات الاشارة بحرف واحد الى مقالة طويلة كما وقع للسلطان محمد الغزنوي ابن سبكتكين بعد ان استقل بالسلطنة فانه كتب الى الخليفة ببغداد يطلب اليه ان يذكر اسمه في الخطبة وينقش اسمه على النقود فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث محمود اليه كتاباً يهدده فيه قال في جملته « لو أردتُ نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » فبعث الخليفة اليه كتاباً مختوماً . فلما فتحه محمود لم يجد فيه غير البسملة وبعدها الف ممدودة وفي وسط الكتاب لام وفي آخره ميم ثم الصلاة والحمد لله . فتحير السلطان وأهل مجلسه في ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني وكان من كبار العلماء ففكر في ذلك حتى فقه له فقال « عندي شرحه » فقال السلطان « قل ولك ماتريد » فقال « انكم بعثتم تتهددون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه « الف لام ميم » اشارة الى قوله تعالى ألم ترَ كيف فعل ربك باصحاب الفيل الى آخر الآية . . » فارتاع السلطان لذلك وتشاءم وندم وعاد الى احسن الاحوال

ومن هذا القبيل حكاية لطيفة وقعت لسديد الملك علي بن مقلد صاحب قلعة شيزر في اواسط القرن الخامس للهجرة وكان شجاعاً مقداماً وكان موصوفاً بقوة الفطنة وكان قبل تملكه قلعة شيزر يتردد الى حلب وصاحبها يومئذ تاج الملوك محمد بن صالح فوقع بينهما أمرٌ أخاف سديد الملك من تاج الملوك فخرج سديد الملك الى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده . فعلم تاج الملوك بذلك فأراد الاحتيال في استقدام سديد الملك اليه للفتك به فأوعز الى كاتبه أبي النصر محمد ابن الحسين ان يكتب اليه كتاباً يشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه اليه . وفهم أبو النصر الغرض الحقيقي من ذلك الكتاب وكان صديقاً لسديد الملك ولكنه لم ير مندوحة عن كتابة الكتاب فكتبه كما أمر به تاج الملوك حتى اذا بلغ الى قوله « ان شاء الله

تعالى » شدد النون في ان وفتحها فجعلها « انَّ » وأنفذ الكتاب . فلما وصل الكتاب الى سديد الملك قرأه ثم عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن في مجلسه من الخواص فاستحسنوا عبارة الكاتب واستعظموا مافيه من رغبة تاج الملوك فى سديد الملك وايثاره قربه فقال سديد الملك « اني أرى في الكتاب ما لا ترون » ثم أجابه على الكتاب بما اقتضاه المقام وكتب في جملة ذلك « انا الخادم المقر بالانعام » وكسر همزة « انا » وشدد نونها فصارت « إنّا » . فلما وصل الكتاب الى تاج الملوك ووقف عليه أبو نصر الكاتب سر بما فيه وقال لاصدقائه « قد علمت ان الذي كتبته لا يخفى على سديد الملك » . وكان أبو نصر قد قصد بتشديد نون « انَّ » الاشارة الى الآية « ان الملأَ يأتمرون بك ليقتلوك » فأجابه سديد الملك بتشديد « انّاَ » اشارة الى الآية « انّاَ لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها »

ومن تفننهم من هذا القبيل ما كتبه عضد الدولة بن بويه الى أبي منصور افتكين متولي دمشق وكان افتكين قد كتب اليه كتاباً مضمونه « ان الشام قد صفا وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر وان قويتني بالاموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم » فكتب اليه عضد الدولة جواباً في كلمات متشابهة لاتقرأ الا بعد الشكل والتنقيط والضبط وهي « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا الخ » أراد ان لايقع الكتاب بيد أحد فيطلع على ما فيه ففهم افتكين مراده وعمل به

﴿ ادوات الكتابة ﴾ اما القلم فكانوا يصنعونه من القصب على نحو ما نفعل اليوم . وأما الحبر وهو المداد فالظاهر انهم كانوا يصنعونه من مسحوق الفحم او من الهباب مدافاً بسائل لزج كالصمغ أو نحوه

وأما القرطاس فأقدم ما كتب فيه العرب من أول الاسلام الرق وهي الجلود وكتبوا أيضاً على الاقمشة وأشهرها نسيج مصري كانوا يسمونه القباطي وعليه

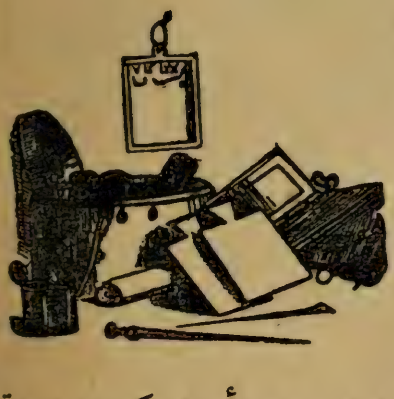

(ش ٣٠) أدوات كتابة قديمة

كتبت المعلقات السبع قبل الاسلام . واذا تعذر ذلك كتبوا على الخشب او العظام اوعلى قطع الخزف او على الاحجار اونحو ذلك

ولما فتحوا مصر اتخذوا البردي (البابيروس) فكان اكثر مكاتبات الامويين على البابيروس والقباطي . وفي المكتبة الخديوية في القاهرة آثار مخطوطة بالعربية عثروا عليها في بعض انحاء القطر المصري شاهدنا بينها صحفاً من البابيروس وقطعاً من القباطي وقد ظهر البلاء فيها والكتابة لا تزال ظاهرة عليها . ورأينا قطعاً من الفخار عليها كتابة عربية أيضاً وأقدم تلك المخطوطات لا يتجاوز آخر القرن الاول للهجرة . وكلها معروضة في قاعة الكتبخانة الخديوية ليراها الناس

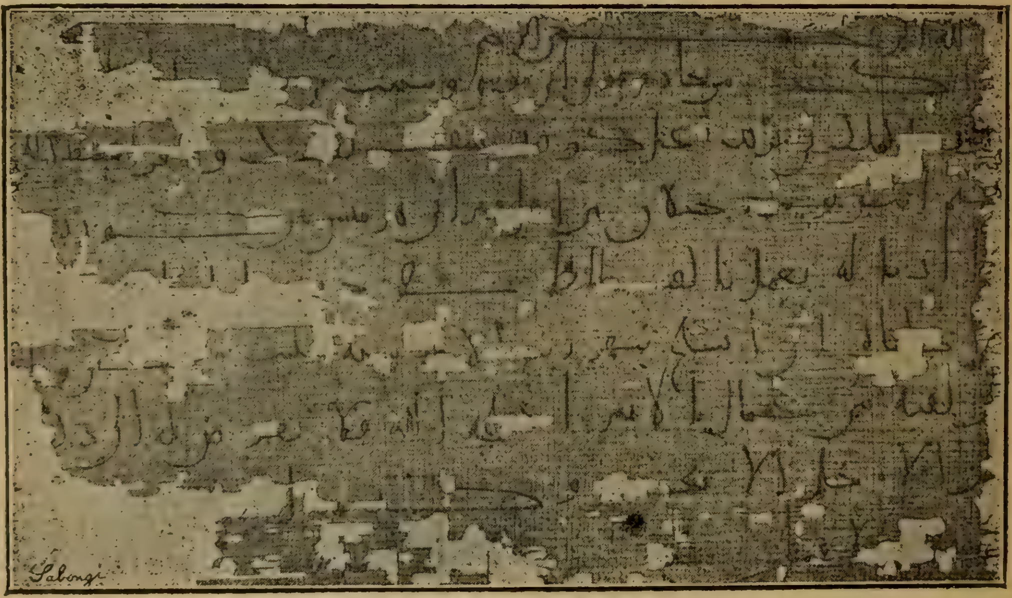

(ش ٣١) كتابة عربية على القماش في أوائل القرن الثاني للهجرة

وفي الشكل ٣١ صورة رسالة عربية يظن انها كتبت في اوائل القرن الثاني للهجرة وهي مكتوبة على القماش ومحفوظة الآن في المتحف البريطاني في لندرا

فلما كانت أيام الدولة العباسية اتخذوا الكاغد اشار به الفضل بن يحيى البرمكي فاصطنعوه والارجح انهم أخذوه عن صناعة الصين لان الصينيين برعوا في صناعة الورق قبل الميلاد وكانت هذه الصناعة منتشرة في بلادهم . فلما فتح المسلمون سمرقند

أخذوها عنهم ولكنهم لم يجتهدوا في تعاطيها الا في أبان الدولة العباسية اذ ضاقت الرقوق والجلود عن المكاتبات والمراسلات والسجلات فأشار الفضل باصطناعه فانشأوا له المعامل في بغداد والشام وغيرهما من عواصم الاسلام . وكانوا الوسيلة الوحيدة في نشر صناعة الورق في العالم لان أهل أوربا لما افاقوا من سباتهم في الاجيال الوسطى استخدموا الكاغد الشامي وكان اسمه عندهم Charta Damascena وانتقلت صناعة الورق الى أوربا بطريق الاندلس (اسبانيا) فقد كان للعرب معامل لصناعة الورق في شاطبة وبلنسية وطليطلة . فلما دخلت الاندلس في حوزة الافرنج استبقوا تلك المعامل ثم نقلت من اسبانيا الى سائر ممالك أوربا . ومن أقدم المخطوطات العربية على الكاغد نسخة من كتاب غريب الحديث في مكتبة ليدن الجامعة يظن انها كتبت في أوائل القرن الثالث للهجرة . وكتاب ديوان الادب في مكتبة المتحف البريطاني كتب في أوائل القرن الرابع

الحجابة

يراد بالحاجب في دول الاسلام ما يراد بالتشريفاتي في هذه الايام . وهو الذي يتولى الاذن للناس في الدخول على الملك او السلطان او الامير ولا بد منه في الدولة حفظًا لهيبة الملك . وكلما اعرقت الدولة في المدنية واستغرقت في الترف تكاثف الحجاب بين ملكها ورعاياه . فكان الخلفاء الراشدون يفتحون أبواب مجالسهم لاي كان ويخاطبون الفقير والغني والصعلوك والقوي بلا حجاب ولا كلفة

فلما تحولت الخلافة الى الملك كان في جملة ما أدخلوه على الدولة التدقيق في الحجاب وترتيب الناس في الدخول على الخلفاء بحسب طبقاتهم وانسابهم . وأول من انتبه لذلك معاوية بن أبي سفيان نبهه اليه زياد ابن أبيه فكانوا يفضلون في الدخول اهل البيوتات اي أهل النسب فاذا تساوت الانساب فضلوا السن فاذا تساوت فضلوا اهل الادب والعلم . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لاربعة في أي وقت

شاؤا وهم المؤذن وطارق الليل ورسول الثغر وصاحب الطعام . ومن هذا القبيل قول زياد لحاجبه « وليتك حجابتي وعزلتك عن أربعة . هذا المنادي الى الله في الصلاة والفلاح لا تفرجنه عني فلا سلطان لك عليه . وطارق الليل لا تحجبه فشر ما جاء به ولو كان خيرًا ما جاء به تلك الساعة . ورسول الثغر فانه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علي وان كنت في لحافي . وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد تسخينه فسد »

فلما جاءت دولة بني العباس وصارت الى ما هو معروف من العز والترف زادوا في منع الناس عن ملاقاة الخليفة الا في الامور الهامة وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثاني . وصار بين الناس والخليفة داران دار الخاصة ودار العامة يقابل كل فئة في مكان على ما يراه الحجاب . وتطرقوا عند انحطاط الدولة الى حجاب ثالث أحصن من الاولين . ولا يكون هذا الا عند الحجر على صاحب الدولة . وذلك ان اهل الدولة كانوا اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وأرادوا الاستبداد عليهم فاول ما يتوخونه حجب البطانة وسائر الاولياء عنهم ويوهمونهم ان في مباشرتهم خرق حجاب الهيبه وفساد قانون الادب كما حدث في آخر أيام الدولة العباسية ولا يكون ذلك الا في اواخر الدولة

النقابة

النقابة وهي نقابة الاشراف سموها بذلك اشارة الى انها تتعلق باشراف المسلمين وهم اهل بيت النبي • وذلك ان عائلة النبي كانت في اوائل الاسلام محفوظة الحرمة لقرب عهدهم من النبوة• فكانوا يجعلون على اهل بيت النبي رئيساً منهم يتولى امورهم ويضبط انسابهم ويدون مواليدهم ووفياتهم وينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم من ارتكاب المآثم ويطالب بحقوقهم ويدعوهم الى اداء الحقوق وينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم في سهم ذوي القربى من الفيء والغنيمة ويقسمه بينهم ويمنع أياماهم ان يتزوجن الا من الاكفاء وغير ذلك مما يشبه الوصاية العامة كان نقيب الاشراف وصيهم

وكانت نقابة الاشراف من المناصب السامية ولها الشأن الاول من الشرف بعد الخلافة — ولذلك قال الشريف الرضي نقيب الاشراف يخاطب الخليفة القادر بالله العباسي من قصيدة :

عطفاً امير المؤمنين فاننا　　في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت　　ابداً كلانا في المعالي معرق
الا الخلافة ميزتك فانني　　انا عاطل منها وانت مطوق

وكان الخلفاء يكتبون لنقباء الاشراف عهوداً وتقاليد تدل على جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم • وكانوا كثيراً ما يعهدون اليهم سقاية الحج وديوان المظالم من الخطط السامية • وما زالت الدول الاسلامية تحترم نقابة الاشراف في كل ادوار تاريخها حتى الدولة العثمانية فانها لا تزال محافظة على ذلك الى الان • فنقيب الاشراف فيها يقدم في التشريفات الرسمية على سائر رجال الدولة العلية حتى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام

مشيخة الطرق الصوفية

مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التي حدثت بعد حدوث الصوفية • ولصاحبها التكلم على جميع الطرق الصوفية • والشأن في هذه الطرق ان لكل طريقة شيخاً ولكل شيخ خلفاء في القرى والامصار ولكل خليفة مريدين • فالشيخ يدير امر الخلفاء والخلفاء امر المريدين من حيث ارشادهم ومراقبتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك • ولشيخ المشايخ الولاية العامة على الجميع • ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها اعمالهم وتتوحد بها مقاصدهم بل كانت كل طريقة او زاوية مستقلة بنفسها فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن • فلما انشأ السلطان صلاح الدين الايوبي خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ وكان لا يولى عليها الا اعاظم رجال الدولة من الاكابر والاعيان كاولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه مع ما كان لهم من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش • ووليها ذو الرياستين الوزير الصاحب تقي الدين عبدالرحمن بن بنت الاعز وغيره • وما زالت الحال

كذلك الى ان توحدت رئاسة الصوفية بمصر في القرن التاسع للهجرة فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكري وكان من اعظم رجال عصره علماً وديناً . قال الشعراني عنه « ولو قلت انه اعلم اهل زمانه لم أبعد عن الصواب » ثم تولاها بعده ابنه الامام شيخ الاسلام المفسر الشهير ابو السرور البكري وانتقلت بعده الى ذريته ولا تزال الى الآن في البيت البكري الصديقي بمصر

تم الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي

بحمد الله وعونه

فهرس الجزء الاول

(من تاريخ التمدن الاسلامي)

٨ مقدمات تمهيدية
٩ العرب والتمدن
١٤ عصر الجاهلية في الحجاز
١٧ حكومة العرب في الجاهلية
١٨ الكعبة والتجارة وقريش
٢٢ النهضة العربية قبل الاسلام
٢٤ الدعوة الاسلامية
٢٩ الروم والفرس عند ظهور الاسلام
٣٦ انتشار الاسلام
٤٢ و ٤٨ الخلفاء الراشدون
٤٦ الفتوح الاسلامية
٦٢ دولة بني امية
٦٩ دولة بني العباس
٧٢ دولة بني امية في الاندلس
٧٤ الدولة الفاطمية بمصر
٧٥ المملكة الاسلامية واحصاؤها
٨٢ مصالح الدولة الاسلامية
٨٧ الخلافة وما يتعلق بها
٩٢ علامات الخلافة (البردة والخاتم والقضيب)
٩٦ شارات الخلافة (الخطبة والسكة والطراز)
١٠٦ ولاية الاعمال
١١٢ الوزارة
١١٧ الجند وتوابعه (تاريخه)
١٢٢ ديوان الجند
١٢٤ اعطيات الجند
١٢٨ عدد الجند
١٣٠ رتب الجند
١٣٢ مساكن الجند
١٣٣ اللواء والراية
١٣٦ الموسيقى
١٣٧ السلاح
١٤١ آلات الحصار
١٤٧ نظام الجند في الحرب
١٥٢ مناداة الجند وشعاره
١٥٣ الثغور والعواصم
١٥٦ الاساطيل
١٦٣ بيت المال (الصدقة)
١٦٦ الغنيمة
١٦٧ الفيء
١٦٩ الجزية
١٧١ الخراج
١٨٠ البريد
١٨٣ القضاء
١٨٧ ديوان المظالم
١٩٠ الحسبة والشرطة
١٩٤ ديوان الانشاء
٢٠٠ الحجابة
٢٠١ النقابة
٢٠٢ مشيخة الطرق الصوفية

LArab
Z21t
Zaidān, Jurjī
Ta'rīkh al-tamaddun al-islāmī. [A history
of Islamic civilization.]
pt.1
425045

DATE.

University of Toronto
Library

DO NOT
REMOVE
THE
CARD
FROM
THIS
POCKET